نادي النورين
بالقرآن والسنة تشرق حياتي

جامعة الدمام
UNIVERSITY OF DAMMAM

مسابقة الوحيين لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

المحور الثالث:الثبات والصبر على الفتن

إعداد وتجميع:

نادي النورين

د.زهراء حامد الغامدي

مراجعة:

-د.منيرة الدوسري
مديرة مكتب جمعية تبيان النسائي
بمدينة الدمام

-د.فتحية القحطاني
أستاذة العقيدة المساعد بكلية الآداب
جامعة الدمام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان أما بعد :

فقد سلك نادي نورين بجامعة الدمام مسلكاً موفقاً في تنظيم مسابقة الوحيين للطالبات في المرحلة الجامعية بالمنطقة الشرقية من بلادنا المباركة المملكة العربية السعودية، حيث تم اختيار ثلاثة محاور عظيمة الفائدة هي محور القرآن الكريم وفضائله، وفيه تحفظ المتسابقة سورة فصلت مع تفسيرها من عدة كتب منتخبة بالإضافة إلى أحاديث كتاب فضائل القرآن للنسائي وشرح الدكتور عبدالرزاق البدر. والمحور الثاني محور الإيمان حقيقته وثماره، وفيه تحفظ المتسابقة سورة المؤمنون مع تفسيرها من عدة كتب منتخبة، بالإضافة إلى أحاديث كتاب الإيمان للبخاري. والمحور الثالثة محور الصبر والثبات عند الفتن، وفيه تحفظ المتسابقة سورة العنكبوت مع تفسيرها من عدة كتب منتخبة، بالإضافة إلى أخاديث كتاب الفتن للبخاري.

وقد تضمنت هذه المسابقة منهجاً مناسباً في التفسير والأحاديث وشرحها بلغة سهلة تعين الطالبة على الحفظ والفهم للقرآن والسنة، وهذا منهج صحيح يحبب القرآن والسنة للطالبات، ويشجعهنَّ على الاستمرار في حفظ القرآن والسنة، ويرسخ في نفوسهنَّ قيماً عظيمة من قيم الإسلام العليا التي ينبغي الحرص على تربية الطالبات عليها.

وأرجو لهذه المسابقة التوفيق والسداد، وللقائمين عليها المثوبة والإخلاص، كما أشكر جامعة الدمام لدعمها لمثل هذه المسابقة المباركة، وأرجو الاستمرار في عقدها وتوسيع نطاقها حتى يعم هذا الخير العظيم الذي تحققه المسابقة .

أ.د.عبدالرحمن بن معاضة الشهري

أستاذ القرآن وعلومه بجامعة الملك سعود

مسابقة الوحيين لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

هي مسابقة يقيمها نادي النورين التابع لوكالة عمادة شؤون الطالبات بمجمع الكليات بالريان – جامعة الدمام موجهة لكافة طالبات الجامعات في المنطقة الشرقية، برعاية طيبة من معالي مدير جامعة الدمام الدكتور/ عبدالله الربيش، هدفها أن يشرق قلب الفتاة المؤمنة بآيات القرآن الكريم حفظًا مرتلًا مجودًا، بفهم معنى وتدبّر غاية وحكمة، وأن يزيد إشراقه بتدارس أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام تصديقًا عميقًا وتطبيقًا مخلصًا، وذلك تحقيقًا لشعار نادي النورين (بالقرآن والسنة تشرق حياتي)

تعتمد المسابقة على ربط موضوع السورة المختارة لكل محور بالأحاديث النبوية لذات الموضوع، وقد حددت لهذه الدورة من المسابقة ثلاثة محاور هي:

- المحور الأول : القرآن الكريم وفضائله، (سورة فصلت مع التفسير ، و أحاديث منتقاة من كتاب النسائي مع الشرح)
- المحور الثاني : الإيمان حقيقته وثماره، (سورة المؤمنون مع التفسير، و أحاديث منتقاه من كتاب صحيح البخاري مع الشرح).
- المحور الثالث : الثبات والصبر عند الفتن، (سورة العنكبوت مع التفسير ، و أحاديث منتقاه من كتاب صحيح البخاري مع الشرح).

والله ولي التسديد والتيسير لحفظ آيه والعمل بمقتضاها وفهم سنة رسوله عليه الصلاة والسلام وتطبيقها حتى ينضح النور من قلبك إلى الحياة من حولك.

قلب سما وترنّما بتلاوة القرآن

عقل وعى وتعلّما من سنة العدنان

إنا سنعلو إن أقمنا حق ذا الوحيان

مسابقة

الوحيين

لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

سورة العنكبوت
وتفسيرها من عدة كتب منتخبة

سورة العنكبوت

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٖۚ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٞ فَلَا
تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى
صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ
خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾
۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٖ مِّنَ

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ

يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

سورة مكية وآياتها 69 آية

محور السورة : محور سورة العنكبوت يدور حول الإيمان وتثبيته وقت الابتلاء و الشدائد و المحن .(1)

وللحافظ ابن القيم –رحمه الله– على هذه الآيات كلام جيد قال –رحمه الله–: " فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لابد أن يمتحن خلقه، ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره، ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم، وما صاروا إليه".

ذكر في الآيات خبر نوح –صلى الله عليه وسلم–، وذكر خبر إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– فهؤلاء أئمة الممتحنين ذكرهم كأمثلة يأتسى بهم النبي –صلى الله عليه وسلم– وأهل الإيمان، فنوح –عليه الصلاة والسلام– قضى مدة طويلة ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهو يدعوهم إلى الإيمان ومع ذلك هم كانوا في غاية الإصرار على الكفر، فهذه المدة التي قضيتها مع قومك يا محمد –صلى الله عليه وسلم– لا تساوي شيئاً بالنسبة للمدة التي قضاها نوح –عليه الصلاة والسلام– فيكون ذلك حافزاً على الصبر.

وقال الحافظ ابن القيم –رحمه الله–: "وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد، وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته، وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه، ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به، ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة، والمحنة، والعذاب، أعظم وأشق مما فرّ عنه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال: آمنت امتحنه الرب تعالى وابتلاه؛ لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية، ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسَب أنه يُعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال: آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلي من أعداء رسله بما يؤلمه، ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه، فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد، ثم ينقطع، ويعقبه أعظم اللذة، والكافر يحصل له اللذة، والسرور ابتداء ثم ينقطع، ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات، فيلتذون بها ابتداء، ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها ينالون الألم بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه، وتركوه منها، فالألم، واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير، والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البته فظنه أكذب الحديث، فإن الإنسان خلق عرضة للذة، والألم، والسرور، والحزن، والفرح، والغم، وذلك من جهتين: من جهة تركيبته وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز

اعتدالها من كل وجه، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم، ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده، بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذّات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبوه، وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم"(2).

تنقسم السورة إلى عشرة مقاطع:

المقطع الأول: اختبار الناس و جزاؤهم(1)

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

تفسير الآيات:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾

الحروف المقطعة في أوائل السور, الأسلم فيها, السكوت عن التعرض لمعناها (من غير مستند شرعي),مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثا بل لحكمة لا نعلمها.(3)

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
لَا يُفْتَنُونَ	لا يختبرون بالشدائد ليتبين المؤمن من المنافق.

استفهام إنكار، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء"–الترمذي و أحمد– وهذه الآية كقوله تعالى في آل عمران { **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴿142﴾" ومثلها في سورة براءة وقال في البقرة "**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴿214﴾**". (5)

يخبر تعالى عن [تمام] حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال " إنه مؤمن " وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها. (3)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

ولهذا قال ههنا **"ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين"** أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله **"إلا لنعلم"** إلا لنرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.(5)

وهذا معنى قول من قال من أهل العلم: إن العلم المراد به هنا علم تحقق الوقوع، فإن تحقق الوقوع هو المقصود هنا، أن يقع ذلك ويحصل ويتحقق، فهذا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء. (2)

ذكر الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير الآيتين (2،3) أن الله تعالى يخبر عن [تمام] حكمته وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال "إنه مؤمن " وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه

ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته.

ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكا وريبا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات، دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها. (3)

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

الكلمة	معناها(4)
أَن يَسْبِقُونَا	أن يعجزونا و يفوتونا بأنفسهم

أحسبَ الذين همُّهم فعلُ السيئات وارتكابُ الجنايات أنَّ أعمالهم ستُهْمَلُ وأنَّ الله سيغفل عنهم أو يفوتونه؛ فلذلك أقدموا عليها وسَهُلَ عليهم عملها؟! **{ساء ما يحكمونَ}**؛ أي: ساء حكمهم؛ فإنَّه حكمٌ جائرٌ لتضمُّنه إنكار قدرة الله وحكمتِهِ، وأنَّ لديهم قدرةً يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعفُ شيء وأعجزه.(3)

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

الكلمة	معناها(4)
أَجَلَ ٱللَّهِ	الوقت الذي حدده الله للبعث

يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبا الرجاء، مؤملا الوصول إليه، ولكن، ما كل من يَدَّعِي يُعْطَى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح. (3)

{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ} يعني: يخاف لقاء الله، لكن لو قال قائل: يرجو لقاء الله أي يأمل ذلك ويطمع بلقائه، من كان يطمع بلقاء الله

-تبارك وتعالى- فلا شك أنه يحسب له حسابه فيكون الخوف والرجاء يحدوانه ويسوقانه فيطيب له المسير إذا كان قد استجمع هذه الأمور مع محبة الله تبارك وتعالى. (2)

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

{ومَنْ جاهَدَ}: نفسه وشيطانَه وعدوَّه الكافر؛ **{فإنَّما يجاهدُ لنفسِهِ}**: لأنَّ نفعَه راجعٌ إليه، وثمرته عائدةٌ إليه، والله غنيٌّ عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به لينتفعَ به، ولا نهاهم عمَّا نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، وقد علم أنَّ الأوامر والنواهي يحتاج المكلَّف فيها إلى جهادٍ؛ لأنَّ نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير، وشيطانَه ينهاه عنه، وعدوَّه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذه معارضاتٌ تحتاج إلى مجاهداتٍ وسعي شديد.(4)، قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوم من الدهر بسيف.(5)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع بره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى في سورة النساء: **{إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴿40﴾}** وقال ههنا: **{والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنه سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون}**(5)

الفوائد على هذا المقطع(1):

- المؤمن هو المجاهد الصابر، الذي يصبر على المكاره و الأحداث الجسيمة، وهو في اختبار في هذه الحياة الدنيا، على الشدائد و المحن فإن صبر ظفر بالجنة، ونال رضاء الله.
- أما المنافق أو مهتز الإيمان فلا يتحمل الأذى في سبيل الله وسرعان ما يظهر الكفر، ويعود إلى الضلال، وجزاؤه جهنم، و عذابها أشد من عذاب الدنيا.
- الدنيا دار ابتلاء و اختبار، وتكليف؛ فمن صبر وأدى ما أمره الله من طاعات و اجتناب للمعاصي فاز، ومن عصى الله وعمل المعاصي هلك، و الهدف من الابتلاء في الدنيا إظهار صدق الصادقين، وكشف كذب الكاذبين.
- الحث على العمل الصالح وكل ما أمر الله به، واجتناب كل ما نهى الله عنه، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها.

المقطع الثاني: التوصية بحسن معاملة الوالدين و بيان خسة المنافقين (1)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

تفسير الآيات:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى في سورة الإسراء: **{وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما﴿23﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴿24﴾}** ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال: **{وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما}** أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي: حبًا دينيًا.(5)

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

أي: مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً؛ فإنَّ الله وعده أن يُدْخِلَه الجنة في جملة عباد الله الصالحين من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، كلٌّ على حسب درجته ومرتبته عند الله؛ فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوانٌ على سعادة صاحبه، وأنَّه من أهل الرحمن والصالحين من عباد الله. (3)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ	عذاب الناس له وأذاهم

لما ذكر تعالى أنَّه لا بدَّ أن يَمْتَحِنَ من ادَّعى الإيمان؛ ليظهر الصادقُ من الكاذب؛ بيَّن تعالى أنَّ من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: **{ومن الناس مَن يقولُ آمنَّا باللهِ فإذا أوذي في اللهِ}**: بضربٍ أو أخذِ مال أو تعييرٍ؛ ليرتدَّ عن دينه، وليراجع الباطل؛ **{جَعَلَ فتنةَ الناس كعذابِ اللهِ}**؛ أي: يجعلها صادةً له عن الإيمان والثبات عليه؛ كما أنَّ العذاب صادٌّ عما هو سببه. **{ولَئِن جاء نصرٌ من ربِّك ليقولنَّ إنَّا كنَّا معكم}**: لأنَّه موافقٌ للهوى.

فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم : **{ومن الناس من يعبدُ اللهَ على حرفٍ فإنْ أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهِهِ خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين}**[سورة الحج:11]. **{أوليسَ اللهُ بأعلَمَ بِمَا في صُدُورِ العَالَمِينَ}**: حيث أخبركم بهذا الفريق الذي حالُه كما وَصَفَ لكم، فتعرِفون بذلك كمالَ علمِهِ وسعةِ حكمتِهِ. (3)

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

أي: وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز هؤلاء من هؤلاء، من يطيع الله في الضراء والسراء، إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: **{ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم}** [سورة محمد:31] وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان **{ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب}** الآية [سورة آل عمران:179].(5)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

الكلمة	معناها(4)
سَبِيلَنَا	ديننا

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا من دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا **{ولنحمل خطاياكم}** أي: وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيبا لهم: **{وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون}** أي: فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: **{وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى}** [سورة فاطر:18] وقال تعالى: **{ولا يسأل حميم حميما﴿10﴾ يبصرونهم}** [سورة المعارج:10،11].(5)

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
أَثْقَالَهُمْ	أوزارهم
يَفْتَرُونَ	يختلقون من الكذب

ولمَّا كان قوله: **{وما هُم بحاملينَ مِنْ خطاياهم من شيءٍ}**: قد يُتَوَهَّم منه أيضاً أنَّ الكفَّار الدَّاعين إلى كفرهم . ونحوهم ممَّن دعا إلى باطله . ليس عليهم إلاَّ ذنبُهم الذي ارتكبوه دون الذَّنب الذي فعله غيرُهم، ولو كانوا متسبِّبين فيه؛ قال محترِزاً عن هذا الوهم: **{وَلَيَحْمِلُنَّ أثْقالَهم}**؛ أي: أثقال ذُنوبهم التي عملوها، **{وأثقالاً مع أثقالِهِم}**: وهي الذُّنوب التي بسببهم ومن جَرَّائهم؛ فالذنبُ الذي فعله التابعُ لكل من التابع والمتبوع حصةٌ منه: هذا لأنَّه فَعَلَه وباشَرَه، والمتبوعُ لأنَّه تسبَّب في فعلِهِ ودعا إليه؛ كما أنَّ الحسنة إذا فعلها التابعُ له أجرُها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، **{وَلَيُسْألُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يفترونَ}**: من الشرِّ وتزيينه وقولِهم: **{وَلْنَحمِلْ خطاياكم}**.(3)

الفوائد على هذا المقطع (1):

- بر الوالدين واجب على المؤمنين لأنهما سبب وجوده و تربيته و الإنفاق عليه، فطاعتهما واجبة إلا أذا دعوا الابن إلى الشرك و العصيان، فلا تجوز طاعتهما.
- كشف المنافقين الذين يقولون بألسنتهم إنهم مصدقون الله، مؤمنون به ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم، لأنهم سرعان ما يتخلوا عن دينهم، خسروا الدنيا و الآخرة وذلك لأن الإيمان كان مجرد قول باللسان، فإذا تعرض لأذى ترك الإيمان.
- محاولة فتنة المؤمنين عن دينهم، وهذا شأن الكافرين في كل زمان أن يرتد المؤمن عن دينه، ويغرونه بكل ما يستطيعون من صنوف الإغراء بالمال، والشهوات، بل يقولون أكثر من ذلك لهم كما أشارت الآيات الكريمة تحمل أوزاركم يوم القيامة، وهم كاذبون فيما يقولون، فإنهم لا

يستطيعون عمل شيء بل يتبرؤون منهم.

المقطع الثالث: قصة نوح عليه السلام (1)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

تفسير الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارًا عن الحق وإعراضًا عنه وتكذيبًا له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: "**فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون**" أي: بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر، وإليه ترجع الأمور "**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴿96﴾ ولو جاءتهم كل آية**" الآية[سورة يونس:96،97]، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم، ويجعلهم أسفل السافلين.(5)

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

{فأنجَيْناه وأصحابَ السفينةِ}: الذين ركبوا معه؛ أهلَه ومن آمن به، **{وَجَعَلْناها}**؛ أي: السفينة أو قصة نوح عليه السلام **{آيةً للعالمينَ}**: يعتبِرون بها على أنَّ مَنْ كذَّب الرسل آخرُ أمرِه الهلاكُ، وأنَّ المؤمنين سيجعل الله لهم من كلِّ همٍّ فرجاً ومن كل ضيقٍ مخرجاً، وجعل الله أيضاً السفينة؛ أي: جنسها آية للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة ربِّهم الذي قيَّض لهم أسبابها، ويسَّر لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمِلُ متاعَهم من محلٍّ إلى محلٍّ، ومن قطر إلى قطر.(3)

الفوائد على هذا المقطع (1):

- ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لأن قومه أعرضوا عنه، ولم يقبلوا دعوته، فأخبره الله بأن الأنبياء قبله أوذوا من أقوامهم فصبروا، وخص نوحاً عليه السلام في هذا لأنه لم يلق نبي مثل ما لقي نوح من قومه فصبر، دعاهم إلى توحيد الله ولم يؤمن برسالته إلا القليل.
- يجب على الدعاة إلى الله اليوم الصبر، وتحمل الأذى في سبيل نشر الدعوة إلى عبادة الله و اتباع دينه، و الصبر على المكاره التي سيلاقونها و النصر حليفهم في الدنيا و الآخرة.
- مصير المؤمنين النجاة في الدنيا و في الآخرة، ومصير الكافرين الخذلان في الدنيا و العقوبة في نار جهنم في الآخرة.

المقطع الرابع: قصة إبراهيم – عليه السلام – مع قومه، وجوابهم له. (1)

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

تفسير الآيات:

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾

يذكر تعالى أنَّه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يَدْعوهم إلى الله، فقال(لهم): **{اعبُدوا اللهَ}**؛ أي: وحِّدوه وأخلِصوا له العبادةَ وامتَثِلوا ما أمركم به، **{واتَّقوه}**: أن يغضبَ عليكم فيعذِّبَكم، وذلك بترك ما يُغضبه من المعاصي. **{ذلكم}**؛ أي: عبادة الله وتقواه **{خيرٌ لكم}**: من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق أفعل التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإنَّ تَرْكَ عبادةِ الله وتَرْكَ تقواه لا خير فيه

بوجهٍ، وإنَّما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنَّه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدُّنيا والآخرة إلاَّ بذلك، وكلُّ خيرٍ يوجدُ في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّه من آثار عبادة الله وتقواه. **{إن كنتم تعلَمونَ}**: ذلك؛ فاعلموا الأمور، وانظُروا ما هو أولى بالإيثار. (3)

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا	تفترون كذباً
فَابْتَغُوا	التمسوا

فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبيَّن لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: **{ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا }** تنحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك، **{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ }** في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، **{ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا }** فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبودا تألهه وتسأله حوائجها، فقال –حاثا لهم على من يستحق العبادة– **{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ }** فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه **{ وَاعْبُدُوهُ }** وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير، **{ وَاشْكُرُوا لَهُ }** وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها. **{ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }** يجازيكم على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، ويثيبكم –عند القدوم– عليه. (3)

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

وقوله تعالى: **{وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم}** أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل **"وما على الرسول إلا البلاغ المبين}** يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء، وقال قتادة في قوله: **{وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم}** قال: يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول واعترُض بهذا إلى قوله: **{فما كان جواب قومه}** وهكذا نص على ذلك ابن

جرير أيضا والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله **{فما كان جواب قومه}** والله أعلم.(5)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورًا، ثم وجدوا وصاروا أناسًا سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، و أشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: **{أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير}** كقوله تعالى: **{وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}** [سورة الروم:27].(5)

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

الكلمة	معناها (4)
بَدَأَ ٱلْخَلْقَ	أنشأه

{قل}: لهم إن حَصَلَ معهم ريبٌ وشكٌّ في الابتداء: **{سيروا في الأرض}**: بأبدانِكم وقلوبِكم، **{فانظُروا كيف بَدَأ الخَلْقَ}**: فإنَّكم سَتَجِدون أمماً من الآدميين والحيواناتِ لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النباتَ والأشجار كيف تحدُثُ وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرَّةً في تجدُّدها، بل الخلق دائماً في بدءٍ وإعادةٍ؛ فانْظُرْ إليهم وقت موتتهم الصغرى . النوم .؛ وقد هَجَمَ عليهم الليلُ بظلامِهِ، فسكنت منهم الحركاتُ، وانقطعتْ منهم الأصواتُ، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنَّهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبُعِثوا من موتتهم؛ قائلين: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور. ولهذا قال: **{ثم اللهُ}**: بعد الإعادة **{يُنْشِئُ النشأة الآخرة}**: وهي النشأةُ التي لا تَقْبَلُ موتاً ولا نوماً، وإنَّما هو الخلودُ والدوامُ في إحدى الدارين. **{إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ}**: فقدرته تعالى لا يُعْجِزُها شيء، وكما قَدِرَ بها على ابتداءِ الخلق؛ فقدرتُه على الإعادة من باب أولى وأحرى.(2)

وقوله –تبارك وتعالى– هنا: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}**، هذا أيضاً يؤكد المعنى السابق لما قال لهم: **{أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}**، قال: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}** بحيث ينظرون كيف بدأ الله الخلق، كيف

أوجد الأشياء وخلقها ونحو ذلك، وهذا السير إنما هو لمن يحتاج إليه، هذا يحتج به بعض الناس على زيارة الآثار وأماكن المعذبين ونحو ذلك، والجواب: أن هذا إنما يُؤمر به في القرآن حيث ورد عند من يحتاج إلى ذلك، يعني عنده شك فيقال له: اذهب انظر إلى أماكن بقايا هؤلاء، يعني سِرْ في الأرض فترى خلق الله، ودلائل قدرته، ونحو ذلك، وإلا فما كان الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- يذهبون ويزورون هذه الأماكن، ويتعنّون لها، ما كانوا يفعلون هذا، ولا أرشدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هذا، ولما ورد النبي -صلى الله عليه وسلم- على أرض المعذبين في الحِجر أسرع -صلى الله عليه وسلم-، ونهى عن دخولها -الدخول عليهم-، مع أنهم جاءوا من تبوك يعني ما قصدوهم، قال: (إلا أن تكونوا باكين أو متباكين)، يعني: خشية أن يصيبكم ما أصابهم، لكن من يحتاج إلى ذلك يرى، وأما من وقع له ذلك عرضاً فإنه يرى من دلائل القدرة ما ينشّط بذلك مثل هذه المعاني في قلبه ويحييها من جديد؛ لأن الإلف يذهب معه الأثر، يعني الآن رؤية الشمس وهي تطلع كل صباح وتغيب، والليل حينما يغشى بظلامه، والنهار حينما تسطع أنواره كل هذا يذهب ويتلاشى أثره مع الإلف، ولهذا بعضهم يقول: لو أن أحداً منذ ولد وهو في قبو ما رأى السماء ولا الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا البحار ولا رأى شيئاً، ثم بعد ذلك بعدما صار يدرك ويميز ويعرف ويفهم -وصل إلى سن يربط فيها بين الأشياء- ويفقه ويعرف المعاني والحقائق أُخرِج ووضع، فبدأ في الصباح ورأى الشمس تبدأ تطلع فإنه يراقبها إلى أن تغيب، فإذا رأى الشفق لم ينقضِ عجبه فهاله ذلك المشهد وخاف، كأن ناراً مضطرمة تملأ الأفق، فإذا رأى النجوم تظهر في الليل فإن رأسه لا ينزل وهو يتأملها ويرقبها وينظر إليها فيتعجب من هذا المشهد في السماء، وهكذا حينما ينظر إلى الجبال، ينظر إلى البحر لا ينقضي عجبه منه، لكن الذي ألف هذه الأشياء لا يهتم، ولهذا حينما تسافر وتذهب إلى بعض الأماكن غير المألوفة بالنسبة إليك تشاهدها أول مرة وترى بعض الجبال في بعض المناطق بصور غريبة عجيبة، في طريقة قيامها وصخورها وتكورها في بعض المواضع واستطالتها في بعض المواضع بصور غير عادية، فحينما يشاهدها الإنسان ينبهر ويُحيي ذلك بقلبه من معاني القدرة ودلائلها الشيء الكثير، لكن الإلف هو الذي يُذهب هذا، فتجد من نشأ في تلك الناحية لا يحرك ذلك فيه ساكناً، ولهذا فإن الآيات المتلوة أيضاً قد يحصل ذلك معها أحياناً، فما يتدبر الإنسان ولا يقف عندها، فإذا وقعت الواقعة صارت هذه المعاني كأنما يسمعها أول مرة، ومصداق ذلك ما حصل لعمر -رضي الله عنه- ولأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لما توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقرأ أبو بكر عليهم قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [سورة الزمر:30]، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [سورة آل عمران:144]، فعمر -رضي الله عنه- كأنها تنزل الآن، كأنه لم يقرأها من قبل، فالحاصل أن مثل هذا {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} هذا يحتمل أيضاً أنه من كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} ويحتمل أنه لهذه الأمة، أو أمرٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أمر لأمته، كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، وذلك بناءً على ما سبق من قوله: {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ} فيكون الكلام الذي بعده موجهاً لهذه الأمة، وعلى طريقة ابن كثير التي مشى عليها أن هذا كله من كلام إبراهيم -عليه الصلاة والسلام. (5)

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
تُقْلَبُونَ	تردون وترجعون.

{يعذِّبُ من يشاء ويرحمُ من يشاء}؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابةُ الطائعين ورحمتهم، وتعذيبُ العاصين والتنكيل بهم، **{وإليه تُقْلَبونَ}**؛ أي: ترجعونَ إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابِهِ ورحمتِهِ، فاكتسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمتِهِ من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابِهِ وهو المعاصي.(3)

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

{وما أنتم بِمُعْجِزينَ في الأرض ولا في السماء}؛ أي: يا هؤلاء المكذِّبون المتجرّئون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفولٌ عنكم أو أنكم معجزون لله في الأرض ولا في السماء؛ فلا تَغُرَّنَّكم قدرتُكم وما زينتْ لكم أنفسكم وخدعتْكم من النجاة من عذاب الله، فلستُم بمعجزينَ الله في جميع أقطار العالم، **{وما لكُم من دونِ الله من وليٍّ}**: يتولاَّكم فيحصِّلَ لكم مصالح دينكم ودنياكم. **{ولا نصيرٍ}** ينصُرُكم فيدفع عنكم المكارِهَ.(3)

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخيرُ وحَصَلَ لهم الشرُّ، وأنَّهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاؤوهم به، وكذَّبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلاَّ الدُّنيا؛ فلذلك أقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوِّفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: **{أولئك يَئِسوا من رحمتي}**؛ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يُحَصِّلونَ به الرحمةَ، وإلاَّ ؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالاً.

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياسُ الكفَّار منها وتركُهم جميع سبب يقرِّبُهم منها. وإياسُ العصاة بسبب كثرةِ جناياتهم أوْحَشَتْهم فمَلَكَتْ قلوبَهم، فأحدث لها الإياس. **{وأولئك لهم عذابٌ أليمٌ}**؛ أي: مؤلم موجع.

وكأن هذه الآياتِ معترضاتٌ بين كلام إبراهيم لقومه وردِّهم عليه، والله أعلمُ بذلك.(3)

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: فما كان مجاوبةُ قوم إبراهيمَ لإبراهيمَ حين دعاهم إلى ربِّه قبولَ دعوتِهِ والاهتداءَ بنُصحه ورؤيةَ نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنَّما كان مجاوبتُهم له شرَّ مجاوبة، **{قالوا اقْتُلوهُ أو حَرِّقوهُ}**: أشنع القتلات، وهم أناسٌ مقتدرون، لهم السلطانُ، فألقَوْه في النار، **{فأنجاه اللهُ}**: منها. **{إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنونَ}**: فيعلمونَ صِحَّةَ ما جاءت به الرسلُ وبرَّهم ونُصْحَهم وبطلانَ قول من خالفهم وناقَضَهم، وأنَّ المعارضين للرُّسل كأنَّهم تواصَوْا وحثَّ بعضُهم بعضاً على التكذيب.(3)

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان **{إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه}** وذلك لأنهم قام عليهم البرهان و توجهت عليهم الحجة فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم **{فقالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم﴿97﴾وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين}** [سورة الصافات:97-98] وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وخرج منها سالما بعد ما مكث فيها أياما ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما فإنه بذل نفسه للرحمن وجسده للنيران وسخا بولده للقربان وجعل ماله للضيفان ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان. وقوله تعالى: **"فأنجاه الله من النار}** أي سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما. (5)

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

الكلمة	معناها (4)
مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ	تتحابون على عبادتها و تتوادون على خدمتها.
يَكْفُرُ	يتبرأ.
وَمَأْوَىٰكُمُ	مصيركم.

{وقال}: لهم إبراهيمُ في جملةِ ما قاله من نُصحه: **{إنَّما اتَّخذتُم من دون الله أوثاناً مودَّةَ بَيْنِكُم في الحياة الدُّنيا}**؛ أي: غايةُ ذلك مودَّةٌ في الدنيا ستنقطعُ وتضمحلُّ، **{ثم يومَ القيامةِ يَكْفُرُ بعضُكم ببعض ويلعنُ بعضُكم بعضاً}**؛ أي: يتبرَّأ كلٌّ من العابدين والمعبودين من الآخر، وإذا حُشِرَ الناسُ؛ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين؛ فكيف تتعلَّقون بِمَنْ يعلمُ أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنُهم. وأنَّ مأوى الجميع العابدين والمعبودين **{النار}**: وليس أحدٌ ينصُرُهم من عذاب الله، ولا يدفعُ عنهم عقابه.(3)

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾

الكلمة	معناها(4)
مُهَاجِرٌ	تارك دار قومي إلى أرض الشام المباركة.

أي: لم يزلْ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام يَدْعو قومَه، وهم مستمرُّون على عنادهم؛ إلاَّ أنَّه آمن له بدعوته لوطٌ الذي نبَّأه الله وأرسله إلى قومِهِ كما سيأتي ذِكْره، **{وقال}**: إبراهيمُ حين رأى أنَّ دعوةَ قومِهِ لا تفيدُهم شيئاً: **{إنّي مهاجرٌ إلى ربّي}**؛ أي: هاجِرٌ أرضَ السوء، ومهاجِرٌ إلى الأرض المباركة، وهي الشام. **{إنَّه هو العزيزُ}**؛ أي: الذي له القوَّة، وهو يقدِرُ على هدايتكم، ولكنَّه حكيمٌ، ما اقتضت حكمتُه ذلك.

ولمَّا اعتزلهم وفارَقَهم وهم بحالِهم؛ لم يذكرِ الله عنهم أنَّه أهلكهم بعذابٍ، بل ذَكَرَ اعتزالَه إيَّاهم وهجرتَه من بين أظهُرِهم، فأمَّا ما يُذْكَرُ في الإسرائيلياتِ أنَّ الله تعالى فتح على قومِهِ باب البعوض، فشرب دِماءَهم، وأكل لحومَهم، وأتْلَفَهم عن آخرهم؛ فهذا يتوقَّفُ الجزم به على الدليل الشرعيّ، ولم يوجدْ؛ فلو كان اللهُ استأصَلَهم بالعذاب؛ لَذَكَرَه كما ذَكَرَ إهلاكَ الأمم المكذِّبة، ولكن هل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلّهم؛ فلم يَدْعُ على قومِهِ كما دعا غيرُه، ولم يكن اللهُ لِيَجْزِيَ بسببه عذاباً عامًّا؟ ومما يدلُّ على ذلك أنَّه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادَلَهم، ودافَعَ عنهم، وهم ليسوا قومَه. والله أعلم بالحال.(3)

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾

الكلمة	معناها(4)
أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا	بالذكر الحسن و الولد الصالح.

{ووهَبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ}؛ أي: بعدما هاجر إلى الشام، **{وجَعَلْنا في ذرِّيَّتِهِ النبوَّة والكتاب}**: فلم يأتِ بعدَه نبيٌّ إلاَّ من ذُرِّيَّتِهِ، ولا نزل كتابٌ إلاَّ على ذرِّيَّته، حتى خُتموا بابنه محمد صلى الله علية وسلم وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أنْ تكونَ موادُّ الهدايةِ والرحمةِ والسعادةِ والفلاح والفوزِ في ذُرِّيَّتِهِ، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، **{وآتَيْناه أجْرَه في الدُّنيا}**: من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قَرَّتْ عينُه، ومعرفة الله ومحبَّته والإنابة إليه. **{وإنَّه في الآخرة لَمِنَ الصالحين}**: بل هو ومحمدٌ صلى الله عليهما وسَلّم أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلاهم منزلةً. فجمع الله له بين سعادةِ الدُّنيا والآخرة.(2)

الفوائد على هذا المقطع(1):

- أن دعوة إبراهيم – عليه السلام – كانت كدعوة جميع الأنبياء – عليهم السلام- وهي توحيد الله سبحانه و تعالى و نفي الشرك عنه، وعبادة الله تعالى بفعل أوامره و ترك معاصيه.
- أن الله سبحانه هو الذي يُطلب منه الرزق وحده، وهو الذي ينفع و يضر، أما الأصنام التي يعبدها المشركون فلا تنفع و لاتنصر، و لا تقدر على جلب الرزق لأحد.
- الله سبحانه هو الذي خلق الخلق وهو الذي يهلكهم، ثم يعيدهم إلى الحياة يوم القيامة وكل شيء عليه هين يسير، إنما أمره بين الكاف و النون إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون. فالإنسان وآفاق الكون سمائه و أرضه خلقها الله، وهو المتصرف فيها، يحكم ما يريد يعذب من يشاء وهم الكفار المكذبين، ويرحم المؤمنين المصدقين، و الجميع عائدون إليه فالذين كذبوا رسله وكفروا بما أنزل، رغم ما أقام لهم رسلهم من أدلة على وجوده و قدرته لا نصيب لهم في الآخرة من رحمة الله، و الذين آمنوا فيكونون في رحمة الله.
- وقد أثبت لهم سيدنا إبرهيم خليل الله – عليه الصلاة و السلام- أصول الدين الثلاثة:

الوحدانية، و الرسالة، و البعث، و أقام لهم البراهين على ذلك، فكان نصيبه أن اتفقوا على إحراقه بالنار و قتله، ونجّاه الله منها فكانت النار برداً سلاماً، ولم يؤمن الكفار بعد هذه المعجزة العظيمة بدعوته فهاجر من أرض الكفر. وفي هذه الهجرة عبرة للمؤمنين بجواز الهجرة عند الشدائد إلى دار الإيمان.

- أن العاقبة للمتقين في الدنيا و الآخرة.

المقطع الخامس: قصة لوط –عليه السلام- مع قومه. (1)

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

تفسير الآيات:

تقدَّم أنَّ لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنَّه ليس من ذُرِّيَّة إبراهيم، وإنَّما هو ابن أخ إبراهيم؛ فقوله تعالى: **{وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِ النبوَّة والكتاب}**: وإنْ كان عامًّا؛ فلا يناقض كون لوط نبيًّا رسولاً، وهو ليس من ذُرِّيَّتِهِ؛ لأنَّ الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أنَّ لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممَّن اهتدى مِن ذُرِّيَّتِهِ بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.(1)

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عليه السلام، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم.(5)

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ	تقطعون طرق المسافرين بفعلكم الفاحشة بهم.
نَادِيكُمُ	مجلسكم الذي تجتمعون فيه.
ٱلْمُنكَرَ	الأعمال المنكرة، كالسخرية من الناس، وقذف المارة.

وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله، ويخالفون ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم **{وتأتون في ناديكم المنكر}** أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك.

وقوله تعالى: **{فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين}** وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبي الله . (5)

وقالوا أيضاً في سورة الأعراف: **{أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴿82﴾}**، وهذا كما يروى عن عثمان –رضي الله تعالى عنه–: أن المرأة الزانية تحب أن النساء جميعاً يزنين، فأهل المنكر وأهل الباطل لا يحتملون وجود أهل الصلاح والفضل والطهر بينهم، وذلك

أن وجود هؤلاء يوجه إليهم التهمة، ويجلي حالهم وما هم فيه من الفساد والظلمة، وبضدها تتميز الأشياء وتتبين، ولهذا فالمرأة المحجبة في بيئة متبرجة لا تطاق، والإنسان الذي يتنزه من شرب المسكر في بيئة يشربون المسكرات لا يطاق ويعير بهذا، والإنسان الذي يتنزه عن الفواحش في بيئة تفعل الفواحش أو مع صحبة يفعلون الفواحش ابتلي بهم في دراسة أو بعثة أو نحو ذلك فإنهم لا يحتملونه. (2)

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و**{ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}** فاستجاب الله دعاءه. (3)

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
بِٱلْبُشْرَىٰ	بالخبر السار وهو البشارة بإسحاق– علية السلام.

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام، نكرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية. (5)

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
ٱلْغَٰبِرِينَ	الباقين في العذاب

أي من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم. (5)

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
سِيٓءَ بِهِمْ	ساءه مجيئهم خوفاً عليهم من قومه أن يفعلوا بهم الفاحشة.
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا	ضاق صدره وحزن خوفاً عليهم.

ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك **{سيء بهم وضاق بهم ذرعا}** أي: اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشى عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة **{قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين}**. (5)

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
رِجْزًا	عذابا شديداً.

وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد.(5)

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
تَّرَكْنَا	أبقينا من ديارهم.
ءَايَةًۢ بَيِّنَةً	آثار واضحة.

أي: تركنا من ديار قوم لوط، آثارا بينة لقوم يعقلون العِبر بقلوبهم، [فينتفعون بها]، كما قال تعالى في سورة الصافات: **{ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿137﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿138﴾ }**(3)

الفوائد على هذا المقطع (1):

- أن واجب المؤمن أن ينكر الفاحشة مهما كان نوعها: قطع الطريق، و اللواطة، وفعل المخازي في المجالس كما فعل سيدنا لوط.
- أن اللواطة كالزنى توجب الحد، فما شرع زاجراً للزنا يكون زاجراً للواطة.
- إن على الناس أن ينظروا إلى آثار منازل المفسدين الخربة، و مصير الظالمين الضالين.
- أن الله رحيم بالمؤمنين، وشديد العقاب للكافرين.

المقطع السادس: قصة شعيب و هود وصالح وموسى – عليهم السلام-.(1)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

تفسير الآيات:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلأخِرَ	اطلبوا بعبادتكم جزاء الآخرة
وَلَا تَعْثَوْاْ	لا تكثروا الفساد

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: **{يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر}** قال ابن جرير: قال بعضهم معناه واخشوا اليوم

الآخر(الطبري)، وهذا كقوله تعالى: **{من كان يرجو الله واليوم الآخر}** وقوله: **{ولا تعثوا في الأرض مفسدين}** نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس.(5)

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴿٣٧﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
ٱلرَّجْفَةُ	الزلزلة الشديدة.
جَٰثِمِينَ	صرعى هالكين.

هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها. وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء. (5)

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
مُسْتَبْصِرِينَ	عارفين بكفرهم معجبين به.

أي: وكذلك ما فَعَلْنا بعادٍ وثمودَ، وقد علمتَ قَصَصهم، وتبيَّن لكم بشيء تشاهدونه بأبصارِكم من مساكِنِهم وآثارِهِم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلُهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذَّبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان عملهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.(2)

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادي القرى.

وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدًا، وتمر عليها كثيرًا. (5)

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ	فائتين من عذاب الله.

وكذلك قارونُ وفرعونُ وهامانُ، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذلُّوهم، وعلى الحقِّ فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. **{وما كانوا سابقينَ}**: اللهَ ولا فائتينَ، بل سلَّموا واسْتَسْلموا.(3)

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ	أخذنا المذكورين بعذابنا بسبب ذنوبهم.
حَاصِبًا	حجارة من طين منضود.

{فكلاًّ}: من هؤلاء الأمم المكذِّبة **{أخذنا بِذَنبِهِ}**: على قدره وبعقوبةٍ مناسبة له، **{فمنهم مَنْ أرْسَلْنا عليه حاصباً}**؛ أي: عذاباً يَحْصِبُهم كقوم عادٍ حين أرسل الله **{عليهم الريح العقيم}**[سورة الذاريات:41] و**{سخَّرها عليهم سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسوماً فترى القوم فيها صَرْعى كأنَّهم أعجازُ نخل خاوية}**[سورة الحاقة:7]، **{ومنهم من أخَذَتْه الصيحةُ}**: كقوم صالح، **{ومنهم مَنْ خَسَفْنا به الأرض}**: كقارون، **{ومنهم من أغْرَقْنا}**: كفرعون وهامان وجنودهما. **{وما كان اللهُ}**؛ أي: ما ينبغي ولا يليقُ به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، **{ولكِن كانُوا أنفسَهُم يَظلِمُونَ}**: منعوها حقَّها التي هي بصددِهِ؛ فإنَّها مخلوقةٌ لعبادة الله وحده؛ فهؤلاء وَضَعوها في غير موضِعِها، وشَغَلوها بالشهواتِ والمعاصي، فضرُّوها غاية الضرر من حيث ظنُّوا أنهم ينفعونها.(3)

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

الكلمة	معناها(4)
أَوْهَنَ	أضعف.

هذا مثلٌ ضربه الله لمن عَبَدَ معه غيرَه يقصدُ به التعزُّز والتقوِّي والنفع، وأنَّ الأمر بخلاف مقصوده؛ فإنَّ مَثَلَه كمثل العنكبوت اتَّخذت بيتاً يقيها من الحرِّ والبرد والآفات، **{وإنَّ أوهنَ البيوتِ}**: أضعفها وأوهاها **{لبيتُ العنكبوتِ}**: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتُها من أضعف البيوت؛ فما ازدادتْ باتِّخاذه إلاَّ ضعفاً.

كذلك هؤلاء الذين يتَّخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتَّخذوا الأولياء من دونه يتعزَّزون بهم ويستَنْصِرونهم؛ ازدادوا ضَعْفاً إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم؛ فإنَّهم اتَّكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألْقَوْها عليهم، وتخلَّوْا هم عنها؛ على أنَّ أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصُلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقلَّ نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال مَن اتَّخذوهم؛ لم يَتَّخِذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولَّوا الربَّ القادر الرحيم، الذي إذا تولاَّه عبدُه وتوكَّل عليه؛ كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوَّة إلى قوَّته في قلبه وبدنه وحاله وأعماله.(3)

إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

ولمَّا بيَّن نهايةَ ضَعْف آلهة المشركين؛ ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنَّها ليس بشيء، بل هي مجرَّدُ أسماء سمَّوْها وظنونٍ اعتقدوها، وعند التحقيق يتبيَّن للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: **{إنَّ الله يعلمُ ما يَدعونَ من دونِهِ من شيءٍ}**؛ أي: إنَّه تعالى يعلم ـ وهو عالم الغيب والشهادة ـ أنَّهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً ولا إلهاً له حقيقةً؛ كقوله تعالى: **{إنْ هي إلاَّ أسماءٌ سَمَّيْتُوها أنتُم وآباؤكم ما أنْزَلَ الله بها من سلطانٍ}**[سورة النجم:23]، وقوله: **{وما يَتَّبعُ الذين يَدْعون مِن دون الله شركاءَ إنْ يَتَّبِعون إلا الظنَّ}**[سورة يونس:66]. **{وهو العزيزُ}**: الذي له القوَّة جميعاً، التي قهر بها جميع الخلق. **{الحكيم}**: الذي يضع الأشياء مواضِعَها، الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقَه وأتقنَ ما أمره.(3)

وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَالُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

الكلمة	معناها(4)
وَمَا يَعْقِلُهَآ	يتدبَّرها و يفهمها.

{ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ } أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

{ و } لكن **{ مَا يَعْقِلُهَا }** بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب **{ إِلَّا الْعَالِمُونَ }** أي: أهل العلم الحقيقي،

الذين وصل العلم إلى قلوبهم.

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين. والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها. وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.(3)

الفوائد على هذا المقطع (1):

- أن هلاك الأمم السابقة كان بسبب كفرهم وعنادهم، وفسادهم بارتكابهم المعاصي و الكبائر، فزلزل الله الأرض تحت أقدام قوم شعيب الذين رفضوا عبادة الله، و عاد وثمود أنكروا وجود الله القادر فدمر بنيانهم بالريح و آثار التدمير باقية لتكون عبرة لمن يعتبر من أهل النظر و الاعتبار .
- ورؤوس الطغيان و البغي في مصر قارون و فرعون و هامان طغوا و بغوا و استكبروا، فخسف الله الأرض بقارون و أغرق فرعون وهامان ليكونوا عبرة لمن يسير في طريق الطغيان و الكفر.
- أن الله سبحانه سيأخذ الظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم و عدم إتباعهم أوامر أنبيائهم، و إن أخّر عقابهم في الدنيا، فسيكون عقابهم في الآخرة أشد وأبقى.
- أن الله ضرب مثلاً لعبدة الأوثان، و أن ما يعبدون لاينفعهم وأن بنيانهم كبنيان العنكبوت المتشابك الواهي الضعيف، ولكنهم لم يفهموا و لم يعتبروا، و استمروا في ضلالهم.
- أن الكافر و المشرك يعبد ما لا ينفعه، و أما المؤمن فيعلم أن نجاته بعبادة الله الواحد القهار.

المقطع السابع: فائدة خلق السموات و الأرض و تلاوة القرآن وإقامة الصلاة. (1)

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

تفسير الآيات:

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أي: هو تعالى المنفردُ بخلق السماواتِ على علوِّها وارتفاعها وسَعَتِها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكلُّ ذلك خَلَقَه بالحقِّ؛ أي: لم يَخْلُقْها عبثاً ولا سدىً ولا لغير فائدة، وإنَّما خلقها ليقوم أمره وشرعُه، ولتتمَّ نعمتُه على عباده، وليَرَوْا من حكمتِهِ وقهرِهِ وتدبيرِهِ ما يدلُّهم على أنَّه وحدَه معبودُهم ومحبوبُهم وإلههم. **{إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنين}**: على كثير من المطالب الإيمانيَّة، إذا تدبَّرها المؤمن؛ رأى ذلك فيها عياناً.(3)

﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

الكلمة	معناها(4)
أَكْبَرُ	أعظم و أفضل من كل شيء.

يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوتِهِ: اتِّباعُهُ بامتثال ما يأمرُ به واجتناب ما ينهى [عنه]، والاهتداءِ بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوةُ لفظِهِ جزءَ المعنى وبعضَه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب؛ عُلِمَ أنَّ إقامةَ الدين كُلِّه داخلةٌ في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: **{وأقم الصلاة}**: من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة، وهي: **{إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}**: فالفحشاءُ كلُّ ما استُعْظِمَ واستُفْحِشَ من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكَر كلُّ معصية تُنْكِرُها العقول والفطر.

ووجْهُ كونِ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أنَّ العبد المقيم لها المتمِّم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنيرُ قلبُه ويتطهَّر فؤاده ويزدادُ

إيمانُه وتقوى رغبتُه في الخير وتقلُّ أو تعدم رغبتُه في الشرّ؛ فبالضرورة مداومتها، والمحافظةُ عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهذا من أعظم مقاصدِ الصلاةِ وثمراتها.

وثَمَّ في الصلاة مقصودٌ أعظمُ من هذا وأكبرُ، وهو ما اشتملتْ عليه من ذِكْرِ الله بالقلب واللسان والبدن؛ فإنَّ الله تعالى إنَّما خلق العباد لعبادتِهِ، وأفضلُ عبادةٍ تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديَّات الجوارح كلِّها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: **{ولَذِكْرُ اللهِ أكبرُ}**: ويُحْتَمَلُ أنَّه لمَّا أمَرَ بالصلاة ومدحها؛ أخبر أنَّ ذِكْرَه تعالى خارج الصلاةِ أكبرُ من الصلاة؛ كما هو قولُ جمهور المفسِّرين، لكنَّ الأول أولى؛ لأنَّ الصلاة أفضلُ من الذِّكر خارجها، ولأنَّها -كما تقدَّم- بنفسِها من أكبر الذكر. **{واللهُ يعلم ما تصنَعونَ}**: من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم على ذلك أكمل الجزاء وأوفاه.(3)

قال تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}**، **{وَأَقِمِ}** أمر بالإقامة، وحيث ذكر الأمر بالصلاة فإن ذلك يأتي معبراً عنه بهذا **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ}** ما يقول: أدوا الصلاة، وإنما يقول: **{وَآتُواْ الزَّكَاةَ}** [سورة البقرة:43]، فالصلاة المطلوب فيها الإقامة لا مجرد الأداء، انتبهوا لهذا، وإقامة الصلاة يعني أن يأتي بها مستوفية لشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، فهذه الصلاة التي تأتي مشتملة على هذا تكون قد تحقق فيها هذا المعنى، الإقامة، وهو معنى متفاوت في حقيقته يزيد وينقص، والناس يتفاوتون فيه كثيراً، والشخص الواحد يحصل هذا التفاوت فيه من صلاة لأخرى، فهنا قال: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء}** فـ"إنّ" هنا تدل على التعليل، وكما هو معروف أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فهنا عندنا الحكم: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والوصف الإقامة، الحكم المعلق على وصف الإقامة يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فنقول: هذا الأثر للصلاة الذي هو الحكم يزيد، يعني كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر الناس يتفاوتون في هذا، يزيد بزيادة الوصف الذي علق عليه، فعلى قدر إقامتنا للصلاة على قدر ما يكون من الأثر لكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر، هذا المعنى -والله تعالى أعلم-، فإذا فُهم هذا عرف الجواب عما يرد كثيراً من السؤال وهو لماذا نجد كثيراً من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر؟

السبب: أنهم أدوا هذه الصلاة وما أقاموها، أو أن إقامتهم لها كانت ضعيفة ومن ثَمّ ضعف الأثر، فهذا الإنسان الذي يأتي بالصلاة بهذه الطريقة لابد أن هذه الصلاة تؤثر فيه، في عمله وفي سلوكه وفي حاله مع الله تبارك وتعالى.

{ولَذِكْرُ اللهِ أكبرُ}: فإذا أكثر الإنسان من هذا الذكر بلسانه وقام ذلك بقلبه فكان قلبه ذاكراً مع ذكر اللسان فإنه يكون في حال من القرب وصلاح الظاهر والباطن وتحقيق العبودية، فإن ذكر الله يقربه ويقوده ويسوقه حتى يلزم الصراط المستقيم في أقواله وأفعاله، في أحواله كلها، هذا أمر مشاهد، وهو بالغ التأثير، ولا يخفى أن ذكر الله -تبارك وتعالى- حاصل في الصلاة كما إن ذكره -تبارك وتعالى- حاصل في قراءة كلامه، لكن لابد من مواطأة القلب مع هذا كله، فإذا حصلت هذه المواطأة بين القلب واللسان صار ذاكراً في الحال، صارت له حال الذاكرين، واستقام ظاهره وباطنه، ونسأل الله -عز وجل- أن يجعل ما نتعلمه قائداً لنا إلى العمل والامتثال، ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن من أفضل الدعاء هذا "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، واقرءوا ما ذكر في هذا المعنى، فإذا

أعين الإنسان على هذه الأمور الثلاثة حصل له خير الدنيا والآخرة، فيكثر الإنسان من هذا، والله أعلم. (2)

الفوائد على هذا المقطع (1):

- أن الله سبحانه خلق السماوات و الأرض ليستفيد منها الإنسان في معرفة الله سبحانه و تعالى و الاستدلال على وجوده في هذا الخلق المحكم، و الصنع المتقن، وماينكر ذلك إلا الكافر.
- على المؤمن المواظبة على تلاوة القرآن، و التمسك به في جميع أمور حياته، فهو طريقه إلى النجاة في الدنيا و في الآخرة.

المقطع الثامن: مناقشة أهل الكتاب بالحسنى و مطالبهم التعجيزية. (1)

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

تفسير الآيات:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الكلمة	معناها (4)
ظَلَمُواْ مِنْهُمْ	عاندوا الحق و أعلنوا الحرب.
مُسْلِمُونَ	خاضعون متذللون بالطاعة.

ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانتْ عن غير بصيرةٍ من المجادِلِ أو بغير قاعدة مَرْضِيَّة، وأنْ لا يجادِلوا إلاَّ بالتي هي أحسن؛ بحسن خُلُق ولطفٍ ولينِ كلام ودعوةٍ إلى الحقِّ وتحسينه، وردٍّ عن الباطل وتهجينه بأقرب طريقٍ موصل لذلك، وأنْ لا يكون القصدُ منها مجرَّدَ المجادلةِ والمغالبةِ وحبِّ العلو، بل يكونُ القصدُ بيانَ الحقِّ وهداية الخلق، **{إلاَّ}**: مَنْ ظَلَمَ من أهل الكتاب؛ بأن ظَهَرَ من قصده وحاله أنه لا إرادةَ له في الحقِّ، وإنَّما يجادِلُ على وجه المشاغبة والمغالبة؛ فهذا لا فائدة في جداله؛ لأنَّ المقصود منها ضائع، **{وقولوا آمنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنا وأُنزِلَ إليكُم وإلهُنا وإلهُكم واحِدٌ}**؛ أي: ولتكن مجادلتُكم لأهل الكتاب مبنيَّةً على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أنَّ الإله واحدٌ، ولا تكنْ مناظرتُكم إيَّاهم على وجهٍ يحصُلُ به القدحُ في شيءٍ من الكتب الإلهيَّة أو بأحد من الرسل كما يفعلُه الجهلةُ عند مناظرة الخصوم يقدحُ بجميع ما معهم من حقٍّ وباطلٍ؛ فهذا ظلمٌ وخروجٌ عن الواجب وآداب النظر؛ فإنَّ الواجب أن يُرَدَّ ما مع الخصم من الباطل، ويُقْبَلَ ما معه من الحقِّ، ولا يُرَدُّ الحقُّ لأجل قولِهِ، ولو كان كافراً.

وأيضاً؛ فإنَّ بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق فيه إلزامٌ لهم بالإقرار بالقرآن وبالرسول الذي جاء به؛ فإنَّه إذا تكلَّم في الأصول الدينيَّة والتي اتَّفقت عليها الأنبياءُ والكُتُب وتقرَّرت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتبُ السابقةُ والمرسَلون مع القرآن ومحمدٍ صلى الله عليه وسلم قد بيَّنتها، ودلَّت عليها وأخبرت بها؛ فإنَّه يلزمُ التصديقُ بالكتب كلِّها والرسل كلِّهم، وهذا من خصائص الإسلام، فأمَّا أنْ يُقالَ: نؤمن بما دلَّ عليه الكتابُ الفلانيُّ دون الكتاب الفلانيِّ، وهو الحقُّ الذي صَدَّقَ ما قبله؛ فهذا ظلمٌ وهوى ، وهو يرجِع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنَّه إذا كذَّب القرآن الدالَّ عليها المصدق لما بين يديه من التوراة؛ فإنَّه مكذِّب لما زعم أنه به مؤمن. وأيضاً؛ فإنَّ كلَّ طريق تثبت بها نبوَّة أي نبيٍّ كان؛ فإنَّ مثلها وأعظم منها دالَّة على نبوَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ شبهة يُقدح بها في نبوَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ فإنَّ مثلَها أو أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوَّة غيرِهِ؛ فإذا ثبت بطلانُها في غيرِهِ؛ فثبُوت بطلانِها في حقِّه صلى الله عليه وسلم أظهرُ وأظهرُ. وقوله: **{ونحنُ له مسلمونَ}**؛ أي: منقادون مستسلمون لأمرِهِ، ومَنْ آمنَ به واتَّخذه إلهاً وآمنَ بجميع كتبِهِ ورسلِهِ وانقاد لله واتَّبع رسلَه؛ فهو السعيدُ، ومَنِ انحرفَ عن هذا الطريق؛ فهو الشقي. (3)

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ}: أن المراد أهل الكتاب بإطلاق، أنهم يجادلون بالتي هي أحسن؛ لأن عندهم من العلم والمعرفة، ونزلت عليهم الكتب، فإن مجادلتهم بالحسنى وذكر الحجج لهم أجدى في جذبهم وهدايتهم وإصلاح قلوبهم وكشف

الشبهات العالقة في نفوسهم، وما وُضع الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه، وإذا كان هذا في أهل الكتاب في مجادلتهم فإن من نزل عليهم القرآن أولى بذلك حينما يجادلون فإنهم يجادلون بالتي هي أحسن، إلا من كان معانداً يقصد إبطال الحق، ونصر الباطل، وما أشبه ذلك، فإنه يعامل بما يستحق.(2)

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

الكلمة	معناها (4)
وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ	العرب من قريش.

أي: **{وكذلك أنزَلْنا إليك}**: يا محمدُ، هذا **{الكتاب}** الكريم، المبيِّنَ كلَّ نبأ عظيم، الداعي إلى كلِّ خُلُق فاضل وأمرٍ كامل، المصدِّق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون، **{فالذين آتَيْناهم الكتابَ}**: فعرفوه حقَّ معرفتِهِ ولم يداخِلْهم حسدٌ وهوى، **{يؤمنونَ به}**: لأنَّهم تيقَّنوا صِدْقَه بما لديهم من الموافقات، وبما عندَهم من البِشارات، وبما تميَّزوا به من معرفة الحسن والقبيح والصدق والكذب. **{ومِن هؤلاء}**: الموجودين **{مَن يؤمنُ به}**: إيماناً عن بصيرةٍ لا عن رغبةٍ ولا رهبةٍ، **{وما يجحدُ بآياتنا إلاَّ الكافرونَ}**: الذين دأبهم الجحودُ للحقِّ والعنادُ له، وهذا حصرٌ لمن كفر به؛ أنَّه لا يكون من أحدٍ قصدُهُ متابعةُ الحقِّ، و إلاَّ ؛ فكلُّ مَنْ له قصدٌ صحيحٌ؛ فإنَّه لا بدَّ أن يؤمنَ به؛ لما اشتمل عليه من البيناتِ لكلِّ مَنْ له عقلٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ. ومما يدلُّ على صحتِهِ أنَّه جاء به هذا النبيُّ الأمين، الذي عَرَفَ قومُه صدقَه وأمانتَه ومدخلَه ومخرجَه وسائرَ أحواله، وهو لا يكتبُ بيده خطًّا، بل ولا يقرأ خطًّا مكتوباً، فإتيانُه به في هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبلُ الارتياب أنَّه من عند الله العزيز الحميد.(3)

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ولهذا قال: **{وما كنتَ تتلوا}**؛ أي: تقرأ **{من قبلِهِ من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذاً}**: لو كنت بهذه الحال **{لارتابَ المبطِلونَ}**: فقالوا تَعَلَّمَهُ من الكتبِ السابقة أو استنسخه منها، فأمَّا وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحدَّيْتَ به الفصحاءَ والبلغاءَ الأعداءَ الألدَّاءَ أنْ يأتوا بمثلِهِ أو بسورةٍ من مثله، فعَجَزوا غايةَ العجزِ، بل ولا حدَّثتهم أنفسهم بالمعارضة؛ لعلمهم ببلاغتِهِ وفصاحتِهِ، وأنَّ كلام أحدٍ من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ}**.(3)

﴿و بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: بل هذا القرآن **{آياتٌ بيناتٌ}**: لا خفيَّاتٌ **{في صدور الذين أوتوا العلم}**: وهم سادةُ الخلق وعقلاؤُهم، وأولو الألباب منهم والكُمَّل منهم، فإذا كان آياتٍ بيناتٍ في صدور أمثال هؤلاء؛ كانوا حجَّة على غيرهم، وإنكارُ غيرهم لا يضرُّ، ولا يكون ذلك إلاَّ ظلماً، ولهذا قال:**{وما يجحدُ بآياتنا إلا الظَّالمونَ}**: لأنَّه لا يجحَدُها إلاَّ جاهلٌ، تكلَّم بغير علم، ولم يقتدِ بأهل العلم، وهو متمكِّن من معرفته على حقيقته، وإمَّا متجاهلٌ عرف أنه حقٌّ فعانَدَه، وعرفَ صدقَه فخالَفه.(3)

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
لَوْلَآ	هلّا
ءَايَـٰتٌ	حجج وبراهين نشاهدها كناقة صالح – عليه السلام

أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذِّبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آياتٍ عيَّنوها؛ كقولهم: **{وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرضِ يَنبوعاً...}** [سورة الإسراء:90]الآيات، فتعيين الآياتِ ليس عندَهم ولا عندَ الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإنَّ في ذلك تدبيراً مع الله، وأنَّه لو كان كذا، وينبغي أن يكون كذا، وليس لأحدٍ من الأمر شيءٌ، ولهذا قال: **{قلْ إنَّما الآياتُ عند الله}**: إنْ شاء أنْزَلَها أو منعها، **{وإنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ}**: وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة. وإذا كان القصدُ بيانَ الحقِّ من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأيِّ طريق كان؛ كان اقتراحُ الآيات المعيَّنات على ذلك ظلماً وجوراً وتكبُّراً على الله وعلى الحق، بل لو قُدِّرَ أن تنزِلَ تلك الآياتُ ويكونَ في قلوبهم أنَّهم لا يؤمنون بالحقِّ إلاَّ بها؛ كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافقَ أهواءهم، فآمنوا لا لأنَّه حقٌّ، بل لتلك الآيات؛ فأيُّ فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضيِّ؟ (3)

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ}: فالكفار كانوا يطالبون النبي –صلى الله عليه وسلم– بألوان من الآيات على سبيل التعنت، فتارة يطلبون تنزيل الملائكة، وتارة يطلبون تحول الصفا إلى ذهب، مع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان له آيات وخوراق، كانشقاق القمر **{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}** [سورة القمر: (1)]، وغيرها من الآيات.

ومع ذلك كابروا وأعرضوا وقالوا بأن ذلك سحر، والله يقول: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ}** [سورة الإسراء: 59]، المقصود هذا النوع من الآيات التي يقترحها الكفار، وليس معنى ذلك أنه لم يكن للنبي –صلى الله عليه وسلم– معجزات. (2)

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

ولما كان المقصودُ بيانَ الحقِّ؛ ذكر تعالى طريقَه، فقال: **{أَوَلَمْ يكفِهِم}**: في علمهم بصدقك وصدق ما جئتَ به، **{أنَّا أنْزَلْنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم}**: وهذا كلامٌ مختصرٌ جامعٌ فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيءٌ كثير؛ فإنَّه كما تقدَّم إتيانُ الرسول به بمجرَّده وهو أميٌّ من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحدِّيهم إيَّاه آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً علانيةً يُتلى عليهم، ويقالُ هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقتٍ قلَّ فيه أنصارُه وكَثُرَ مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يُخْفِهِ، ولم يَثْنِ ذلك عزمه، بل صرَّح به على رؤوسِ الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأنَّ هذا كلامُ ربي؛ فهل أحدٌ يقدر على معارضته أو ينطِقُ بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين وأنباء السالفين والغيوب المتقدِّمة والمتأخِّرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنتُهُ على الكتب المتقدِّمة وتصحيحُهُ للصحيح، ونفيُ ما أُدْخِلَ فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقلُ: ليتَه لم يأمُرْ به، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته لم ينهَ عنه، بل هو مطابقٌ للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرةُ إرشاداته وهدايته وأحكامه لكلِّ حال وكلِّ زمان بحيث لا تصلُح الأمورُ إلاَّ به؛ فجميع ذلك يكفي مَنْ أراد تصديقَ الحقِّ، وعَمِلَ على طلب الحقِّ؛ فلا كفى اللهُ من لم يَكْفِهِ القرآن، ولا شَفى الله من لم يَشْفِهِ الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنَّه رحمةٌ له وخيرٌ ؛ فلذلك قال: **{إنَّ في ذلك لرحمةً وذِكْرى لقوم يؤمنونَ}**: وذلك لما يُحَصِّلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية. (3)

{إنَّ في ذلك لرحمةً وذِكْرى لقوم يؤمنونَ} أي: بياناً للحق وإزاحة للباطل، ومن أوجه كونه رحمة أن الله –تعالى– بعث هذا النبي –عليه الصلاة والسلام– وأنزل عليه هذا الكتاب على حين فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، بعدما اندرست آثار النبوة، واضمحلال كثير من أعلامها، ومعالمها، واختلف الذين أنزل عليهم الكتاب في كتبهم، وفي ربهم –تبارك وتعالى– وفي أنبيائهم اختلافاً كثيرا. (2)

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا } فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذبا، أَحَلَّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصرني ويسر لي الأمور، فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته –وأنتم لم تسمعوه ولم تروه– لا تكفي دليلا، فإنه **{ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }** ومن جملة معلوماته حالي وحالكم، ومقالي لكم فلو كنت متقولا عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان [قدحا في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: **{ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴿44﴾لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿45﴾ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ }**[سورة الحاقة:44-46].

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. (3)

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
أَجَلٌ مُّسَمًّى	وقت عذابهم المقدَّر عند الله.
بَغْتَةً	فجأة.

يخبر تعالى عن جهل المكذِّبين للرسول وما جاء به، وأنَّهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادةَ تكذيبٍ: **{متى هذا الوعدُ إنْ كُنْتُم صادقينَ}**[سورة يونس:48]؟ يقول تعالى: **{ولولا أجلٌ مسمًّى}**: مضروبٌ لنزولِهِ ولم يأتِ بعدُ، **{لجاءهم العذابُ}**: بسبب تعجيزِهم لنا وتكذيبِهم الحقَّ؛ فلو آخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامُهم أسرعَ لبلائِهم وعقوبتِهم، ولكن مع ذلك؛ فلا يستبطِئون نزوله فإنه سيأتيهم **{بغتةً وهم لا يشعرونَ}** فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدرٍ بَطِرينَ مفاخِرين ظانّين أنَّهم قادرون على مقصودِهم، فأهانهم الله، وقتل كبارهم، واستوعبَ جملةَ أشرارِهم، ولم يَبْقَ منهم بيتٌ إلاَّ أصابتْه تلك المصيبة، فأتاهم العذابُ من حيث لم يحتَسِبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرونَ. (3)

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

هذا؛ وإنْ لم ينزلْ عليهم العذابُ الدنيويُّ؛ فإنَّ أمامهم العذابَ الأخرويَّ الذي لا يَخْلُصُ منهم أحدٌ منه، سواءٌ عوجِلَ بعذاب الدنيا أو أُمْهِل، فَ**{إنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين}**: ليس لهم عنه معدلٌ ولا متصرفٌ؛ قد أحاطتْ بهم من كلِّ جانب كما أحاطتْ بهم ذنوبُهم وسيئاتُهم وكفرُهم، وذلك العذابُ هو العذابُ الشديد.(3)

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
يَغْشَىٰهُمُ	يحيط بهم.

ثم قال عزوجل **{يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم}** فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي وقوله تعالى **{ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون}** تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: **{يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴿48﴾ إنا كل شيء خلقناه بقدر﴿49﴾}** [سورة القمر:48،49].(5)

الفوائد على هذا المقطع(1):

- المناقشة و الجدال يجب أن يكون بين الافراد بالحكمة و الموعظة الحسنة لانها السبيل إلى الإقناع و تحقيق الأهداف، وخاصة في إيصال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحجة و المنطق و البراهين ولين الخطاب.
- إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان قبل نزول القرآن لا يقرأ ولايكتب و عاش بين قومه أربيعن سنة على ذلك، وقد شهد له بذلك الكتب المتقدمة،و أميته صلى الله عليه وسلم دليل واضح وقاطع على أن القرآن كلام الله سبحانه، لأنه آيات واضحات محكمات، وليس بشعر، ولاسحر، ولا ينكره إلا المبطلون الجاهلون، و الكفار الظالمون، حفظه الله من التغيير و التبديل.
- لقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس و الجن بأن ياتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل عشر سور، أو بمثل سورة واحدة من أقصر السور، وتحداهم فعجزوا وهذا دليل قاطع على أنه كلام الله الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم.
- القرآن الكريم المعجزة العقلية الباقية على مر الزمان و التحدي لايزال قائماً وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض و من عليها، وهو كتاب الله الخالد، ومن آمن به وعمل به نجى من عذاب الله، ومن كفر به ولم يعمل بما فيه عاش في ضنك العيش وهو في الآخرة من الخاسرين سواء كانوا من المشركين أو الكفار أو أهل الكتاب.
- أن الله يمهل و لايهمل العقوبة للكافرين و المشركين الذين طلبوا العقوبة العاجلة، فقد اقتضت الحكمة الإلاهية رحمة بالعباد إعطائهم فرصة التوبة وإصلاح أنفسهم، فمن أصرّ على الكفر فقد أعد الله عذاب جهنم، الذي هو أشد عذاب.

المقطع التاسع: حض المؤمنين على الهجرة عند التضييق عليهم. (1)

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

تفسير الآيات:

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى : **{يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون}** ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم بنصره،وجعلهم سَيُومًا ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.(5)

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴿٥٧﴾﴾

ثم قال تعالى: **{كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون}** أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم، فإن الموت لابد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعًا له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب.(2)

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
لَنُبَوِّئَنَّهُم	لننزلنَّهم
غُرَفًا	منازل عالية

ولهذا قال تعالى: **{والذين امنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار}** أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا **{خالدين فيها}** أي: ماكثين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولا **{نعم أجر العاملين}** نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين.(5)

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

{الذين صبروا}: على عبادة الله **{وعلى ربِّهم يتوكَّلون}**: في ذلك، فصبرُهم على عبادة الله يقتضي بَذْلَ الجهد والطاقةِ في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك. وتوكُّلهم يقتضي شدَّةَ اعتمادهم على الله، وحسنَ ظنِّهم به أن يحقِّقَ ما عزموا عليه من الأعمال ويكمِّلَها، ونصَّ على التوكُّل وإنْ كان داخلاً في الصبر؛ لأنَّه يُحتاج إليه في كل فعلٍ وتركِ مأمورٍ به، ولا يتمُّ إلاَّ به.(3)

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
وَكَأَيِّن مِّن	وكم من
لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا	لا تدَّخره لغدٍ

أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفَّل بأرزاق الخلائق كلِّهم قويِّهم وعاجزهم؛ فكم **{من دابَّةٍ}** في الأرض ضعيفةِ القُوى ضعيفة العقل، **{لا تَحْمِلُ رزقَها}**: ولا تدَّخِرُه، بل لم تزلْ لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخِّرُ لها الرزقَ في كل وقت بوقته. **{اللَّهُ يرزُقُها وإيَّاكم}**: فكلكم عيالُ الله القائم برزقكم كما قام بِخَلْقِكُم وتدبيرِكم. **{وهو السميعُ العليم}**: فلا تخفى عليه خافيةٌ، ولا تهلكُ دابَّةٌ من عدم الرزق بسبب أنها خافيةٌ عليه؛ كما قال تعالى: **{وما من دابَّةٍ في الأرض إلاَّ على الله رزقُها ويعلم مستقرَّها ومستَوْدَعَها كلٌّ في كتاب مبين}**[سورة هود:6].(3)

الفوائد على هذا المقطع(1):

- الحض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام عندما يكثر الأذى وإذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.
- وعد الله المؤمنين الصابرين بالجنة عند صبرهم على الأذى، وتحملهم المكاره.
- بدد الله مخاوف المؤمنين الذين خافوا من الهجرة، وبين لهم أن الموت حق يأتي المقيم و المهاجر، و أن الرزق مكفول ييسره الله لجميع مخلوقاته.

المقطع العاشر: تبيين حال الدنيا و الآخرة و اعترافهم المشركين بالله الخالق الرازق المحيي. (1)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

تفسير الآيات:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الكلمة	معناها(4)
فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ	فكيف يصرفون عن الإيمان؟

يقول تعالى مقررا أنه لا إله إلا هو لأن المشركين الذين يعبدون معه غير معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار.(5)

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
يَبْسُطُ	يوسع.
وَيَقْدِرُ	يضيق.

وأنه الرازق لعباده ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم. فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير وهوالعليم بما يصلح كلا منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المنفرد بتدبيرها فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.(3)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ **{ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }** وحده، ولَاعْتَرَفُوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك.

فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئا، وسَجِّلْ عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلا، وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.(3)

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴿٦٤﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
ٱلۡحَيَوَانُ	الحياة الحقيقة الدائمة.

وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: **{وما هذه الحياةُ الدُّنيا}**: في الحقيقة **{إلاَّ لهوٌ ولعبٌ}**: تلهو بها القلوبُ، وتلعبُ بها الأبدانُ؛ بسبب ما جعلَ الله فيها من الزينة واللذَّات والشهواتِ الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرِحة للنفوس المبطِلة الباطلة، ثم تزول سريعاً وتنقضي جميعاً ولم يحصل منها محبُّها إلاَّ على الندم والحسرة والخسران. وأما الدارُ الآخرةُ؛ فإنها دار **{الحيوان}**؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكونَ أبدانُ أهلها في غاية القوَّة، وقواهم في غاية الشدَّة؛ لأنَّها أبدانٌ وقوى خُلِقَتْ للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كلُّ ما تَكْمُلُ به الحياة، وتتمُّ به اللذَّة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، ممَّا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشر.

{لو كانوا يعلمون}: لما آثروا الدُّنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقِلونَ؛ لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب. فدلَّ ذلك: أنَّ الذين يعلمون لا بدَّ أن يؤثِروا الآخرة على الدُّنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.(32)

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴿٦٥﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
الْفُلْكِ	السفن.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة.

فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقا، مستحقين ثوابه، مندفعا عنهم عقابه.(2)

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في

الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم.

{ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف وأليم العقوبة.(2)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
حَرَمًا ءَامِنًا	هي مكة.
وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ	يُستَلبون قتلاً و أسراً.

ثم امتنَّ عليهم بحرمه الآمن، وأنَّهم أهلُه في أمنٍ وسعةٍ ورزقٍ، والناس من حولهم يُتَخَطَّفونَ ويخافون، أفلا يعبدونَ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمَنَهم من خوفٍ؟! **{أفبالباطل يؤمنونَ}**: وهو ما هم عليه من الشركِ والأقوالِ والأفعالِ الباطلةِ، **{وبنعمةِ اللهِ}**: هم **{يكفرونَ}**؟ فأينَ ذهبتْ عقولهم، وانسلختْ أحلامُهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطلَ على الحقِّ والشَّقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلمَ الخلق؟!(3)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

الكلمة	معناها(4)
مَثْوًى	مسكن و مستقر.

فمن **{أظلم ممَّن افترى على اللهِ كذباً}**: فنسب ما هو عليه من الضَّلال والباطل إلى الله، **{وكذَّب بالحقِّ لما جاءه}**: على يد رسولِهِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّ هذا الظالمَ العنيدَ أمامه جهنَّم، **{أليس في جهنَّم مثوىً للكافرينَ}**: يُؤخَذُ بها منهم الحقُّ، ويُحْزَوْن بها، وتكون منزلهم الدائم الذي لا يخرجون منه؟ (3)

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

{والذين جاهدوا فينا}: وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءَهم وبَذَلوا مجهودَهم في اتِّباع مرضاتِهِ؛ **{لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا}**؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنَّهم محسنونَ. والله مع المحسنينَ: بالعون والنصر والهداية.

دلَّ هذا على أنَّ أحرى الناس بموافقة الصواب أهلُ الجهاد، وعلى أنَّ مَنْ أحسنَ فيما أُمِرَ به؛ أعانه الله ويَسَّرَ له أسبابَ الهداية،

وعلى أنَّ مَنْ جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعيِّ؛ فإنَّه يحصُلُ له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبِهِ أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مدرك اجتهادِهِ، وتيسَّر له أمر العلم؛ فإنَّ طلب العلم الشرعيِّ من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحدُ نوعي الجهاد، الذي لا يقومُ به إلا خواصُّ الخلق، وهو الجهادُ بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهادُ على تعليم أمور الدين وعلى ردِّ نزاع المخالفين للحقِّ، ولو كانوا من المسلمين.(2)

روى ابن حاتم بسنده عن الشعبي قال، قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم. (5)

قال ابن القيم –رحمه الله–: "قَالَ تَعَالَى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** علق سُبْحَانَهُ الْهِدَايَة بِالْجِهَادِ فأكمل النَّاس هِدَايَة أعظمهم جهادا وأفرض الْجِهَاد جِهَاد النَّفس وَجِهَاد الْهوى وَجِهَاد الشَّيْطَان وَجِهَاد الدُّنْيَا فَمن جَاهد هَذِه الْأَرْبَعَة فِي الله هداه الله سبل رِضَاهُ الموصلة إِلَى جنته وَمن ترك الْجِهَاد فَاتَهُ من الْهدى بِحَسب مَا عطل من الْجِهَاد، قَالَ الْجُنَيْد: وَالَّذين جاهدوا أهواءهم فِينَا بِالتَّوْبَةِ لنهدينهم سبل الْإِخْلَاص وَلَا يتَمَكَّن من جِهَاد عدوه فِي الظَّاهِر إِلَّا من جَاهد هَذِه الْأَعْدَاء بَاطِنا فَمن نُصر عَلَيْهَا نصر على عدوه وَمن نصرت عَلَيْهِ نصر عَلَيْهِ عدوه" (5)

الفوائد على هذا المقطع(1):

- أن المشركين متناقضين مع أنفسهم فهم يقرون بأن الله هو الخالق المبدع الذي خلق السماوات والأرض و الشمس والقمر، وسخر الليل والنهار،و أنه هو سبحانه الرازق لعباده، و الذي يحيي الارض بعد موتها بالملء، ثم يشركون معه إلهاً آخر.
- كل شيء بقضاء الله و قدره فالرزق بأمره، و التقتير بأمره، وهو أعلم بما يصلح لعباده، وقد أوضح الحجج و البراهين على قدرته ولكن المشركين لايعون هذه الحجج ولايتدبرونها.
- الحياة الدنيا زائلة و الحياة الآخرة باقية، و الحياة الدنيا ملهاة بما فيها من المال و الجاه و السلطان وكل شيء فيها زائل، أما الحياة الآخرة فباقية و هي الحياة الحقيقة.
- المؤمنون يعرفون الله في وقت الرخاء و الشدة فيعملون للآخرة أما المشركون فلا يعملون إلا في وقت الشدة الشديدة، حيث يلجؤون إلى الله إذا خافوا الغرق، فإذا نجاهم يعودون إلى ضلالهم، ويجحدون نعم الله عليهم، فهم بالشرك يؤمنون و بالله الواحد يكفرون، ولا أحد أظلم ممن جعل لله شريكًا، وإذا فعل فاحشة قال: وجدت عليها آبائي. وهذه صفة المشركين في مكة الذين جعل الله لهم البيت الحرام فيها آمناً يستحق الشكر، وحمد الله على ذلك.
- إن الذين يطلبون مرضاة الله، وينصرون دينه، ويردون على الظالمين، ويتحملون أذاهم ويأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يجاهدون أنفسهم في طاعة الله يحفظهم الله وهم سعداء الدنيا و الآخرة.

تم تفسير سورة العنكبوت

المراجع

1- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد/ نخبة من علماء التفسير و علوم القرآن (جامعة الشارقة).

2- تعليق الشيخ/د.خالد السبت على كتاب المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير
http://www.khaledalsabt.com/cnt/dros/tid/110

3- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ / عبد الرحمن بن ناصر السعدي- رحمه الله-.

4- السراج في بيان غريب القرآن، تأليف/ د. محمد بن عبد العزيز الخضيري.

5- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، للإمام إسماعيل بن كثير، إعداد/ جماعة من العلماء بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري.

جامعة الدمام
UNIVERSITY OF DAMMAM

نادي النورين
بالقرآن والسنة تشرق حياتي

مسابقة
الوحيين
لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية

أحاديث كتاب الفتن
شرح الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله العنقري

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمّا بَعْدُ.

فَإِنّ مَوْضُوْعَ الفِتَنِ -أَعَاذَنَا الله وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا- مِنَ المَوْضُوْعَاتِ الَّتِي اعْتَنَى بِهَا عُلَمَاءُ الأُمَّةِ، وَاهْتَمَّ المُصَنِّفُونَ فِي السُّنَّةِ -رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ- بِإِيرَادِ أَحَادِيثِهَا وَالتَّبْوِيبِ عَلَيْهَا وَبَيَانِ فِقْهِ هَذِهِ النُّصُوصِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَرْوِيهِ مُسْلِمٌ أَنَّ هَذِهِ الفِتَنَ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا تَكْثُرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا**»[1].

وَتَوَارَدَتِ النُّصُوصُ كَثِيرًا أَيْضًا بِشِدَّةِ الحَالِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَرَأَى هَذَا بَعْضُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ثُمَّ رَأَيْنَاهُ أَشَدَّ مِمَّا رَآهُ مَنْ قَبْلَنَا وَسَيَرَاهُ مَنْ بَعْدَنَا أَشَدَّ مِمَّا رَأَيْنَاهُ؛ لِمَا سَيَأْتِي فِي أَوَائِلِ أَحَادِيثِ هَذَا الكِتَابِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»[2].

فَالأُمُورُ تَخْتَلِفُ وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ عَلَى حَالٍ مِنْ نُزُولِ السُّنَّةِ، ثُمَّ كَانُوا فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ عَلَى حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الحَالِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ كُلَّمَا امْتَدَّ الزَّمَنُ بِالنَّاسِ تَغَيَّرَتِ الأَحْوَالُ إِلَى حَدِّ أَنَّ بَعْضَهَا يَنْتَكِسُ انْتِكَاسًا، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ، وَيُتَّخَذُ سُنَّةً فَإِنْ غُيِّرَتْ يَوْمًا قِيلَ: هَذَا مُنْكَرٌ**»؛ لِأَنَّ النَّاسَ أَلِفُوا هَذِهِ الفِتْنَةَ.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (1844).

(2) أخرجه أحمد في «مسنده» (126/4)، وأبو داود في كتاب السنة- باب في لزوم السنة (4607)، والترمذي في كتاب العلم- باب ما جاء في الآخذ بالسنة واجتناب البدع (2676)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (44)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (2549).

وَالنَّاظِرُ فِي أَمْرِ النَّاسِ وَوَاقِعِهِمْ يَجِدُ كَثْرَةَ التَّحَوُّلِ وَكَثْرَةَ التَّغَيُّرِ وَهَذَا التَّحَوُّلُ وَهَذَا التَّغَيُّرُ؛ مِنَ اسْتِحْسَانِ الأَمْرِ المشِينِ، وَاسْتِقْبَاحِ الأَمْرِ الحَسَنِ، وَتَحْلِيلِ مَا كَانَ حَرَامًا، وَتَحْرِيمِ مَا كَانَ حَلَالًا، كُلُّ هَذَا مِنْ دَلَائِلِ الفِتْنَةِ –عِيَاذًا بِاللهِ–، وَلِهَذَا قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**الضَّلَالَةُ حَقَّ الضَّلَالَةِ أَنْ تَعْرِفَ مَا كُنْتَ تُنْكِرُ، وَتُنْكِرَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ، إِيَّاكَ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ**»؛ لِأَنَّ الحَقَّ فِي دِينِ اللهِ وَاحِدٌ هُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا دلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ فَمِنَ المحَالِ أَنْ يَتَغَيَّرَ هَذَا الحَقُّ، فَإِذَا تَغَيَّرَ التَّوَجُّهُ عِنْدَ إِنْسَانٍ فَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مَفْتُونٌ، أَمَّا الحَقُّ فَثَابِتٌ.

وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: «**فَعَلَيْكُمْ بِالعَتِيقِ**»، العَتِيقُ يَعْنِي: الأَمْرَ القَدِيمَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ.

فَالأَمْرُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ جِدُّ خَطِيرٌ وَالأَحْوَالُ الَّتِي تَمُرُّ بِالنَّاسِ تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّحَوُّلَاتِ وَالتَّغَيُّرَاتِ الَّتِي صَارَ كَثِيرٌ مِن النَّاسِ يَتَرَنَّحُ تَرَنُّحًا –عِيَاذًا بِاللهِ مِنَ الفِتْنَةِ– يَتَرَنَّحُ فِي التَّقَلُّبِ، فَلَا يَثْبُتُ عَلَى حَالٍ وَاحِدٍ، فَتَجِدُهُ قَبْلَ سِنِينَ عَلَى حَالٍ، وَتَجِدُهُ بَعْدَهَا عَلَى حَالٍ، وَتَجِدُهُ الآنَ عَلَى حَالٍ، وَتَجِدُهُ بَعْدَ الآنِ عَلَى حَالٍ، هَذِهِ هِيَ الفِتْنَةُ –نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ–.

وَالفِتَنُ تَارَّةً تَكُونُ فِي الدِّينِ، وَهِيَ أَخْطَرُهَا وَأَشَدُّهَا وَأَفْظَعُهَا أَنْ يُفْتَنَ الإِنْسَانُ فِي دِينِهِ عِيَاذًا بِاللهِ، وَتَارَّةً تَكُونُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا؛ بِكَثْرَةِ سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَاسْتِسْهَالِ الأُمُورِ العِظَامِ الصِّعَابِ الَّتِي عَظَّمَ اللهُ مِنْ شَأْنِهَا مِنْ حُقُوقِ المسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يَسْتَسْهِلَ النَّاسُ الجُرْأَةَ عَلَيْهَا، وَيَتَنَادَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلَى تَغْيِيرِ النَّظْرَةِ بِشَأْنِهَا، وَتَسْمَعُ وَسَتَظَلُّ تَسْمَعُ إِلَى أَنْ تَلْقَى اللهَ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**»، الَّذِي لَنْ يَرَى الِاخْتِلَافَ هُوَ الَّذِي يَمُوتُ، أَمَّا مَنْ يَتَقَدَّمُ بِهِ العُمُرُ لَا بُدَّ أَنْ يَرَى هَذَا الِاخْتِلَافَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَلَيْسَ المقْصُودُ –أَيُّها الإِخْوَةُ– مِنَ الكَلَامِ عَلَى الفِتَنِ أَنْ نُعَدِّدَهَا وَأَنْ نَقُولَ: الفِتْنَةُ هِيَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، لَكِنَّ المقْصُودَ فِي الأَعْظَمِ فِي وُرُودِهَا فِي النُّصُوصِ وَعِنَايَةِ أَهْلِ العِلْمِ بِهَا، المقْصُودُ بَعْدَ العِلْمِ بِهَا: النَّجَاةُ مِنْهَا وَالْتِمَاسُ الوَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تُخَلِّصُ بِحَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا.

قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي «صَحِيحِهِ» فِي: «كِتَابُ الفِتَنِ».

«**كِتَابُ الفِتَنِ**»: الفِتْنَةُ أُطْلِقَتْ عِدَّةَ إِطْلَاقَاتٍ، جَاءَتْ فِي القُرْآنِ بِإِطْلَاقَاتٍ عِدَّةٍ ذَكَرَ مِنْهَا العَلَّامَةُ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي «العَذْبِ النَمِيرِ» -وَهُوَ مَجْمُوعُ مَا فُرِّغَ مِنْ أَشْرِطَةِ كُتُبِهِ فِي التَّفْسِيرِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وَهُوَ كِتَابٌ نَفِيسٌ لِلْغَايَةِ فِي التَّفْسِيرِ، ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الفِتْنَةَ أُطْلِقَتْ أَرْبَعَةَ إِطْلَاقَاتٍ:

الإِطْلَاقُ الأَوَّلُ: هُوَ الأَشْهَرُ، إِطْلَاقُ الفِتْنَةِ عَلَى الِاخْتِبَارِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾[3].

وَالإِطْلَاقُ الثَّانِي: إِطْلَاقُهَا عَلَى الإِحْرَاقِ بِالنَّارِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾[4] أَيْ: يُحْرَقُونَ فِي جَهَنَّمَ عِيَاذًا بِاللهِ.

وَالإِطْلَاقُ الثَّالِثُ: نَتِيجَةُ الِاخْتِبَارِ إِذَا كَانَتْ سَيِّئَةً خَاصَّةً، نَتِيجَةُ الِاخْتِبَارِ لَا كُلُّ نَتِيْجَة، وَإِنَّمَا النَّتِيجَةُ السَّيِّئَةُ خَاصَّةً؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾[5] مَا المُرَادُ بِالفِتْنَةِ هُنَا؟ المُرَادُ بِهَا: الشِّرْكُ، كَمَا فَسَّرَهَا عُلَمَاءُ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، هَذِهِ الإِطْلَاقَاتُ الثَّلَاثَةُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا.

الإِطْلَاقُ الرَّابِعُ: ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾[6]، قَالُوا: إِنَّ المُرَادَ بِالفِتْنَةِ هُنَا الحُجَّةُ، ﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ**﴾ أَيْ: لَمْ تَكُنْ حُجَّتُهُمْ، وَكَمَا قُلْنَا فِي أَوَّلِ الكَلَامِ: إِنَّ أَشْهَرَ إِطْلَاقَاتِ الفِتْنَةِ إِطْلَاقُهَا عَلَى الِاخْتِبَارِ.

([3]) سورة الجن، الآيتان: 16، 17.

([4]) سورة الذاريات: 13.

([5]) سورة البقرة: 193.

([6]) سورة الأنعام: 23.

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

1-«حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَصْحَابِي. يَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا"

2-«حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ».

3-«حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنِ الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ"

4-«حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، ح وَحَدَّثَنِي مَحْمُودٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنِّي لَأَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ الْقَطْرِ».

بَابُ ظُهُورِ الفِتَنِ

5-«حَدَّثَنَا عَيَّاشُ بْنُ الْوَلِيدِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّمَا هُوَ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ. وَقَالَ شُعَيْبٌ وَيُونُسُ وَاللَّيْثُ وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ: عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

بَابٌ: لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ

6- «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ الْحَجَّاجِ. فَقَالَ: اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

بَابُ: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»

7- «حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامٍ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ».

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»

8- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا شَقِيْقٌ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

9-«حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنِي وَاقِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضَكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

بَابٌ: تَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ

10-«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ؛ فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ».

بَابٌ: إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا

11-«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ رَجُلٍ لَمْ يُسَمِّهِ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: خَرَجْتُ بِسِلَاحِي لَيَالِيَ الْفِتْنَةِ فَاسْتَقْبَلَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ نُصْرَةَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قِيلَ: فَهَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ.

بَابٌ: كَيْفَ الأَمْرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمَاعَةٌ

12-«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ جَابِرٍ، حَدَّثَنِي بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ الحَضْرَمِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ، أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

بَابُ التَّعَوُّذِ مِنَ الفِتَنِ

13-«حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ فَضَالَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ. فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَافٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ -كَانَ إِذَا لَاحَى يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ- فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ. ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا رَأَيْتُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ.

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْفِتْنَةُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ»

14-«حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا! قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا! فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ».

بَابُ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ

15- «حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا شَقِيقٌ، سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ عُمَرَ إِذْ قَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ؟ قَالَ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ. قَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ، وَلَكِنِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ. فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا. قَالَ عُمَرُ: أَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ. قَالَ عُمَرُ: إِذًا لَا يُغْلَقُ أَبَدًا؟ قُلْتُ: أَجَلْ. قُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً، وَذَلِكَ أَنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ مَنِ الْبَابُ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَنِ الْبَابُ؟ قَالَ: عُمَرُ».

«بَابُ»

16-«حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ الْهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ نَفَعَنِي اللهُ بِكَلِمَةٍ أَيَّامَ الْجَمَلِ؛ لَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ فَارِسًا مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ: لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً».

بَابٌ: إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا

17-«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُثْمَانَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ».

بَابٌ: إِذَا قَالَ عِنْدَ قَوْمٍ شَيْئًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ بِخِلَافِهِ

18-«حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ الْأَحْدَبِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الْيَوْمَ شَرٌّ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا يَوْمَئِذٍ يُسِرُّونَ وَالْيَوْمَ يَجْهَرُونَ».

بَابٌ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ القُبُورِ

19-«حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ!».

بَابُ خُرُوجِ النَّارِ

20-وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ».

21-«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: أَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى».

بَابٌ

22-«حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، حَدَّثَنَا مَعْبَدٌ، سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: تَصَدَّقُوا؛ فَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا. قَالَ مُسَدَّدٌ: حَارِثَةُ أَخُو عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ لِأُمِّهِ. قَالَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ».

بَابُ ذِكْرِ الدَّجَّالِ

23-«حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أُرَاهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ- وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ».

24-«حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَجِيءُ الدَّجَّالُ حَتَّى يَنْزِلَ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ».

25-«حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَلَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ».

26-«حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الدَّجَّالِ: إِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا، فَنَارُهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَمَاؤُهُ نَارٌ. قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

27- «حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ: كَافِرٌ.

فِيهِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

بَابٌ: لَا يَدْخُلُ الدَّجَّالُ المَدِينَةَ

28-«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُجْمِرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلَا الدَّجَّالُ».

بَابُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

29-«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ (ح)، وَحَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي أَخِي، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَتِيقٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ - وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا-. قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ».

30-وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ».

31-«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: أَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى».

كِتَابُ الفِتَنِ»

(1) بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[7]

بَدَأَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِالتَّبْوِيبِ عَلَى هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى حَذَّرَ فِي هَذِهِ الآيَةِ مِنَ فِتْنَةٍ، مَزِيَّةُ هَذِهِ الفِتْنَةِ أَنَّهَا لَا تَخْتَصُّ بِمَنْ يَظْلِمُ؛ بَلْ قَدْ تَشْمَلُ مَنْ لَا يَظْلِمُ، وَذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عِنْدَ الطَّبَرِيِّ: «**أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَمَّهُمُ العَذَابُ**»؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ وَأَقَرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى تَغْيِيرِهِ فَإِنَّهُ يَعُمُّهُمُ العَذَابُ عِيَاذًا بِاللهِ.

وَهَذَا جَاءَ مَعْنَاهُ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثٍ حَسَّنَهُ الحَافِظُ، فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُ العَامَّةَ بِعَمَلِ الخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ**» مَاذَا يَحْدُثُ؟ «**عَذَّبَ اللهُ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ**»[8] وَالعِيَاذُ بِاللهِ العَامَّةَ وَالخَاصَّةَ، هَذِهِ المُنْكَرَاتُ إِذَا لَمْ يُجَاهَرْ بِهَا فَمَهْمَا كَانَتْ بَالِغَةً فِي القَذَارَةِ وَالخَسَاسَةِ فَإِنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُجَاهِرٍ بِهَا، غَيْرُ مُسْتَعْلِنٍ بِهَا، أَمَّا إِذَا أَعْلَنَهَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ نَفْسَهُ فَقَطْ؛ بَلْ يَضُرُّ نَفْسَهُ وَيَضُرُّ غَيْرَهُ، وَهَذَا مِنْ أَخْطَرِ وَأَخْوَفِ مَا يُخَافُ مِنْ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ، فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا فِي المُنْكَرَاتِ مِنَ الخَطَرِ أَنَّهَا قَدْ يُعَاقَبُ بِهَا الجَمِيعُ، وَتُنْزِلُ السَّخَطَ عِيَاذًا بِاللهِ وَالعُقُوبَةَ فَتَشْمَلُ العَامِلَ وَالسَّاكِتَ.

وَلِهَذَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْهَرُونَ بِمُنْكَرَاتِهِمْ، وَيَسْتَثْقِلُونَ مَنْ يَأْمُرُهُمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ تَدَخَّلَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ هُمْ مِنْ أَجْهَلِ عِبَادِ اللهِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمُنْكَرَ لِلْمُنْكَرِ أَوَّلًا: مُؤَدٍّ لِمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى، ثَانِيًا: سَاعٍ فِي أَلَّا تَنْزِلَ عُقُوبَةٌ؛ لِأَنَّ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ إِذَا أُنْكِرَتْ عَلَى أَصْحَابِهَا وَاحْتُسِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا فَإِنَّ العُقُوبَةَ لَا تَنْزِلُ، لَكِنْ إِذَا أَظْهَرَ أَهْلُ المُنْكَرَاتِ مُنْكَرَاتِهِمْ وَلَمْ يُوَاجَهُوا بِإِنْكَارٍ فَإِنَّ ذَلِكَ نَذِيرُ عُقُوبَةٍ.

وَهَذَا مِنَ الأُمُورِ المَخُوفَةِ جِدًّا عَلَيْنَا وَعَلَى غَيْرِنَا، فَإِنَّ المُجَاهَرَةَ بِالمُنْكَرَاتِ مِنْ أَسْوَأِ المُنْكَرَاتِ: المُجَاهَرَةُ بِالمُنْكَرَاتِ المُجَاهَرَةُ لَهَا بِنَوْعٍ مِنْ طَلَبِ النَّاسِ أَنْ يَشْتَرِكُوا فِيهَا، وَتَحْسِينِهَا، وَالحَثِّ عَلَيْهَا، وَاسْتِخْفَافِ عَقْلِ مَنْ لَا يَأْتِي إِلَيْهَا كَمَا تَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ وَسَائِلِ الإِعْلَامِ، فَإِنَّهَا لَا تَكْتَفِي بِعَرْضِ الْمُنْكَرِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ فَقَطْ؛ بَلْ تُضِيفُ إِلَى ذَلِكَ: تَزْيِينَهُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَاسْتِخْفَافَ عَقْلِ مَنْ لَا يُشَارِكُ فِيهَا، فَجَمَعُوا

([7]) سورة الأنفال: 25.

(8) أخرجه أحمد في «مسنده» (192/4)، وقال شعيب الأرنؤوط : «حسن لغيره».

بِذَلِكَ شَرًّا عَظِيمًا، وَلِهَذَا هَذِهِ الآيَةُ مَخُوْفَةٌ جِدًّا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ لِأَنَّهَا لَوْ نَزَلَتْ وَوَقَعَتْ بِالظَّالِمِ لَقَالَ القَائِلُ: حَسْبُهُ أَنْ يُجَازَى بِعَمَلِهِ. لَكِنَّ الإِشْكَالَ أَنَّ الظَّالِمَ لَا يُجَازَى بِهَا، لِأَنَّ اللهَ أَوْجَبَ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالِاحْتِسَابَ عَلَى أَهْلِ الإِجْرَامِ وَأَهْلِ الِاسْتِعْلَانِ بِالبَاطِلِ.

وَسَوَاءٌ كَانَ هَذَا البَاطِلُ أَمْرًا مُرْتَبِطًا بِالِاعْتِقَادِ وَهُوَ الأَخْطَرُ وَالأَشَدِّ وَالأَدْهَى وَالأَمَرّ؛ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَى، أَوْ نَشْرِ الإِلْحَادِ، أَوِ السُّخْرِيَةِ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى، أَوْ كَانَ فِي أُمُورِ المَعَاصِي؛ كَالدَّعْوَةِ لِلْفَوَاحِشِ وَالخُمُورِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كُلُّ هَذَا مِنَ الأُمُورِ المَخُوْفَةِ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعْلَانِ.

وَلِهَذَا اسْتِعْلَانُ هَؤُلَاءِ بِبَاطِلِهِمْ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَضُرُّ النَّاسَ، وَالوَاجِبُ أَنْ يُحْتَسَبَ عَلَيْهِمْ كُلٌّ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ، لِأَنَّ هَذَا أَوَّلًا وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ، وَالأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا فِيهِ إِزَاحَةٌ لِسَبَبِ نُزُولِ العُقُوبَةِ، فَإِنَّ العُقُوبَةَ تَنْزِلُ إِذَا لَمْ يُنْكَرِ الْمُنْكَرُ، وَلِهَذَا هَذَا الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ مِنْ أَسْبَابِ الأَمَانِ فِي الأُمَّةِ وَمِنْ أَسْبَابِ العَافِيَةِ فِيهَا.

وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ شِدَّةَ غُرْبَةِ الدِّينِ الآنَ حِينَ تَجِدُ بِلَادًا بِأَسْرِهَا لَا أَمْرَ فِيهَا بِالمَعْرُوفِ وَلَا نَهْيَ فِيهَا عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِتَعْلَمَ مَدَى غُرْبَةِ الدِّينِ، مَعَ أَنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ شِعَارٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ مِنْ شِعَارَاتِ الإِسْلَامِ، وَلَيْسَ لِمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَفَرَّطَ فِيهِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ التَّزْهِيدِ فِيهِ، وَاسْتِسْفَاهِ أَهْلِهِ، وَاسْتِخْفَافِ عَمَلِهِمْ، وَعَدِّهِمْ مِنَ الفُضُولِيِّينَ المُتَدَخِّلِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ، مَا أَقْرَبَهُمْ مِنَ العُقُوبَةِ!

فَهَذِهِ الآيَةُ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى وُجُودِ نَوْعٍ مِنَ العَذَابِ العَامِّ لِمَنْ لَا دَخْلَ لَهُ فِي الذَّنْبِ الخَاصِّ، مَا ذَنْبُهُ؟ ذَنْبُهُ عَدَمُ إِنْكَارِهِ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكْفِيَنَا غِبَّ هَذِهِ المُنْكَرَاتِ.

«حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لِأُنَاوِلَهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَصْحَابِي. يَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[9].

فِي هَذَا الحَدِيثِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ» أَيْ: مُتَقَدِّمُكُمْ إِلَى الحَوْضِ، «فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ» أَيْ: مُتَقَدِّمٌ أَمَامَكُمْ إِلَى الحَوْضِ، وَالفَرَطُ هُوَ مَا تَقَدَّمَ وَسَبَقَ، يَسْبِقُ القَوْمَ عَادَةً سَابِقٌ إِلَى المَاءِ لِيُصْلِحَ وَيُهَيِّئَ المَاءَ، يُهَيِّئُ الدِّلَاءَ، يُهَيِّئُ الأَرْشِيَةَ، وَهِيَ الحِبَالُ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ القَوْمُ إِلَى المَاءِ وَإِذَا الأُمُورُ مُهَيَّأَةٌ مُبَاشَرَةً يَبْدَؤُونَ فِي انْتِزَاعِ وَاجْتِذَابِ المَاءِ.

فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ» هُوَ فَرَطُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى الحَوْضِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ رِجَالًا سَيُرْفَعُونَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى إِذَا أَهْوَى لِيُنَاوِلَهُمْ مِنَ الحَوْضِ جُذِبُوا ونُزِعُوا، أُخِذَ بِهِمْ أَخْذًا وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ هَذَا الحَوْضِ، فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَيْ رَبِّ، أَصْحَابِي» يَعْنِي: أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي، «فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» هَذَا اللَّفْظُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَصْحَابِي» جَاءَ بِلَفْظٍ آخَرَ، وَهُوَ: «أُصَيْحَابِي»[10].

قَالَ الحَافِظُ: فِي قَوْلِهِ: «أُصَيْحَابِي» دَلَالَةٌ عَلَى قِلَّتِهِمْ، أَنَّهُمْ قَلِيلٌ؛ لِأَنَّ هَذَا تَصْغِيرٌ لِلْأَصْحَابِ، مَا المُرَادُ بِالأَصْحَابِ الَّذِينَ يُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الحَوْضِ وَالَّذِينَ عَرَفَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ يُعْرَفُ المُرَادُ بِهَؤُلَاءِ الأَصْحَابِ مِنْ خِلَالِ مَعْرِفَةِ المُرَادِ بِالصُّحْبَةِ نَفْسِهَا؛ صُحْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ رَآهُ وَلَوْ أَدْنَى الوَقْتِ، أَقَلَّ الوَقْتِ، وَلَوْ فِي مَوْقِفٍ، فَإِنَّهُ مَعْدُودٌ فِي أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَهَذِهِ الصُّحْبَةُ العَامَّةُ وَهِيَ بِلَا شَكٍّ لِكَثِيرِينَ جِدًّا مِمَّنْ كَانُوا يَفِدُونَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَفَدَ إِلَيْهِ عَدَدٌ فِي عَامِ تِسْعٍ؛ حَيْثُ عَامُ الوُفُودِ وَفَدَتْ قَبَائِلُ العَرَبِ إِلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ مُبَايِعِينَ عَلَى الإِسْلَامِ.

وَمِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ لَمْ يَرَهُ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَعَدَدٌ مِنْهُمْ رَأَوْهُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، حَيْثُ حَجَّ أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، فَهَذَا المُرَادُ بِالصُّحْبَةِ، الصُّحْبَةُ مَعْنَاهَا ثَابِتٌ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ.

---

(9) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ما جاء في قول الله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ} (7049)، ومسلم في كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم (2297).

(10) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب {وكنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم} (4625).

ثُمَّ لَا يُعَدُّ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِطْلَاقٍ إِلَّا إِذَا مَاتَ عَلَى الإِيمَانِ، فَالصُّحْبَةُ مَعْنَاهَا: لُقِيُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قِبَلِ مُؤْمِنٍ وَيَمُوتُ عَلَى الإِيمَانِ، أَمَّا لَوْ لَقِيَهُ كَافِرٌ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِهِ، أَوْ لَقِيَهُ رَجُلٌ آمَنَ بِهِ ثُمَّ ارْتَدَّ فَلَا يُعَدُّ فِي أَصْحَابِهِ، وَإِنَّمَا الصُّحْبَةُ الَّتِي تَسْمَعُهَا وَأُلِّفَتْ فِيهَا الكُتُبُ وَيُقَالُ: تَارِيخُ الصَّحَابَةِ، أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَالمُرَادُ بِهِمْ: مَنْ مَاتُوا عَلَى الإِيمَانِ، أَمَّا مَنِ ارْتَدَّ عَلَى أَعْقَابِهِ فَلَا يُعَدُّ فِي أَصْحَابِهِ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ –قَوْلِ المَلَائِكَةِ– فِي الجَوَابِ لَهُ: «**لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»، النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ لَقِيَ هَؤُلَاءِ لَقِيَهُمْ مُؤْمِنِينَ، مَاتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، ثُمَّ ارْتَدُّوا، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «**لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»، ارْتَدُّوا بَعْدَ وَفَاتِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا ارْتَدُّوا بَعْدَ وَفَاتِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ اسْتَصْحَبَ الحَالَ السَّابِقَةَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: «**أَصْحَابِي**»، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «**أُصَيْحَابِي**» فَيُقَالُ: «**لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».

وَمِنْ عَجَائِبِ الرَّافِضَةِ أَنَّهُمُ احْتَجُّوا بِهَذَا الحَدِيثِ عَلَى القَدْحِ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الِاحْتِجَاجَاتِ وَأَغْرَبِهَا؛ لِأَنَّ مِنَ الأُمُورِ المُتَوَاتِرَةِ المَقْطُوعِ بِهَا قَطْعًا أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا المُرْتَدِّينَ هُمُ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ تَسُبُّهُمُ الرَّافِضَةُ، فَالَّذِينَ ارْتَدُّوا –كَأَصْحَابِ مُسَيْلِمَةَ، وَأَصْحَابِ سِجَاحٍ، وَأَصْحَابِ طُلَيْحَةَ، وَغَيْرِهِمْ– هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَنْ قَاتَلَهُمْ؟ مَا قَاتَلَهُمْ إِلَّا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

وَبَلَغَ بِالرَّافِضَةِ فِي العِنَادِ حَدٌّ عَجِيبٌ لِلْغَايَةِ، قَالُوا فِيهِ: إِنَّ مِنْ مَثَالِبِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَاتَلَ بَنِي حَنِيفَةَ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا وَصَلَ شَيْخُ الإِسْلَامِ فِي مِنْهَاجِ السُّنَّةِ إِلَى هَذَا المَوْطِنِ اشْتَدَّ غَضَبُهُ رَحِمَهُ اللهُ وَقَالَ رَدًّا عَلَى ابْنِ المُطَهَّرِ: اللهُ أَكْبَرُ عَلَى هَؤُلَاءِ الكَفَرَةِ، يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي حَنِيفَةَ مُؤْمِنُونَ. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ بَنِي حَنِيفَةَ اعْتَقَدُوا فِي مُسَيْلِمَةَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ ظَهَرَ كُفْرُهُمْ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُسَيْلِمَةَ ادَّعَى النُّبُوَّةَ فِي وَقْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَاتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ قِتَالِهِمْ.

فَالحَاصِلُ أَنَّ المُرَادَ بِالأَصْحَابِ هُنَا: مَنْ كَانَ لَهُمْ صُحْبَةٌ عَامَّةٌ، رَآهُمْ فِيهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُؤْمِنِينَ، الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ مَاتَ ارْتَدَّ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ، فَكَانَ فِي هَؤُلَاءِ المُرْتَدِّينَ مَنْ رَآهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِ الإِيمَانُ، وَلِهَذَا قَالَتْ لَهُ المَلَائِكَةُ: «**إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»، وَأَجَابَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ**

عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّادُمْتُ فِيهِمْ﴾» لَمَّا كُنْتُ فِيهِمْ كَانَ الظَّاهِرُ مِنْ حَالِهِمُ الإِيمَانَ «﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾».

فَالحَاصِلُ: أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ الَّذِي تَقْدَحُ الرَّافِضَةُ فِيهِ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُقَالُ: إِنَّمَا قَاتَلَ هَؤُلَاءِ المُرْتَدِّينَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ الذِيْنَ تَذُمُّونَهُمْ، وَقَد عُلِمَ عِنْدَ الجَمِيعِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أَصَرَّ عَلَى قِتَالِهِمْ وَأَبَى أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ مَنْ أَقَرَّ بِالصَّلَاةِ دُونَ الزَّكَاةِ، وَقَاتَلَهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَانَ المُرْتَدُّونَ أَصْنَافًا، مِنْهُمْ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ فِي أَحَدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقَرَّ بِالصَّلَاةِ دُونَ الزَّكَاةِ، فَقَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هَؤُلَاءِ المُرْتَدِّينَ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يُؤَدُّوا الزَّكَاةَ قَاتَلُوا عَلَيْهَا، لِأَنَّ وَالَّذِي يَأْبَى أَدَاءَ الزَّكَاةِ وَقَاتَلَ عَلَيْهَا لَيْسَ مِثْلَ العَاصِي الَّذِي لَا يُزَكِّي.

وَلِهَذَا قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَرَكَ الزَّكَاةَ وَهُوَ فِي المُسْلِمِينَ تُؤْخَذُ مِنْهُ الزَّكَاةُ جَبْرًا، لَكِنْ إِذَا قَاتَلَ عَلَيْهَا ارْتَدَّ؛ لِأَنَّ قِتَالَهُ عَلَيْهَا دَالٌّ عَلَى جَحْدِهِ لَهَا، وَأَنَّ المَسْأَلَةَ لَيْسَتْ مَسْأَلَةَ بُخْلٍ كَمَا قَدْ يَبْخَلُ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، لَكِنْ إِذَا قَاتَلَ دُونَهَا فَإِنَّ قِتَالَهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ قِتَالُ الكُفَّارِ لَا قِتَالُ العُصَاةِ.

(2) «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا».

1-«**حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ**»[(11)].

هَذَا الحَدِيثُ مُخْتَصَرٌ وَتَأْتِي أَحَادِيثُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى تُبَيِّنُ الِاخْتِصَارَ المَقْصُودَ فِيهِ، فِيهِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرٍ أَبْلَغَهُ اللهُ بِهِ، وَهُوَ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ، حِينَ يَقُولُ: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً» وَالمُرَادُ بِالأَثَرَةِ: الِاخْتِصَاصُ وَالِانْفِرَادُ بِالشَّيْءِ، يَكُونُ الشَّيْءُ عَامًّا فَيَأْتِي

(11) سبق تخريجه.

شَخْصٌ وَيَضَعُ اليَدَ عَلَيْهِ وَيَنْفَرِدُ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ، هَذَا يَكُونُ اسْتِئْثَارًا، فَإِنْ كَانَ صَاحِبَ حَقٍّ فِيهِ فَاسْتِئْثَارُهُ بِهِ فِي مَحَلِّهِ، أَمَّا إِنْ كَانَ لَهُ مَا لِغَيْرِهِ فِيهِ وَلَيْسَ هُوَ المُنْفَرِدَ بِمِلْكِهِ، فَاسْتِئْثَارُهُ بِالشَّيْءِ دُونَ غَيْرِهِ نَوْعُ ظُلْمٍ وَتَعَدٍّ مِنْهُ.

فَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هَذِهِ الأَثَرَةَ سَتَقَعُ، «**سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟**» يَعْنِي: مَا الَّذِي تَأْمُرُنَا بِفِعْلِهِ إِذَا وَقَعَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ**» الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ**» المُرَادُ بِهِ: الحُكَّامُ وَالأُمَرَاءُ، أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمُ الَّذِي أَمَرَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِمْ فِي المَعْرُوفِ، وَحَقُّكُمْ قَدْ يَمْنَعُونَهُ فَسَلُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّكُمْ.

سُؤَالُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّهُمْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ إِمَّا بِأَنْ يُوَفِّقَ هَؤُلَاءِ الحُكَّامَ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ فَيُطَبِّقُوهُ وَيَتْرُكُوا الظُّلْمَ وَالتَّعَدِّيَ، أَوْ بِأَنْ يُبْدِلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِغَيْرِهِمْ مِنْ دُونِ فِتْنَةٍ وَسَفْكِ دِمَاءٍ، فَإِنَّ حَقَّ الرَّعِيَّةِ الَّذِي مَنَعَتْهُ الرُّعَاةُ وَالحُكَّامُ سَيَصِلُ إِلَيْهِمْ فِي إِحْدَى حَالَتَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يَهْدِيَ اللهُ هَؤُلَاءِ الحُكَّامَ فَيَتَّقُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَعُودُوا عَنِ الِاسْتِئْثَارِ الَّذِي اسْتَأْثَرُوهُ بِالشَّيْءِ دُونَ النَّاسِ، فَيَفْعَلُوا كَمَا فَعَلَ الخَلِيفَةُ العَادِلُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حِينَ عَادَ فَأَعَادَ إِلَى النَّاسِ مَالَهُمْ.

وَإِمَّا بِأَنْ يَتَغَيَّرَ الحَالُ وَيَذْهَبَ هَؤُلَاءِ الحُكَّامُ وَيَأْتِي حُكَّامٌ يَكُونُونَ عَلَى حَالٍ أَفْضَلَ مِنْ حَالِ الحُكَّامِ السَّابِقِينَ، فَيُعِيدُوا إِلَى النَّاسِ حَقَّهُمْ، هَذَا مُقْتَضَى شَرْحِ الحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ لِقَوْلِهِ: «**سَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ**».

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ دَلَالَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا عَلَى الأَوْلَوِيَّاتِ الكُبْرَى فِي الشَّرْعِ، الأَوْلَوِيَّةُ الكُبْرَى فِي الشَّرْعِ هِيَ لِحِفْظِ الجَمَاعَةِ وَلَوْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الإِضْرَارِ بِحَقِّ الأَفْرَادِ، حِفْظُ الجَمَاعَةِ وَبَقَاءُ الأُمَّةِ قَوِيَّةً وَلَوْ بِنَوْعٍ مِنَ التَّعَدِّي وَالظُّلْمِ مِنْ قِبَلِ الحُكَّامِ وَصَبْرُ الرَّعِيَّةِ عَلَى هَذَا الظُّلْمِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمُرَاعَاةً لِلْمَصْلَحَةِ العَظِيمَةِ الكَبِيرَةِ وَهِيَ أَلَّا يَنْفَرِطَ عِقْدُ الأُمَّةِ وَتَدْخُلَ فِي مَعْمَعَةِ قَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فَيَصْبِرُونَ عَلَى هَذَا، الحِفَاظُ عَلَى الجَمَاعَةِ أَوْلَوِيَّةٌ كَبِيرَةٌ كَمَا سَيَأْتِي وَلَوْ أَدَّى إِلَى تَحَمُّلِ الظُّلْمِ، وَلَوْ أَدَّى إِلَى شَيْءٍ مِنَ الصُّعُوبَاتِ فِي المَعِيشَةِ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ.

فَالأَوْلَوِيَّةُ الكُبْرَى هِيَ فِي هَذَا، وَإِلَّا فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ الحَجَّاجِ مِنْ أَشْجَعِ النَّاسِ وَهُمُ الَّذِينَ فَتَحُوا البُلْدَانَ، وَالوَاحِدُ مِنْهُمْ قَدْ قَاتَلَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَتَحَ البُلْدَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا الَّذِي صَبَّرَهُ وَهُوَ الشُّجَاعُ

المِقْدَامُ عَلَى ذَلِكَ الأَمِيرِ الظَّالِمِ؟ الَّذِي صَبَّرَهُ مُرَاعَاةُ أَمْرِ الجَمَاعَةِ وَالحِرْصُ عَلَى عَدَمِ انْفِرَاطِ العِقْدِ، وَلَمْ يَحْمِلْهُمْ عَلَى هَذَا الجُبْنُ وَالخَوَرُ وَالخَوْفُ؛ لِأَنَّ الوَاحِدَ مِنْهُمْ إِذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا الدَّرْبَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُمْكِنُ أَنْ تُزْهَقَ فِيهِ نَفْسُهُ فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي؛ وَلِهَذَا قَاتَلُوا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي تِلْكَ المَشَاهِدِ العِظَامِ مَعَ صُعُوبَةِ وَشِدَّةِ الخَصْمِ وَالقِرْنِ الَّذِي يُقَاتَلُ، وَثَبَتُوا حَتَّى نَصَرَهُمُ اللهُ.

وَالثَّبَاتُ فِي اليَرْمُوكِ وَفِي القَادِسِيَّةِ أَصْعَبُ بِكَثِيرٍ مِن الوُقُوفِ فِي وَجْهِ الحَجَّاجِ، إِذًا مَا الَّذِي صَبَّرَهُمْ وَصَبَّرَ التَّابِعِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؟ أَوْلَوِيَّةُ الحِفَاظِ عَلَى الجَمَاعَةِ، لِأَنَّ الحُكَّامَ المُسَلَّطِينَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَحْوَالِهِمْ كَمَا سَيَأْتِي فِي هَذَا البَابِ وَفِي أَحَادِيثَ أُخْرَى هُمْ مَوْجُودُونَ مُنْذُ عُهُودٍ قَدِيمَةٍ، وَقَدْ يَتَسَلَّطُونَ عَلَى النَّاسِ بِالبَاطِلِ.

فَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْعَوْا فِي الحِفَاظِ عَلَى بَيْضَةِ الجَمَاعَةِ وَوِحْدَتِهَا، لَا أَنْ يُقَابِلَ الخَطَأُ بِخَطَأٍ مِثْلِهِ؛ لِأَنَّ الحَاكِمَ إِذَا غَلِطَ وَقَابَلَتْهُ الرَّعِيَّةُ بِمِثْلِهَا انْفَرَطَ العِقْدُ مُبَاشَرَةً، أَمَّا إِذَا غَلِطَ الحَاكِمُ وَصَبَرَتِ الرَّعِيَّةُ عَلَى ظُلْمِهِ؛ وَلَيْسَ مَعْنَى صَبْرِهِمْ عَلَى ظُلْمِهِ أَلَّا يَنْصَحُوهُ وَأَلَّا يُبَيِّنُوا لَهُ وَجْهَ عَمَلِهِ، لَيْسَ هَذَا هُوَ المَعْنَى؛ بَلْ يَنْصَحُونَهُ وَيُخَوِّفُونَهُ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيُنَبِّهُونَهُ كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ يَدْخُلُونَ عَلَى الحَجَّاجِ، وَيَدْخُلُونَ عَلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الوُلَاةِ الظَّلَمَةِ فَيُحَدِّثُونَهُمْ بِأَحَادِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُطُورَةِ الظُّلْمِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلٌ الحَاكِمَ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، فَكَانُوا عَلَى هَذَا الحَالِ، لَكِنْ إِذَا سُلِّطُوا فَإِنَّ الرَّعِيَّةَ تَصْبِرُ حَتَّى لَا يَنْفَرِطَ العِقْدُ.

وَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ مَنْ لَا يَتَّقِي اللهَ مِنْ وَرَثَةِ المُعْتَزِلَةِ وَأَضْرَابِهِمْ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الأَحَادِيثَ تُعَزِّزُ فِي النَّاسِ الجُبْنَ وَالخَوَرَ؛ هَذِهِ مَقُولَةُ مَنْ لَا يَسْتَحِي وَلَا يَعْرِفُ حَقَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بَلْ وَلَا يَعْرِفُ مَا أَوْجَبَ اللهُ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَذِهِ الأُمُورِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَمَا جَاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُعَوِّدَ الأُمَّةَ عَلَى الخَوَرِ وَالجُبْنِ، فَهُوَ أَشْجَعُ النَّاسِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُعَوِّدِ الأُمَّةَ إِلَّا عَلَى أَكْرَمِ الخِصَالِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الأَحَادِيثَ الَّتِي لَمْ يَفْقَهْ مَا فِيهَا أُولَئِكَ السُّفَهَاءُ إِنَّمَا رَكَّزَتْ عَلَى حِفْظِ الجَمَاعَةِ، وَلَمْ تَعْنِ فِي أَيِّ لَفْظٍ مِنْ أَلْفَاظِهَا إِقْرَارَ الظُّلْمِ وَتَشْجِيعَ مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ الظُّلْمُ، حَاشَا للهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي أَمْرِ التَّعَامُلِ مَعَ هَؤُلَاءِ الحُكَّامِ بِأَنَّهُمْ إِذَا سُلِّطُوا وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّعَدِّي فَإِنَّ وَاجِبَ الرَّعِيَّةِ الَّذِي أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا حِيَالَ الحُكَّامِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفَرَّطَ فِيهِ، فَإِذَا فَرَّطَ الحَاكِمُ فَلَيْسَ لِلرَّعِيَّةِ أَنْ تُفَرِّطَ كَمَا يَعْرِضُ بَعْضُ النَّاسِ المِسْأَلَةَ هَكَذَا: إِنْ أَدَّى الَّذِي عِنْدَهُ إِنْ أَدَّى الَّذِي لَنَا عَلَيْهِ أَدَّيْنَا الَّذِي لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُؤَدِّهِ

قَابَلْنَاهُ بِمِثْلِهِ، مَا النَّتِيجَةُ؟ النَّتِيجَةُ أَنْ يَنْفَرِطَ العِقْدُ، فَيَأْتِي حَاكِمٌ مُسَلَّطٌ وَرَعِيَّةٌ سُفَهَاءُ، فِي النِّهَايَةِ يَنْفَرِطُ عِقْدُ الجَمَاعَةِ.

لَكِنْ إِذَا وُجِدَ حَاكِمٌ مُسَلَّطٌ وَصَبَرَتِ الرَّعِيَّةُ كَمَا أَمَرَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَجَّمَ الخِلَافُ وَتَحَجَّمَ الشَّرُّ، وَلِهَذَا كَانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ لِأَتْبَاعِ ابْنِ الأَشْعَرِيِّ: اصْبِرُوا حَتَّى يَحْدُثَ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ أَوْ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ. إِمَّا أَنْ يُصْلِحَ اللهُ الحَالَ وَيَسْتَرِيحَ البَرُّ مِنَ الرَّعِيَّةِ، أَوْ أَنْ يُسْتَرَاحَ مِنَ الفَاجِرِ الَّذِي يَتَسَلَّطُ عَلَى النَّاسِ لِأَنَّهُ لَنْ يَعِيشَ أَبَدًا، يَقُولُ: لَا تُوَاجِهُوا الغَلَطَ بِمِثْلِهِ، وَحَذَّرَهُمْ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ قِتَالِ الحَجَّاجِ وَدَخَلُوا فِي قِتَالٍ مَعَ الحَجَّاجِ فَأَبَادَهُمُ الحَجَّاجُ إِبَادَةً شَدِيدَةً، وَظَلَّ يَتَتَبَّعُهُمْ حَتَّى قَتَلَ مَجْمُوعَةً كَبِيرَةً مِنَ النَّاسِ، ثُمَّ زَادَ ظُلْمُ الحَجَّاجِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً؛ لِأَنَّ الحَجَّاجَ اسْتَأْسَدَ وَاشْتَدَّ أَكْثَرَ وَتَمَادَى ظُلْمُهُ أَكْثَرَ، وَهَذَا مَا حَرِصَتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنْ يُحَجَّمَ، فَإِنَّ الغَلَطَ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَوِ الغَلَطَ مِنَ الرَّاعِي لَا شَكَّ أَنَّهُ يُؤَثِّرُ عَلَى الجَمَاعَةِ.

وَلَمَّا كَانَ الغَلَطُ مِنَ الرَّاعِي يَكْثُرُ كَمَا أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَتْ هَذِهِ الأَحَادِيثُ تُوَجِّهُ الرَّعِيَّةَ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ أَغْلَاطِ الحُكَّامِ، فَإِنَّ أَغْلَاطَ الحُكَّامِ -كَمَا قُلْنَا- إِذَا قُوبِلَتْ بِأَغْلَاطٍ مُمَاثِلَةٍ انْفَرَطَ العِقْدُ، وَأَمَّا إِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الحُكَّامِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهَا وَنُصِحَ الحَاكِمُ وَحُذِّرَ بِاللهِ وَخُوِّفَ بِاللهِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ العِلْمِ وَذَكَّرُوهُ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ؛ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ مُعَلَّقُونَ بِالثُّرَيَّا وَأَنَّهُمْ لَمْ يَلُوا عَمَلًا**»[12]، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ وَسَتَكُونُ يَوْمَ القِيَامَةِ خِزْيًا وَنَدَامَةً؛ فَنِعْمَتِ المُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ**»[13]، وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا وَيُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولًا فَكَّهُ عَدْلُهُ، أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ.

فَإِذَا طُرِحَتْ هَذِهِ الأَحَادِيثُ عَلَى الحَاكِمِ المُسْلِمِ وَنُصِحَ النُّصْحَ اللَّائِقَ لَا نُصْحَ التَّهْيِيجِ، وَنُصْحَ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُجَيِّشَ الجُيُوشَ، فَيَشْعُرَ الحَاكِمُ بِالخَطَرِ، وَيَبْدَأَ فِي اسْتِخْدَامِ أَكْبَرَ مَا عِنْدَهُ مِنَ التَّسَلُّطِ، إِذَا نُصِحَ النُّصْحَ الشَّرْعِيَّ السَّلِيمَ، وَحُذِّرَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخُوِّفَ فَفِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ إِمَّا أَنْ يَزُولَ ظُلْمُهُ وَإِمَّا أَنْ يَخِفَّ.

(12) أخرجه أحمد في «مسنده» (521/2)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده حسن».

(13) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب ما يكره من الحرص على الإمارة (7148).

2-«حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنِ الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[14]، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[15].

بَعْدَ ذَلِكَ رَوَى حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا» لَيْسَ أَيَّ شَيْءٍ، إِنَّمَا شَيْئًا مَكْرُوهًا، وَلِهَذَا فِي اللَّفْظِ الآخَرِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»[16]، وَإِلَّا فَالوُلَاةُ يُرَى مِنْهُمُ الشَّيْءُ الحَسَنُ وَالشَّيْءُ السَّيِّئُ، الَّذِي لَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ فِيهِ الشَّيْءُ الَّذِي يُكْرَهُ، فَالشَّيْءُ الحَسَنُ إِذَا وَفُّوا لِلنَّاسِ وَأَدُّوا الأَمَانَاتِ وَاتَّقَوُا اللهَ فِي الرَّعِيَّةِ، مَا يُقَالُ لِلرَّعِيَّةِ: اصْبِرُوا، الرَّعِيَّةُ تَفْرَحُ بِهَذَا، وَلَكِنِ المَقْصُودُ إِذَا رُئِيَ مِنَ الحُكَّامِ شَيْءٌ يُكْرَهُ كَمَا فِي هَذَا الحَدِيثِ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ»[17] العَمَلُ نَفْسُهُ مَكْرُوهٌ، أَنْ يَظْلِمَ النَّاسَ، أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَى النَّاسِ، أَنْ يُفْشِيَ الْمُنْكَرَ، مَكْرُوهٌ مِنَ الحَاكِمِ وَمِنْ غَيْرِ الحَاكِمِ؛ لِأَنَّ مَعْصِيَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَبْغُوضَةٌ مُنْكَرَةٌ صَدَرَتْ مِنَ حَاكِمٍ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ.

«وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ» وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ»[18] مَعْصِيَةُ اللهِ كَمَا قُلْنَا مَكْرُوهَةٌ مَبْغُوضَةٌ سَوَاءٌ صَدَرَتْ مِنَ الحَاكِمِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ»، وَصَبْرُهُ مَاذَا يَقْتَضِي؟ يَقْتَضِي أَلَّا يَخْرُجَ؛ «فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ» أَيِ: الحَاكِمَ؛ أَيْ مَنْ خَرَجَ مِنْ طَاعَتِهِ «شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، الجَاهِلِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى الجَهْلِ، وَهِيَ الحَالَةُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَزَالَهَا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَذَا النُّورِ المُبِينِ حِينَ جَاءَ هَذَا الشَّرْعُ الكَرِيمُ، وَأَزَالَ اللهُ بِهِ لُجَجَ الجَاهِلِيَّةِ الجَهْلَاءِ، وَلَكِنْ تَبْقَى جُمْلَةٌ مِنَ الخِصَالِ وَالطَّرَائِقِ الجَاهِلِيَّةِ فِي النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾[19] فَالتَّبَرُّجُ مِنْ خِصَالِ

---

(14) عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي، الهاشمي، المكي، الأمير -رضي الله عنه. مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين. صحب النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من ثلاثين شهرًا، وحدث عنه بجملة صالحة. توفي سنة ثمان وستين، وله إحدى وسبعين سنةً. (سير أعلام النبلاء 5/330- 353).

(15) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها» (7053)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (1849).

(16) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب خيار الأئمة وشرارهم (1855).

(17) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب خيار الأئمة وشرارهم (1855).

(18) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب خيار الأئمة وشرارهم (1855).

(19) سورة الأحزاب: 33.

الجَاهِلِيَّةِ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[20] حَمِيَّةٌ بِالبَاطِلِ عَلَى غَيْرِ مَا دِينٍ وَصَوَابٍ مِنْ خِصَالِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، وَثَبَتَ فِي عَدَدٍ مِنَ النُّصُوصِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلْحَاقُهُ جُمْلَةً مِنَ الخِصَالِ بِأَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ بِالأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»[21] فَخِصَالُ الجَاهِلِيَّةِ تُوجَدُ.

وَقَدْ تُوجَدُ الخَصْلَةُ الجَاهِلِيَّةُ فِي الرَّجُلِ المؤْمِنِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ أَنَّهُ احْتَصَمَ مَعَ بِلَالٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ لِبِلَالٍ: يَا ابْنَ السَّوْدَاءِ. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[22]، فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ أَبَا ذَرٍّ[23] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَى هَذَا السِّنِّ مِنِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَطْعَمُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ»[24]، يَعْنِي: أُولَئِكَ المَمَالِيكَ، كَوْنُكَ تُعَيِّرُهُ بِكَوْنِ أُمِّهِ سَوْدَاءَ هَذِهِ فِيكَ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ.

([20]) سورة الفتح: 26.

(21) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز- باب التشديد في النياحة (934).

(22) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب ما ينهى عن السباب واللعن (6050)، ومسلم في كتاب الأيمان- باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (1661).

(23) أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري وقيل: جندب بن سكن. وقيل: برير بن جنادة. وقيل: برير بن عبد الله. وقيل: جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد بن حرام بن غفار - أخي ثعلبة - ابني مليل بن ضمرة أخي ليث والديل، أولاد بكر، أخي مرة، والد مدلج بن مرة، ابني عبد مناة بن كنانة. أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: كان خامس خمسة في الإسلام. ثم إنه رد إلى بلاد قومه، فأقام بها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك، فلما أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هاجر إليه أبو ذر -رضي الله عنه- ولازمه، وجاهد معه. وكان يفتي في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان. فاتته بدر، قاله: أبو داود. وقيل: كان آدم، ضخمًا، جسيمًا، كث اللحية. وكان رأسًا في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوالًا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، على حدة فيه. وقد شهد فتح بيت المقدس مع عمر، مات بالربذة سنة اثنتين وثلاثين. انظر: سير أعلام النبلاء (3/34-64).

(24) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها (30)، ومسلم في كتاب الأيمان- باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (1661).

وَالحَاصِلُ: أَنَّ مَا كَانَ أَيْضًا وَمِنْ خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ: حُكْمُ غَيْرِ الشَّرْعِ، فَتَحْكِيمُ غَيْرِ الشَّرْعِ جَاهِلِيَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[25]، فَالجَاهِلِيَّةُ العَامَّةُ قَدْ أَزَالَهَا اللهُ بِهَذَا الدِّينِ، وَقَدْ تُوجَدُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ فِي بِلَادٍ كَالبِلَادِ الغَرْبِيَّةِ وَنَحْوِهَا حَالُهُمْ حَالُ الجَاهِلِيَّةِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ تَمَدُّنٍ وَرُقِيٍّ، لَكِنْ لَا يُشَكُّ فِي أَنَّ أَمْرَهُمْ مَعَ رَبِّهِمْ أَمْرُ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ.

وَهَكَذَا تَكُونُ فِي بُلْدَانٍ وَتَكُونُ فِي أَوْقَاتٍ لَكِنْ لَا تَكُونُ عَامَّةً، مَا يُقَالُ: إِنَّ النَّاسَ الآنَ فِي الجَاهِلِيَّةِ. وَلَوْ كَثُرَتِ المُنْكَرَاتُ؛ لِأَنَّهُ بِحَمْدِ اللهِ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ، لَا يُقَالُ: إِنَّ الجَاهِلِيَّةَ عَادَتْ بِأَسْرِهَا إِلَّا فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَمَامًا إِذَا جَاءَتِ الرِّيحُ الَّتِي يَقْبِضُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا كُلَّ مُؤْمِنٍ وَكُلَّ مُسْلِمٍ وَبَقِيَ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَيَعْبُدُونَهَا، وَفِيهَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالُ فِي الأَرْضِ: اللهُ اللهُ**»[26]، يَنْقَطِعُ ذِكْرُ اللهِ تَمَامًا، فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ لَا إِشْكَالَ، لَكِنْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّا الآنَ فِي جَاهِلِيَّةٍ. مَا يَجُوزُ هَذَا، أَنْ يُعَمَّمَ عَلَى الأَرْضِ؛ لِأَنَّ السُّنَّةَ بِحَمْدِ اللهِ مَوْجُودَةٌ، وَالطَّائِفَةَ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْجُودَةٌ، لَكِنْ أَنْ يُوجَدَ هَذَا فِي بِقَاعٍ، أَنْ يُوجَدَ فِي أَزْمَانٍ، أَنْ يُوجَدَ فِي خِصَالٍ، يَكُونُ فِي المُؤْمِنِ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ لَكِنَّهُ مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ، وَلَوْ مَاتَ لَمَاتَ كَمَا يَمُوتُ المُسْلِمُونَ، لَكِنْ يُقَالُ: هَذِهِ الخَصْلَةُ فِيكَ مِنْ خِصَالِ الجَاهِلِيَّةِ. فَيَتَخَلَّصُ مِنْهَا.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ وَلَوْ خُرُوجًا يَسِيرًا حَتَّى قَالَ: «**شِبْرًا**»، الشِّبْرُ قَصِيرٌ جِدًّا، يَعْنِي: شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَمَنْ خَرَجَ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، هَذِهِ المِيتَةُ الجَاهِلِيَّةُ مَا المُرَادُ بِهَا؟

أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِمَامٌ وَحَاكِمٌ يُطِيعُونَهُ وَلَا يَعْرِفُونَ هَذَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَنْظِيمٌ أَصْلًا سِيَاسِيٌّ وَحُكْمٌ وَمَلِكٌ وَرِئَاسَةٌ وَخِلَافَةٌ وَسُلْطَانٌ، هَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَهُمْ بَتَاتًا، وَإِنَّمَا كَانُوا أَهْلَ فَوْضَى وَتَسَيُّبٍ، فَكَانُوا لَا يَعْرِفُونَ هَذَا بَتَاتًا، فَمَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، لِمَ؟ لِأَنَّهُ لَمْ يَصْبِرْ، فَالوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ وَأَلَّا يَحْمِلَهُ ظُلْمُ السُّلْطَانِ وَتَعَدِّيهِ لَا يَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ؛ لِأَنَّ الخُرُوجَ مُنْكَرٌ عَظِيمٌ، وَيُلْحِقُ العَبْدَ بِبِدْعَةٍ كَبِيرَةٍ هِيَ بِدْعَةُ الخَوَارِجِ؛ بَلْ يَصْبِرُ وَيُصْلِحُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا المُؤْمِنِ مَا اسْتَطَاعَ، المُؤْمِنُ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ فِي مُجْتَمَعِهِ، يُذَكِّرُ جَاهِلًا، يُذَكِّرُ نَاسًا، يُعَلِّمُ جَاهِلًا، يُنْكِرُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْكِرَهُ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَتَجِدُ لَهُ أَثَرًا وَفَائِدَةً، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ جَيِّدًا فَانْظُرْ فِي

([25]) سورة المائدة: 50.

(26) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب هاب الإيمان آخر الزمان (148).

وَفَاةِ بَعْضِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي بُلْدَانِهِمْ تَجِدُ أَنَّ ثَمَّةَ فَرَاغًا كَبِيرًا بَعْدَهُمْ، لِمَ؟ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَلِّمُونَ الجُهَّالَ، يُذَكِّرونَ الغَافِلِينَ، يُنْكِرُونَ مَا أَمْكَنَهُمْ إِنْكَارُهُ، يَرُدُّونَ الشُّبُهَاتِ، يَنْشُرُونَ العِلْمَ وَالسُّنَّةَ.

وَهَذَا المرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[27]؛ فَقَدْ رَوَى الطَّبَرِيُّ عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ كَانَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ مَشْيَخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرَادَ أَنْ يُطَبِّقَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى الوَضْعِ الَّذِي كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الزَّاهِرِ، يَقُولُ: «فَأَقْبَلُوا كُلُّهُمْ عَلَيَّ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ»[28] يَعْنِي: أَنَّهُمْ وَجَّهُوا جَمِيعًا الكَلَامَ وَالعَتَبَ إِلَيْهِ: «تَعْمِدُ إِلَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ لَا تَدْرِي فِيمَ نَزَلَتْ؟!» فَيَقُولُ: «فَتَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ تَكَلَّمْتُ». فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا -أَنْ يَقُومُوا- قَالُوا: إِنَّكَ شَابٌّ حَدِيثُ السِّنِّ، وَإِنَّكَ عَمِدْتَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَا تَدْرِي فِيمَ نَزَلَتْ، وَإِنَّ المرَادَ بِهَذِهِ الآيَةِ: مُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَدُنْيًا مُؤْثَرَةً، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَإِيثَارَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ لِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ»[29] يَعْنِي: فِي الحَالِ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بَتَاتًا مِنَ الذِّكرِ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[30] مَا دَامَتِ الذِّكْرَى تَنْفَعُ فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَلْزَمَ النَّاسَ.

وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[31]؛ إِذِ المؤْمِنُ وَطَالِبُ العِلْمِ يَنْفَعُ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ الخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ مِنَ المنْكَرَاتِ العِظَامِ الَّتِي تُلْحِقُ الخَارِجَ بِهَذِهِ البِدْعَةِ العَظِيمَةِ -بِدْعَةِ الخَوَارِجِ-، فَمَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا الحَالِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، فَلْيَصْبِرْ وَلْيَسْتَعِنْ بِاللهِ تَعَالَى فِي صَبْرِهِ عَلَى مَا قَدْ يَرِدُهُ هُوَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ، وَلْيَسْتَعِنْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي نَشْرِ الخَيْرِ وَتَعْمِيمِهِ لِلنَّاسِ حَتَّى يَنْفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ وَيَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَهُوَ عَلَى هَذَا الحَالِ.

([27]) سورة المائدة: 105.

(28) أخرجه الطبري في «تفسيره» (142/11).

(29) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم- باب الأمر والنهي (4341)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن- باب ومن سورة المائدة (3058)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم} (4014)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (2344)، وقال: «ضعيف».

([30]) سورة الأعلى: 9.

([31]) أخرجه أحمد في «مسنده» (43/2)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب الصبر على البلاء (4032)، والبخاري في «الأدب المفرد» (388)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (89/10)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (614).

(3) «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ»»

«حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، ح وَحَدَّثَنِي مَحْمُودٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ[32] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنِّي لَأَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ الْقَطْرِ»[33].

هَذَا الحَدِيثُ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشْرَفَ؛ أَيِ: اطَّلَعَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ، وَالأُطُمُ المُرَادُ بِهِ الحِصْنُ، فَسَأَلَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟» مِمَّا يُشَاهِدُهُ حَقًّا وَفِعْلًا، قَالُوا: لَا. وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ يُرِيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أُمُورًا لَا يَرَاهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ؛ فَكَانَ مِمَّا ثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَرَى المُصَلِّينَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» وَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِنَّمَا يَرَى مِنْ أَمَامِهِ، أَمَّا هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ مِمَّا جَعَلَ اللهُ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي اخْتُصَّ بِهَا أَنْ يَرَاهُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -كَمَا فِي البُخَارِيِّ- قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ» فَقُلْتُ: عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا نَرَى يَا رَسُولَ اللهِ[34]! فَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاسُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَإِنِّي لَأَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ القَطْرِ».

مَا صِلَةُ الحَدِيثِ بِالبَابِ؟

---

(32) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرئ القيس المولى، الأمير الكبير. حب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومولاه، وابن مولاه، أبو زيد، ويقال: أبو محمد، ويقال: أبو حارثة، وقيل: أبو يزيد. استعمله النبي -صلى الله عليه وسلم- على جيش لغزو الشام، وفي الجيش عمر والكبار، فلم يسر حتى توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبادر الصديق ببعثهم. قيل: إنه شهد يوم مؤتة مع والده، وقد سكن المزة مدة؛ ثم رجع إلى المدينة، فمات بها - وقيل: مات بوادي القرى- سنة أربع وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: 46 – ترجمة 12)، وأسد الغابة (1/ 194 – ترجمة 84).

(33) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ**» (7060)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب نزول الفتن كمواقع القطر (2885)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(34) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب فضل عائشة رضي الله عنه (3768)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- في فضل عائشة رضي الله عنها (2447).

لَهُ ارْتِبَاطٌ بِقَوْلِهِ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ»؛ لِأَنَّ الكَلَامَ مُوَجَّهٌ لِلصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: «كَوَقْعِ القَطْرِ» المُرَادُ بِالقَطْرِ المطَرُ، وَالمطَرُ إِذَا نَزَلَ يَتَمَيَّزُ بِالعُمُومِ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ يَتَمَيَّزُ بِأَنَّهُ عَامٌّ.

لِمَ خُصَّتِ المدِينَةُ بِذَلِكَ؟

لِأَنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ –تِلْكَ الجَرِيمَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي المدِينَةِ– انْتَشَرَ مِنْ آثَارِهَا فِتَنٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا، فَبَعْدَ قَتْلِهِ عَلَيْهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَى تِلْكَ الهَيْئَةِ البَغِيضَةِ مِنْ قِبَلِ أَوْبَاشِ النَّاسِ دَخَلَ النَّاسُ فِي خِلَافٍ عَظِيمٍ جِدًّا، وَتَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ قِتَالٍ؛ فَوَقَعَتْ مَوْقِعَةُ الجَمَلِ وَمَوْقِعَةُ صِفِّينَ فِي إِثْرِ ذَلِكَ.

وَمِنْ آثَارٍ أَيْضًا مَا وَقَعَ فِي صِفِّينَ: خَرَجَ الخَوَارِجُ، فَكَثُرَتِ الفِتَنُ وَتَوَلَّدَتْ، وَكَانَ بِدَايَةُ الإِشْكَالِ فِي قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَقُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالصِّيغَةِ وَبِالهَيْئَةِ الَّتِي كَانَتْ لَا يُشَكُّ فِي أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ وَأَفْدَحِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ جُمْلَةً مِنَ الأَوْبَاشِ نَقِمُوا عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أُمُورًا، أَتَوْا إِلَى المدِينَةِ مَرَّتَيْنِ اثْنَتَيْنِ:

فِي المرَّةِ الأُولَى أَتَوْا إِلَى المدِينَةِ وَأَظْهَرُوا أَنَّهُمْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ يَشْتَكُونَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، كَمَا كَانَ النَّاسُ فِي زَمَنِ عُمَرَ يَشْتَكُونَ الوُلَاةَ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَعُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَاقَشَهُمْ وَوَعَدَهُمْ بِأَنْ يُزِيلَ المظَالِمَ الَّتِي يَدَّعُونَهَا، وَتَفَحَّصَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَتَأَكَّدَ مِنْهُ بِنَفْسِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا قَتْلَهُ، بَعْدَ أَنْ رَجَعَ أَهْلُ الكُوفَةِ وَأَهْلُ البَصْرَةِ مِنْ طَرِيقٍ وَرَجَعَ أَهْلُ مِصْرَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ الْتَفُّوا مَرَّةً أُخْرَى وَرَجَعُوا جَمِيعًا إِلَى المدِينَةِ، وَفِي هَذِهِ المرَّةِ طَوَّقُوا بَيْتَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَادَّعُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى وُلَاتِهِمْ بِقَتْلِهِمْ، فَأَجَابَهُمْ بِالجَوَابِ الشَّرْعِيِّ أَنَّ لَهُمْ عَلَيْهِ اليَمِينَ بِاللهِ أَنَّهُ مَا كَتَبَ وَلَا عَلِمَ، قَالُوا: أَنْتَ صَادِقٌ، لَكِنَّ الَّذِي كَتَبَ هُوَ مَرْوَانُ بْنُ الحَكَمِ عِنْدَكَ، سَلِّمْ لَنَا مَرْوَانَ. قَالَ: وَلَا أُسَلِّمُ مَرْوَانَ.

الأُمُورُ لَيْسَتْ فَوْضَى، يُسَلِّمُ لَهُمْ مَرْوَانَ حَتَّى يَقْتُلُوهُ بِحُكْمِ الكَثْرَةِ، قَالَ: «وَلَا أُسَلِّمُ مَرْوَانَ». فَطَوَّقُوهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَلْجَئُوهُ فِي بَيْتِهِ إِلَى أَنْ شَرِبَ مِنْ بِئْرٍ فِيهَا –فِي البَيْتِ– قَدْ تَغَيَّرَ مَاؤُهَا، ثُمَّ إِنَّهُ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ وَذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ

فَضَائِلِ عُثْمَانَ، وَاحْتَاجَ أَنْ يُبَيِّنَ هَذِهِ الفَضَائِلَ، وَإِلَّا الأَصْلُ أَنَّ المَرْءَ لَا يَمْدَحُ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ احْتَاجَ لِيُبَيِّنَ لِهَؤُلَاءِ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَحَتَّى يَعْلَمُوا مَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ، وَكَانَ مِمَّا قَالَ لَهُمْ: «تَمْنَعُونِي مِنْ بِئْرٍ» وَهِيَ بِئْرُ رُومَةَ، بِئْرُ رُومَةَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا: «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ وَلَهُ الجَنَّةُ»، فَاشْتَرَاهَا عُثْمَانُ وَوَقَفَهَا عَلَى المُسْلِمِينَ دَلْوُهُ كَدِلَائِهِمْ[35]، يَعْنِي: أَنَّهَا وَقْفٌ عَامٌّ، لَا يَأْتِي يَقُولُ: هَذِهِ بِئْرِي، هَذِهِ بِئْرِي. دَلْوُهُ كَدَلْوِ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ أَوْقَفَهَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ مَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي شَأْنِهِ، لِأَنَّهُمْ قَدْ يَجْهَلُونَ قَدْرَهُ عَلَيْهِ رضوانُ اللهِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ عَلَيْهِ رضوانُ اللهِ، فَأَبَى هُوَ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ أَيُّ أَحَدٍ، وَقَالَ: «مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلْيَخْرُجْ مِنَ البَيْتِ». وَقَالَ: «وَاللهِ لَا تُرَاقُ فِيَّ مِحْجَمَةُ دَمٍ». يَعْنِي: لِأَجْلِي. وَأَصَرَّ عَلَى أَلَّا يُدَافِعَ عَنْهُ أَحَدٌ.

فَطَلَبُوا مِنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ أَنْ يَنْزِلَ عَنِ الخِلَافَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَخْبَرَهُ بِالحَدِيثِ الَّذِي تَقَدَّمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «يَا عُثْمَانُ! إِنَّ اللهَ قَمَّصَكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ المُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ»[36]، فَسَمَّاهُمْ بِالمُنَافِقِينَ؛ يَعْنِي: الخِلَافَةَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَيْضًا ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا بِأَلَّا يَتَنَازَلَ، وَقَالَ لَهُ: «لَا تَجْعَلْ فِينَا سُنَّةَ فَارِسَ وَالرُّومِ». يَعْنِي: أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُغَيِّرُوا حَاكِمًا ضَغَطُوا عَلَيْهِ ثُمَّ تَنَازَلَ حَتَّى يُعَيَّنَ آخَرُ.

وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ طَرِيقَةٌ قَدِيمَةٌ عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمِينَ، وَهِيَ الَّتِي قُلْنَا فِي الأَمْسِ لَمَّا أَجَبْنَا عَنِ السُّؤَالِ عَنِ المُظَاهَرَاتِ: إِنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ عِنْدَ القَوْمِ بِمَا يُسَمَّى بِحُكْمِ الشَّعْبِ: أَنَّ الشَّعْبَ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِإِعَادَةِ مَا يُسَمَّى بِالدُّسْتُورِ وَالعَمَلِ بِهِ إِذَا خُولِفَ بِقُوَّةِ الجَمَاهِيرِ.

فَقَالَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: «وَلَا أَتَنَازَلُ أَيْضًا عَنِ الخِلَافَةِ». وَأَمَرَ مَنْ حَوْلَهُ -وَكَانَ الأَنْصَارُ قَدِ اجْتَمَعُوا وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَالحَسَنُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ وَعَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُرِيدُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْهُ- وَعَلِمَ أَنَّهُ مَقْتُولٌ وَلَا مَحَالَةَ، لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ رَجَّحَ أَنَّهُ بَدَلًا مِنْ أَنْ يُقْتَلَ هُوَ وَيُقْتَلَ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يُقْتَلَ وَحْدَهُ، هَذَا أَخَفُّ ضَرَرًا؛ حَتَّى يَبْقَى فِي النَّاسِ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَلِيَ الخِلَافَةَ،

(35) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب- باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (3703)، والنسائي في كتاب الأحباس- باب وقف المساجد (3607)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(36) أخرجه أحمد في «مسنده» (6/144، 149)، والترمذي في كتاب المناقب- باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (3705)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب فضل عثمان (112).

كَمَا حَصَلَ بِالفِعْلِ حِينَ وَلِيَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

حَاصَرُوهُ حَتَّى قَتَلُوهُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قِتْلَةً فِي غَايَةِ الشَّنَاعَةِ وَالسُّوءِ، وَقَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ سَنَةً، رَجُلٌ مُسِنٌّ كَبِيرٌ عَلَيْهِ رضوانُ اللهِ، وَفِي المَدِينَةِ الَّتِي هِيَ حَرَمٌ، وَهُوَ زَوْجُ اثْنَتَيْنِ مِنْ بَنَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمَّا مَاتَتِ الثَّانِيَةُ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ: «**لَوْ كَانَ عِنْدَنَا ثَالِثَةٌ لَزَوَّجْنَاهَا عُثْمَانَ**»[37]، فَلَمَّا قُتِلَ عَلَى هَذِهِ الهَيْئَةِ البَغِيضَةِ غَضِبَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ سَوَاءٌ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ القَتْلَ عَلَى هَذِهِ الهَيْئَةِ أَنَّهُ يُوجِبُ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يُقْتَلَ قَتَلَةُ عُثْمَانَ.

عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى وَالأُمُورُ عَلَى غَايَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الِاضْطِرَابِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَوَلَّى احْتِسَابًا للهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَوْلَا خَوْفُهُ عَلَى الأُمَّةِ لَمَا تَوَلَّى، وَلَكِنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلَيْهِ أَصَرَّ عَلَيْهِ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اسْتَقَرَّتِ الخِلَافَةُ فِيهِ وَفِي عُثْمَانَ، ثُمَّ رُجِّحَ عُثْمَانُ فَبَقِيَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ جَمِيعًا، فَانْعَقَدَتِ البَيْعَةُ وَلَا شَكَّ لِعَلِيٍّ، فَجَاءَ إِشْكَالُ قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَكَانَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَرَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَلَ قَتَلَةُ عُثْمَانَ حَتَّى تَسْتَتِبَّ الأُمُورُ؛ لِأَنَّهُمْ كَثْرَةٌ وَانْتَشَرُوا فِي البُلْدَانِ، وَعَادَ بَعْضُهُمْ وَدَخَلَ فِي قَبِيلَتِهِ، فَلَيْسَ مِنَ السُّهُولَةِ أَنْ يُقْبَضَ عَلَيْهِ، وَرَأَى آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ضَرُورَةَ البَدْءِ فِي قَتْلِ القَتَلَةِ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ، فَنَشَأَتْ مِنْ هُنَا مَسْأَلَةُ الخِلَافِ الَّتِي تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مَوْقِعَةُ الجَمَلِ ثُمَّ مَوْقِعَةُ صِفِّينَ.

مُبْتَدَأُ الإِشْكَالَاتِ كَانَتْ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ فَلِهَذَا وَرَدَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ –وَأَظُنُّهُ حُذَيْفَةَ أَوْ غَيْرَهُ– أَنَّهُ كَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: «مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أُخَلَّفُ حَتَّى يُقْتَلَ عُثْمَانُ». يَعْنِي: أَنَّ الأُمُورَ تَتَغَيَّرُ إِلَى هَذَا الحَدِّ، وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ كَمَا فِي البُخَارِيِّ: «**وَلَوْ أَنَّ أُحُدًا انْقَضَّ لِمَا صَنَعْتُمْ بِعُثْمَانَ لَكَانَ مَحْقُوقًا أَنْ يَنْقَضَّ**»[38]، لَوْ أَنَّ جَبَلَ أُحُدٍ انْهَدَّ بِأَسْرِهِ لَكَانَ أَمْرًا فِي مَحَلِّهِ مِنْ شَنَاعَةِ مَا فُعِلَ بِعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَبِدَايَةُ الإِشْكَالَاتِ كَانَتْ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ اللهِ، فَنَشَأَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا نَشَأَ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي لَأَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ القَطْرِ**»[39]، فَكَانَتْ بِدَايَتُهَا فِي المَدِينَةِ، ثُمَّ انْتَشَرَتْ وَوَصَلَتْ أَمَاكِنَ كَثِيرَةً؛ حَتَّى وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قِتَالٍ فِي

(37) ذكره ابن تيمية في كتاب «منهاج السنة النبوية» (146/4).

(38) أخرجه البخاري في كتاب المناقب– باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3867).

(39) سبق تخريجه.

أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ وَقُتِلَ فِيهِ مَنْ قُتِلَ مِنَ المسْلِمِينَ مِمَّا سَيَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى الحَدِيثُ عَنْهُ فِي حَدِيثٍ فِي هَذَا الكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

(4) «بَابُ ظُهُورِ الفِتَنِ»

«حَدَّثَنَا عَيَّاشُ بْنُ الْوَلِيدِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[40]، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّمَا هُوَ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ. وَقَالَ شُعَيْبٌ وَيُونُسُ وَاللَّيْثُ وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ: عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[41].

هَذَا البَابُ فِي ظُهُورِ الفِتَنِ، وَاللَّفْظُ المطَابِقُ لَهُ هُوَ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَتَظْهَرُ الفِتَنُ»، ذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الحَدِيثِ خَمْسَةَ أُمُورٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِحَاجَةٍ إِلَى تَوْضِيحٍ.

مِنْهَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ». مَا المرَادُ بِتَقَارُبِ الزَّمَانِ؟

مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ المرَادَ بِتَقَارُبِ الزَّمَانِ قِلَّةُ البَرَكَةِ فِيهِ. وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ؛ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالجُمُعَةِ، وَالجُمُعَةُ كَاليَوْمِ»[42]؛ يَعْنِي: مِنْ قِلَّةِ بَرَكَةِ الأَيَّامِ.

قَوْلٌ آخَرُ: أَنَّ المرَادَ تَقَارُبُ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِقِلَّةِ الدِّينِ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ يَأْمُرُ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا تَسَاوَى النَّاسُ وَصَارُوا عَلَى هَذَا الحَالِ الوَاحِدِ مِنْ عَدَمِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَذَلِكَ مِنْ تَقَارُبِ الزَّمَانِ بِتَقَارُبِ حَالِ أَهْلِهِ مِنْ حَيْثُ الفَسَادِ؛ إِذْ تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

شَيْخُنَا الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ مِمَّا يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِقَوْلِهِ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ» أَنْ يُرَادَ: الآلَاتُ الَّتِي قَرَّبَتِ الزَّمَانَ

([40]) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة 7 هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه 5374 حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة 59هـ. (تهذيب الكمال: 366/34).

(41) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ظهور الفتن (7061)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (157).

(42) أخرجه أحمد في «مسنده» (454/6)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب».

بِالوَسَائِلِ وَالمَوَاصَلَاتِ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ الآنَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الوَسَائِلَ قَرَّبَتْ بِحَمْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الزَّمَانِ، فَالحَجُّ الَّذِي كَانَ الإِنْسَانُ فِي هَذِهِ البِلَادِ يَسْتَغْرِقُ فِيهِ نَحْوًا مِنْ شَهْرٍ وَنِصْفٍ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَكَّةَ صَارَ يَصِلُ إِلَى مَكَّةَ فِي يَوْمِهِ، وَقَدْ يَأْخُذُ العُمْرَةَ فِي الضُّحَى وَيَعُودُ بَعْدَ الظُّهْرِ؛ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ هَذَا، وَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ يُرَجِّحُ هَذَا، وَبِالتَّالِي يَكُونُ هَذَا مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى هَذِهِ الآلَاتِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ إِشَارَاتٍ قَدْ تُحْمَلُ عَلَى مَا يَقَعُ فِي إِثْرِ هَذِهِ الأَزْمِنَةِ، وَيَكُونُ الحَدِيثُ فِي هَذِهِ الحَالِ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَحَتَّى بِالتَّفْسِيرِ السَّابِقِ مِنْ جِهَةِ قِلَّةِ البَرَكَةِ أَوْ تَقَارُبِ أَهْلِ الزَّمَانِ فِي الفَسَادِ، بِحَيْثُ لَا يُؤْمَرُ بِالمَعْرُوفِ وَلَا يُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَدْخُلُ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ؛ لِأَنَّ فِيهِ خَبَرًا عَنْ أَمْرٍ غَيْبِيٍّ لَمْ يَقَعْ فَوَقَعَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، فَهَذِهِ هِيَ التَّفْسِيرَاتُ، وَفِيهَا تَفَاسِيرُ أُخْرَى أَيْضًا فِي المُرَادِ بِقَوْلِهِ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ**».

ثُمَّ قَالَ: «**وَيَنْقُصُ العِلْمُ**»[43]، فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «**وَيَنْقُصُ العَمَلُ**»[44]، وَهِيَ مُحْتَمِلَةٌ، فَيَكُونُ نَقْصُ العَمَلِ عَلَى رِوَايَةِ: «**وَيَنْقُصُ العَمَلُ**» مِنْ آثَارِ نَقْصِ الدِّينِ، نَقْصُ عَمَلِ النَّاسِ بِسَبَبِ نَقْصِ تَدَيُّنِهِمْ؛ إِذِ العَمَلُ مِنَ الإِيمَانِ، فَإِذَا نَقَصَ العَمَلُ نَقَصَ الإِيمَانُ كَمَا لَا يَخْفَى، فَأَخْبَرَ أَنَّ العَمَلَ سَيَنْقُصُ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ كَمَا قُلْنَا: «**وَيَنْقُصُ العِلْمُ**» وَسَيَأْتِي عَلَيْهَا الكَلَامُ إِنْ شَاءَ اللهُ فِي الحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَهُ.

قَالَ: «**وَيُلْقَى الشُّحُّ**»[45]؛ وَالشُّحُّ هُوَ أَشَدُّ البُخْلِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَعَمُّ مِنَ البُخْلِ؛ لِأَنَّ البُخْلَ هُوَ البُخْلُ بِالمَالِ، أَمَّا الشُّحُّ فَهُوَ البُخْلُ بِالمَالِ وَبِالمَعْرُوفِ حَتَّى.

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَتَظْهَرُ الفِتَنُ**»؛ وَهَذَا هُوَ المُطَابِقُ لِلَفْظِ التَّرْجَمَةِ: «بَابُ ظُهُورِ الفِتَنِ»، أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ: «**وَتَظْهَرُ الفِتَنُ**».

ثُمَّ قَالَ: «**وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**». فَسَأَلُوهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّمَا هُوَ؟ يَعْنِي: مَا الهَرْجُ؟ كَمَا فِي الرِّوَايَاتِ الأُخْرَى؛ لَمَّا قَالَ: «**يَكْثُرُ الهَرْجُ**». قَالُوا: مَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**القَتْلُ القَتْلُ**»، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(43) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (157).

(44) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ظهور الفتن (7061).

(45) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ظهور الفتن (7061)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (157).

هَذِهِ الأُمُورُ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ المرَادَ لَيْسَ أَصْلُ وُقُوعِهَا، وَلَكِنَّ المرَادَ أَنَّهَا تَشْتَدُّ وَتَكْثُرُ وَتَنْتَشِرُ، أَمَّا مُجَرَّدُ وُجُودِ القَتْلِ فَهُوَ مَوْجُودٌ قَدِيمًا، وَلَكِنَّ المقْصُودَ أَنْ يَكْثُرَ القَتْلُ كَثْرَةً شَدِيدَةً، وَهَكَذَا قَوْلُهُ: «**وَيُلْقَى الشُّحُّ**» لَيْسَ المقْصُودُ مُجَرَّدَ وُجُودِ الشُّحِّ، وَإِنَّمَا المقْصُودُ أَنْ يَنْتَشِرَ – عِيَاذًا بِاللهِ– الشُّحُّ وَيَكُونَ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ، وَهَكَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِنَقْصِ العَمَلِ أَوْ نَقْصِ العِلْمِ عَلَى الرِّوَايَةِ الأُخْرَى.

وَقَوْلُهُ: «**وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**» سَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَى المرَادِ بِالهَرْجِ عِنْدَ اللَّفْظَةِ الأُخْرَى مِنَ الحَدِيثِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فِيهَا بَيَانُ كَثْرَةِ القَتْلِ، وَهَذَا مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي القَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**»[46]؛ المقْتُولُ لَا يَدْرِي مَا الذَّنْبُ الَّذِي ارْتَكَبَهُ حَتَّى يُقْتَلَ، وَالقَاتِلُ لَيْسَ عِنْدَهُ وَجْهٌ مُبَرَّرٌ لِيَقْتُلَ، لَكِنْ لِشِدَّةِ انْتِشَارِ القَتْلِ صَارَ النَّاسُ يَقْتُلُونَ بِدُونِ وَجْهٍ وَاضِحٍ، لَا يَدْرُونَ لِمَاذَا يَقْتُلُونَ، وَالمقْتُولُ أَيْضًا هَذَا المظْلُومُ لَا يَدْرِي بِالجُرْمِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ وَالَّذِي بِنَاءً عَلَيْهِ قُتِلَ.

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ هَذَا الهَرْجَ الَّذِي يَكْثُرُ المرَادُ بِهِ «**القَتْلُ القَتْلُ**»، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الفِتَنِ؛ فَكَثْرَةُ القَتْلِ، وَإِلْقَاءُ الشُّحِّ، وَنَقْصُ العَمَلِ، وَتَقَارُبُ الزَّمَانِ –هَذِهِ كُلُّهَا كَمَا سَيَأْتِي وَغَيْرُهَا– هَذِهِ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَهَذِهِ مِنَ الفِتَنِ –عِيَاذًا بِاللهِ– الَّتِي مِنْهَا مَا هُوَ وَاقِعٌ وَيَرَاهُ النَّاسُ الآنَ، وَمِنْهَا مَا هُوَ قَدِيمٌ فِي النَّاسِ قَبْلَنَا، وَمِنْهَا مَا سَيَقَعُ سَوَاءٌ مِنْ هَذِهِ الدَّلَائِلِ أَوْ مِنْ غَيْرِهَا، وَتَارَةً يَشْتَدُّ وَتَارَةً يَقِلُّ بِحَسَبِ المَوَاضِعِ، فَفِي بَعْضِ المَوَاضِعِ وَالبُلْدَانِ يَجْعَلُ اللهُ فِيهَا اسْتِتْبَابًا لِلْأَمْنِ؛ خَاصَّةً إِذَا طُبِّقَ الشَّرْعُ؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ فِيهِ أَمَانٌ لِلنَّاسِ، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يُطَبَّقِ الشَّرْعُ فَالغَالِبُ أَنَّ الأُمُورَ تَكُونُ فَوْضَى، أَوْ سَتَصِيرُ إِلَى فَوْضَى، إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي وَقْتِهِمُ المعَاصِرِ لَهُمْ فَوْضَى، فَمَا أَسْهَلَ مِنْ أَنْ تَنْفَرِطَ وَتَكُونَ فَوْضَى! وَلَا يَحْمِي لِلنَّاسِ دِينَهُمْ وَأَمْنَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ شَيْءٌ كَتَطْبِيقِ الشَّرْعِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ كُلَّهَا مِنَ العَلَامَاتِ الَّتِي تَقَعُ وَأَخْبَرَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَقْصُودُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّحْذِيرُ مِنْهَا، وَقُلْنَا أَيْضًا: إِنَّ المرَادَ بِهَا كَثْرَتُهَا وَشِدَّتُهَا، وَلَيْسَ المرَادُ أَصْلَ وُجُودِهَا. فَالشُّحُّ قَدْ يَكُونُ فِي المتَقَدِّمِينَ بَعْضُ مَنْ يَكُونُ شَحِيحًا، وَلَكِنَّ المقْصُودَ أَنْ يَنْتَشِرَ –عِيَاذًا بِاللهِ–، وَهَكَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالقَتْلِ، القَتْلُ وُجِدَ، حَتَّى فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُنَاكَ مَنْ قَتَلَ، وَبَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ هُنَاكَ مَنْ يُقْتَلُ، لَكِنَّ المقْصُودَ أَنْ يَنْتَشِرَ وَيَشْتَدَّ القَتْلُ.

(46) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة– باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل... (2908).

(5) «بَابٌ: لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ[47] فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ الْحَجَّاجِ. فَقَالَ: اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[48].

بَوَّبَ هَذَا البَابَ عَلَى لَفْظِ الحَدِيثِ: «بَابُ: لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ».

فَالَّذِي يَشْتَكِي مِنْ حَالٍ يُقَالُ لَهُ: الحَالُ المُقْبِلُ فِي العُمُومِ الأَغْلَبِ أَشَدُّ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ تَقَدُّمَ الزَّمَانِ يُقَرِّبُ مِنْ نِهَايَةِ الدُّنْيَا، وَقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَكَثْرَةِ الفِتَنِ، وَكَثْرَةِ الِاخْتِلَافِ، فَالزَّمَانُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ النَّاسُ عَلَى حَالٍ يَشْتَكُونَ مِنْ أَوْضَاعٍ مُعَيَّنَةٍ؛ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ الأَزْمِنَةُ الَّتِي بَعْدَهُ يَكُونُ الحَالُ فِيهَا أَسْوَأَ، هَذَا مِنْ حَيْثُ العُمُومِ وَالأَغْلَبِ.

فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَتَاهُ بَعْضُ أَهْلِ البَصْرَةِ أَوْ غَيْرُهُمْ أَوْ غَيْرُهُمْ وَشَكَوْا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الحَجَّاجِ المُسَلَّطِ، الحَاكِمُ الظَّالِمُ، الأَمِيرُ الظَّالِمُ الَّذِي تَسَلَّطَ عَلَى النَّاسِ كَمَا تَقَدَّمَ، يَتَأَمَّلُ طَالِبُ العِلْمِ فِي اللَّفْظِ هُنَا، يَقُولُ الزُّبَيْرُ بْنُ عَدِيٍّ: «أَتَيْنَا» بِصِيغَةِ «نَا الفَاعِلِينَ» المُتَحَدِّثُ، يَقُولُ: «أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ»، لِمَ لَمْ يَقُلْ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى؟ هَذَا يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ الْتِفَاتًا، الِالْتِفَاتُ مُهِمٌّ جِدًّا أَنْ يَعْرِفَهُ طَالِبُ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يُفْهِمُهُ بَعْضَ النُّصُوصِ، هَذِهِ الجُمْلَةُ الآنَ «أَتَيْنَا»، ذَكَرَ هَذِهِ الجُمْلَةَ بِصِيغَةِ المُتَكَلِّمِ «نَا الفَاعِلِينَ»، «أَتَيْنَا». ثُمَّ قَالَ بِصِيغَةِ الغَائِبِ: «مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الحَجَّاجِ»، هَذَا يُسَمَّى الْتِفَاتًا، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْبِيرِ العَرَبِيِّ، وَهُوَ مُسْتَخْدَمٌ فِي القُرْآنِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ، مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾[49] مَا الَّذِي تَغَيَّرَ الآنَ؟ أَوَّلُ الآيَةِ فِيهَا صِيغَةُ المُخَاطَبِ ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ**﴾ أَنْتُمْ، ﴿**حَتَّى إِذَا كُنتُمْ**﴾ أَنْتُمْ، ﴿**فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم**﴾ مَا قَالَ: (وَجَرَيْنَ بِكُمْ). فَالْتَفَتَ مِنْ صِيغَةِ المُخَاطَبِ إِلَى صِيغَةِ مَاذَا؟ إِلَى صِيغَةِ الغَائِبِ، هَذِهِ مُفِيدَةٌ لِطَالِبِ العِلْمِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النُّصُوصِ فِيهَا الِالْتِفَاتُ، فَالِالْتِفَاتُ هُوَ تَغْيِيرٌ فِي الأُسْلُوبِ مِنْ مَثَلًا المُتَكَلِّمِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى صِيغَةِ

(47) هو: الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة، الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته من النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتًا، وروى عنه علمًا جمًّا، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة، دعا له النبي بالبركة، فرأى من ولَده وولَدِ ولَدِه نحوًا من مئة نَفْسٍ. مات سنة إحدى وتسعين. انظر: الاستيعاب (ص53 ترجمة 43)، والإصابة (126/1 ترجمة 277).

(48) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (7068)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(49) سورة يونس: 22.

الغَيْبَةِ، أَوْ مِنَ المخَاطَبِ الَّذِي يُخَاطَبُ إِلَى صِيغَةِ الغَيْبَةِ، فَإِذَا عَرَفَ طَالِبُ العِلْمِ أَمْرَ الِالْتِفَاتِ فِي اللُّغَةِ اتَّضَحَ لَهُ مَاذَا يَكُونُ المعْنَى الآنَ:

«أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ» مَاذَا؟ «مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ»؛ وَلَكِنَّ المقْصُودَ أَنَّهُ الْتَفَتَ بِصِيغَةِ الغَيْبَةِ، وَإِنَّمَا أَتَى هَؤُلَاءِ إِلَى أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَيُرِيدُونَ مِنْهُ التَّوْجِيهَ مَاذَا يُعْمَلُ مَعَ هَذَا الوَالِي الظَّالِمِ.

«أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الحَجَّاجِ» يَعْنِي: مِنْ ظُلْمِهِ وَتَعَدِّيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَعَدِّيهِ رُبَّمَا عَلَى بَعْضِ مَنْ أَتَوْا إِلَى أَنَسٍ يَشْتَكُونَ إِلَيْهِ الحَجَّاجَ، وَأَنَسٌ نَفْسُهُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الحَجَّاجِ وَظُلْمِهِ؛ حَتَّى إِنَّهُ آذَى أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَذِيَّةً شَدِيدَةً، ثُمَّ رَكِبَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ يَشْتَكِي الحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ، وَذَهَبَ إِلَى الشَّامِ فَكَتَبَ الوَلِيدُ إِلَى الحَجَّاجِ كِتَابَةً عَنِيفَةً جِدًّا يُعَنِّفُ فِيهَا الحَجَّاجَ وَيَشْتُمُهُ شَتْمًا عَلَى تَعَدِّيهِ عَلَى أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرْفَعَ ظُلْمَ الحَجَّاجِ إِلَّا بِشَكْوَاهُ إِلَى الخَلِيفَةِ فِي الشَّامِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ البَطْشِ وَالتَّعَدِّي، حَتَّى لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ هَذَا الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ.

وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ أَيْضًا حَتَّى عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؛ فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَمَرَ الحَجَّاجُ بِأَنْ يُصْلَبَ مَقْلُوبًا؛ يَعْنِي: أَنْ يُجْعَلَ عَلَى رَأْسِهِ هَكَذَا وَرِجْلَاهُ إِلَى الأَعْلَى، وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِأُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: «وَاللهِ لَا آتِي إِلَيْهِ»، هَذِهِ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا صَاحِبَةُ المَوَاقِفِ الكَرِيمَةِ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُرِيدُهَا هَذَا الغِرُّ الجَاهِلُ أَنْ تَأْتِيَ إِلَيْهِ بِهَذِهِ البَسَاطَةِ، فَقَالَ: «هَاتُوهَا، وَإِنْ أَبَتْ فَجُرُّوهَا بِقُرُونِهَا» يَعْنِي: بِالضَّفَائِرِ الَّتِي تُضَفِّرُهَا المرْأَةُ، «جُرُّوهَا جَرًّا»، «وَاللهِ لَا آتِي حَتَّى أُسْحَبَ بِقُرُونِي» تُرِيدُ أَنْ تَسْحَبَ؟ اسْحَبْ، لَكِنِّي أَنَا لَنْ آتِيَ بِنَفْسِي، فَلَمَّا رَآهَا مُصِرَّةً عَلَى هَذَا قَالَ: «أَرُونِي سُبْتِيَّتَيْنِ» يَعْنِي: نَعْلَيْنِ، فَذَهَبَ إِلَيْهَا وَقَالَ: «كَيْفَ رَأَيْتِنِي فَعَلْتُ بِعَدُوِّ اللهِ؟!» مَنْ هُوَ عَدُوُّ اللهِ؟ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ، المعْرُوفُ بِالصِّيَامِ وَالقِيَامِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، فَقَالَتْ: «رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ دِينَكَ»، أَمَّا دُنْيَاهُ فَأَفْسَدْتَهَا وَقَتَلْتَهُ، أَمَّا هُوَ فَبِفِعْلِكَ فَسَدَ عَلَيْكَ دِينُكَ، وَلَكِنْ يَا حَجَّاجُ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِي ثَقِيفَ كَذَّابًا وَمُبِيرًا»، أَمَّا الكَذَّابُ فَقَدْ رَأَيْنَاهُ -تَعْنِي: المخْتَارَ بْنَ أَبِي عُبَيْدٍ؛ لِأَنَّهُ ادَّعَى النُّبُوَّةَ- وَأَمَّا المبِيرُ فَلَا أُرَاهُ إِلَّا أَنْتَ» المبِيرُ؛ أَيِ: الفَاسِقُ.

وَمِمَّنْ تَعَرَّضَ لِلْأَذَى مِنَ الحَجَّاجِ أَيْضًا: عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ، انْظُرْ مَاذَا يَقُولُ أَنَسٌ -مِمَّا شَرَحْنَاهُ بِالأَمْسِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَئِمَّةِ الجُورِ-، لَمَّا شَكَوْا إِلَيْهِ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الحَجَّاجِ، وَالَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَ الحَجَّاجِ -قُلْنَا- ظُلْمٌ وَبَطْشٌ، تَارَةً

بِالقَتْلِ، وَهُوَ مُتَعَدٍّ جِدًّا فِي القَتْلِ –كَمَا نَقَلْنَا بِالأَمْسِ–، وَتَارَةً بِالسَّجْنِ المُسْتَدِيمِ، يَرْمِي الإِنْسَانَ فِي السِّجْنِ وَلَا يَكْتَرِثُ بَتَاتًا مَتَى يَمُوتُ، يُلْقِيهِ فِي السِّجْنِ وَيَتْرُكُهُ، وَتَارَةً بِالضَّرْبِ العَنِيفِ؛ كَأَنْ يُجْلَدَ جَلَدَاتٍ هَائِلَةً كَثِيرَةً فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ.

فَشَكَوْا إِلَى أَنَسٍ هَذَا كُلَّهُ، فَمَاذَا قَالَ أَنَسٌ؟ قَالَ: اصْبِرُوا. أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي أَمْرِهِ لَهُمْ بِالصَّبْرِ مُتَأَسٍّ بِالأَحَادِيثِ الكَثِيرَةِ الَّتِي مَرَّ بِنَا بَعْضُهَا «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ؛ فَلْيَصْبِرْ**»[50]، فَكُلُّ هَذَا يُعَزِّزُ مَا قُلْنَاهُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى وُلَاةِ الجُورِ عَلَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُصْلِحَ مِنْ حَالِهِمْ بِالنُّصْحِ وَالتَّوْجِيهِ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ وَيَنْصَحُونَهُمْ؛ فَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ دَخَلَ عَلَيْهِ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ فِيهِ: «**إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ**»[51]، «**شَرَّ الرِّعَاءِ**» يَعْنِي: الرُّعَاةَ وَالمُلُوكَ وَالحُكَّامَ، «**الْحُطَمَةُ**» هَذَا الَّذِي يُحَطِّمُ النَّاسَ بِالظُّلْمِ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُخَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ. قَالَ: وَهَلْ كَانَ النُّخَالَةُ فِيهِمْ؟ مَا كَانَتِ النُّخَالَةُ فِيهِمْ، وَمَا كَانَتْ إِلَّا فِيمَنْ بَعْدَهُمْ. يَعْنِي: مِنْ أَمْثَالِكَ.

فَكَانَ أَهْلُ العِلْمِ عَلَى القَدْرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَمْرِ نَهْيِ الحُكَّامِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَدْ نَهَوُا الحَجَّاجَ وَنَهَوْا غَيْرَ الحَجَّاجِ وَأَمَرُوا الرَّعِيَّةَ كَمَا قُلْنَا بِالصَّبْرِ.

فَقَالَ: «**اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ أَشَرُّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ يَعْنِي: أَنِّي لَمْ آتِ بِهَذَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، وَلَا أَقُولُ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ المجَرَّدِ، وَإِنَّمَا أُخْبِرُكُمْ بِهَذَا مَرْفُوعًا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ حَدَّثَنَا أَنَّ الحَالَ يَكُونُ عَلَى هَذَا؛ «**لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

هُنَا قَدْ يَأْتِي اسْتِشْكَالٌ، فَيُقَالُ: إِنَّ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ الحَجَّاجِ، وَلَا يُرْتَابُ أَنَّ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الأَزْمِنَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي رُفِعَتْ فِيهَا المظَالِمُ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ حَتَّى مِنْ زَمَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ وَغَيْرِهِ؛ فَكَيْفَ يُحْمَلُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**»؟!

(50) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة– باب خيار الأئمة وشرارهم (1855).

(51) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة– باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (1830).

مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ قَالَ: إِنَّ المَقْصُودَ بِالحَدِيثِ الحَمْلُ عَلَى العُمُومِ وَالأَغْلَبِ. يَعْنِي: مِنْ حَيْثُ العُمُومِ أَنَّهُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ الزَّمَانُ فَالأَوْضَاعُ تَكُونُ أَشَرَّ وَأَشَدَّ، وَلَا يَنْفِي ذَلِكَ أَنْ يُوجَدَ أَزْمِنَةٌ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ظُهُورِ السُّنَّةِ وَرَفْعِ المَظَالِمِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ عَنِ الحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا سُئِلَ عَنْ هَذِهِ المِسْأَلَةِ مِنْ كَوْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ وُجِدَ زَمَنُهُ بَعْدَ زَمَنِ الحَجَّاجِ؛ فَقَالَ: «لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ تَنْفِيسٍ»، يَعْنِي: لَيْسَ المَعْنَى أَنَّ الأُمُورَ تَشْتَدُّ فِي كُلِّ زَمَنٍ أَسْوَأَ مِنَ الَّذِي بَعْدَهُ مُطْلَقًا، يُوجَدُ تَنْفِيسٌ، فَيُوجَدُ فِي بَعْضِ المَوَاطِنِ وَفِي بَعْضِ الأَزْمِنَةِ شَيْءٌ مِنْ رَفْعِ المَظَالِمِ وَإِقَامَةِ السُّنَّةِ، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ الجُمْلَةِ وَالعُمُومِ كُلَّمَا تَقَدَّمَ الزَّمَنُ اشْتَدَّتِ الأُمُورُ وَكَانَتْ أَعْظَمَ خَطْبًا وَأَسْوَأَ حَالًا، هَذَا جَوَابٌ.

جَوَابٌ آخَرُ: أَجَابَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ذَكَرَ فِيهِ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: «**لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**» أَنْ يَذْهَبَ العُلَمَاءُ، لَا يَأْتِي يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ أَقَلُّ عِلْمًا مِنَ اليَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ، فَإِذَا ذَهَبَ العُلَمَاءُ اسْتَوَى النَّاسُ، فَلَا يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَهْلَكُونَ، فَحَمَلَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ عَلَى هَذَا، أَنَّ المُرَادَ: أَنَّهُ كَمَا فِي الحَدِيثِ؛ لَمَّا ذَكَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ**»، أَوْ: «**وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ**»، يَقُولُ: هَذَا المُرَادُ أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ وَيَذْهَبَ حَمَلَتُهُ، ثُمَّ يَسْتَوِي النَّاسُ، فَإِذَا اسْتَوَوْا وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ عَالِمٌ وَمُتَبَصِّرٌ وَدَاعٍ إِلَى اللهِ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ اسْتَوَوْا جَمِيعًا فِي عَدَمِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ؛ لِأَنَّ العَالِمَ حَيَاتُهُ كُلُّهَا أَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ، وَحَيَاتُهُ كُلُّهَا نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ، فَبَثُّهُ لِلْعِلْمِ وَدَعْوَتُهُ إِلَى السُّنَّةِ أَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ، وَتَحْذِيرُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَمِنَ المَفَاسِدِ وَمِنَ الضَّلَالِ هَذَا نَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا ذَهَبَ أَهْلُ العِلْمِ قَلَّ أَوِ انْعَدَمَ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَاسْتَوَى النَّاسُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَهْلَكُونَ، فَهَذَا مِنَ الأَجْوِبَةِ الَّتِي أُجِيبَ بِهَا عَلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**»، إِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا مِنْ حَيْثُ العُمُومِ؛ أَنَّ الأُمُورَ تَزْدَادُ وَتَشْتَدُّ.

وَالَّذِي يَسْبُرُ الأَوْضَاعَ يَجِدُ هَذَا الحَالَ فِي زَمَنِنَا؛ فَإِنَّ إِقْبَالَ كَثِيرِينَ عَلَى السُّنَّةِ وَعَلَى الخَيْرِ لَا شَكَّ أَنَّهُ قَلَّ، وَمِمَّا قَلَّ وَهَانَ مِمَّا يُشَاهَدُ – لِلْأَسَفِ–: قِلَّةُ الحِرْصِ عَلَى العِلْمِ وَقِلَّةُ طَالِبِيهِ، هَذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ وَمُلَاحَظٌ، لَا نَقُولُ فِيمَا بَيْنَ زَمَنِ ابْنِ تَيْمِيَةَ وَزَمَنِنَا، بَلْ وَاللهِ فِي السَّنَوَاتِ الأَخِيرَةِ الَّذِي يُدْرِكُ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ نَحْوِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مَثَلًا كَانَ الوَضْعُ بِلَا شَكٍّ مِنْ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى العِلْمِ وَتَسَابُقِهِمْ وَتَنَافُسِهِمْ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْهُ الآنَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ كَثِيرِينَ صَرَفَتْهُمُ الدُّنْيَا وَأَقْبَلُوا عَلَى مُلْهِيَاتِهَا، وَجَاءَتْ هَذِهِ الوَسَائِلُ الحَدِيثَةُ لِلنَّاسِ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ جِدًّا مِنْ صَرْفِهِمْ عَنِ العِلْمِ؛ مَعَ أَنَّ فِي هَذِهِ الوَسَائِلِ أَيْضًا فَتْحًا لِأَبْوَابٍ كَثِيرَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى عِلْمٍ يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ طَالِبُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ كُتُبُهُ الَّتِي يُرِيدُ فَصَارَتِ الكُتُبُ مُتَيَسِّرَةً مُتَوَفِّرَةً، لَكِنَّ الإِقْبَالَ بِكُلِّ أَسَفٍ عَلَى الأَكْثَرِ عَلَى سِوَاهَا؛ فَتَجِدُ مَنْ جَدُّوا فِي الطَّلَبِ وَبَلَغُوا فِيهِ مَبْلَغًا

ظُنَّ فِيهِمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مِنَ المُبَرِّزِينَ، لَكِنَّ الَّذِي حَدَثَ أَنَّهُمْ أَشْغَلَتْهُمُ الدُّنْيَا أَوْ –وَالعِيَاذُ بِاللهِ– انْتَكَسَ مِنْهُمْ مَنِ انْتَكَسَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ!

فَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الأُمُورَ كُلَّمَا تَقَدَّمَتْ كُلَّمَا صَارَ الأَمْرُ أَقْرَبَ إِلَى ظُهُورِ الفِتَنِ وَالقُرْبِ مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَتَحْدُثُ مِثْلُ هَذِهِ الأُمُورِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ.

«حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ح».

قَوْلُهُ هُنَا: «ح» هَذِهِ تَحْوِيلٌ، يُحَوِّلُ صَاحِبُ الكِتَابِ عِنْدَمَا يَبْلُغُ فِي السَّنَدِ مَبْلَغًا يَقُولُ: «أَخْبَرَنَا أَبُو اليَمَانِ قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ» يَرْوِي هَذَا الخَبَرَ عَنِ الزُّهْرِيِّ مِنْ طَرِيقِ شُعَيْبٍ، ثُمَّ يَرْوِيهِ بِطَرِيقٍ آخَرَ، فَيَقُولُ: «حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَخٌ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَتِيقٍ» عَمَّنْ؟ «عَنِ الزُّهْرِيِّ» مَرَّةً أُخْرَى، وَهُوَ ابْنُ شِهَابٍ، فَالْتَقَى الآنَ شُعَيْبٌ مَعَ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ عِنْدَ الزُّهْرِيِّ، لَكِنْ رَوَى البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هَذَا الحَدِيثَ عَنِ الزُّهْرِيِّ مِنْ طَرِيقٍ وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى النُّقْطَةِ الَّتِي عِنْدَهَا مُلْتَقَى السَّنَدَيْنِ حَوَّلَ، فَقَالَ: «ح»، ثُمَّ بَدَأَ مِنْ جَدِيدٍ بِسَنَدٍ آخَرَ، وَهَذَا يَكْثُرُ جِدًّا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، هُوَ مَوْجُودٌ فِي عُمُومِ كُتُبِ السُّنَّةِ، لَكِنْ أَكْثَرَ مِنْهُ مُسْلِمٌ كَثِيرًا رَحِمَهُ اللهُ.

«حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ (ح). وَحَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي أَخِي، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بِلَالٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَتِيقٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ هِنْدٍ بِنْتِ الحَارِثِ الفِرَاسِيَّةِ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَزِعًا يَقُولُ: **سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ –يُرِيْدُ: أَزْوَاجَهُ– لِكَيْ يُصَلِّيْنَ؟ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ**».

فِي هَذَا الحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً فَزِعًا لِأَمْرٍ بَيَّنَهُ فِي نَفْسِ الحَدِيثِ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ**»، قَوْلُهُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ**» فِيهِ التَّسْبِيحُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَتَعَجَّبُ مِنَ الأَمْرِ يَذْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ يُكَبِّرُ عِنْدَمَا يَقَعُ شَيْءٌ يَسْتَغْرِبُهُ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنَ النَّاسِ، كَمَا فِي قِصَّةِ أَبِي وَاقِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا خَرَجَ حُدَثَاءُ العَهْدِ فَمَرُّوا بِسِدْرَةٍ يَنُوطُ المُشْرِكُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ». فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا**

السُّنَنُ»[52]؛ فَالأُمُورُ الَّتِي تُسْتَغْرَبُ وَيُتَعَجَّبُ مِنْهَا يُسَبَّحُ اللهُ تَعَالَى أَوْ يُكَبَّرُ عِنْدَ وُقُوعِهَا.

فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْخَزَائِنِ»[53]، فِي لَفْظٍ فِي البُخَارِيِّ: «مَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ»[54]؛ يَعْنِي: فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، الخَزَائِنُ إِذَا فُتِحَتْ عَلَى النَّاسِ وَكَثُرَتِ الأَمْوَالُ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ يَتَغَيَّرُونَ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[55]، فَالخَزَائِنُ وَالأَمْوَالُ تُغَيِّرُ أُنَاسًا كَثِيرِينَ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا: «فِتْنَةُ أُمَّتِي فِي المَالِ»[56]، فَكَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ إِذَا فُتِحَ عَلَيْهِمْ فِي المَالِ اشْتَغَلُوا بِهِ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ قَدْ يَشْتَغِلُونَ بِهِ عَنْ وَاجِبَاتِ دِينِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[57]؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ حَمَلَهُ المَالُ عَلَى إِضَاعَةِ الصَّلَوَاتِ، وَحَمَلَهُ المَالُ عَلَى اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ؟»، هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الحَدِيثِ؛ لِأَنَّ ثَمَّةَ فِتَنًا قَدْ جَدَّتْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ثُمَّ طَلَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ تُوقَظَ زَوْجَاتُهُ، «مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ» يَعْنِي: كَأَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْ بَعْضِ الخَدَمِ أَوِ المَمْلُوكِينَ أَنْ يَمُرَّ عَلَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُنَّ وَيُوقِظَهُنَّ لِيُصَلِّينَ، لِيُبَادِرْنَ فِي هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ الجَلِلِ أَنْ يُصَلِّينَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي هَذَا إِيقَاظُ الأَهْلِ لِصَلَاةِ اللَّيْلِ، «مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجَرِ»، يُرِيدُ: أَزْوَاجَهُ؛ «لِكَيْ يُصَلِّينَ، رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ».

لِمَ ذَكَرَ هَذَا عَنْ أَزْوَاجِهِ؟ لِأَنَّهُنَّ الحَاضِرَاتُ؛ إِذْ كَانَ نَائِمًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، وَحُجُرَاتُ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُتَقَارِبَةٌ، فَكَانَتْ عِنْدَ المَسْجِدِ حُجُرَاتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَلَبَ أَنْ يُمَرَّ عَلَى زَوْجَاتِهِ، وَفِي هَذَا: العِنَايَةُ بِالأَهْلِ وَالِاهْتِمَامُ بِمَا يُعِينُهُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.

ذَكَرَ الحَافِظُ فَائِدَةً مِنْ تَخْصِيصِ زَوْجَاتِهِ: أَنَّ فِيهَا تَنْبِيهًا لَهُنَّ أَلَّا يَتَغَافَلْنَ عَنِ العِبَادَةِ وَيَعْتَمِدْنَ عَلَى كَوْنِهِنَّ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(52) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن- باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (2180)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (3601).
(53) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (7069).
(54) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب علامات النبوة في الإسلام (3599).
(55) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (6425)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق (2961).
(56) أخرجه أحمد في «مسنده» (160/4)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح»
(57) سورة مريم: 59.

وَسَلَّمَ، لَا شَكَّ أَنَّ كَوْنَهُنَّ زَوْجَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ ذَلِكَ شَرَفٌ عَظِيمٌ، وَمِنْ شَرَفِهِ أَنَّهُنَّ أُمَّهَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[58].

فَالحَاصِلُ: أَنَّ فِي هَذَا الحَدِيثِ تَنْبِيهًا لَهُنَّ إِلَى أَنَّهُنَّ وَإِنْ كُنَّ بِهَذَا المقَامِ الكَرِيمِ فَلَيْسَ لَهُنَّ أَنْ يَعْتَمِدْنَ عَلَى مُجَرَّدِ كَوْنِهِنَّ زَوْجَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَاعِي هَذَا فِي عُمُومِ قَرَابَاتِهِ، فَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى أَنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِمْ أَقَارِبَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَنْ يُغْنِيَهُمْ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[59]، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» عَمَّ ثُمَّ خَصَّ، ثُمَّ نَادَى، فَقَالَ: «يَا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[60]، يَعْنِي: أَنَّ مُجَرَّدَ القَرَابَةِ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُغْنِي عَنِ العَبْدِ شَيْئًا إِذَا فَرَّطَ فِي أَمْرِ اللهِ تَعَالَى؛ فَهَذَا مِنْ هَذَا البَابِ.

وَإِنَّمَا أَمَرَ بِمُنَادَاتِهِنَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُنَّ الحَاضِرَاتُ، ثُمَّ إِنَّ الخِطَابَ وَإِنْ كَانَ لِزَوْجَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ عَامٌّ؛ إِذِ العِبْرَةُ بِالمعْنَى نَفْسِهِ، لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الفِتَنُ وَأَمَرَ زَوْجَاتِهِ أَنْ يَقُمْنَ لِيُصَلِّينَ، وَفِي الصَّلَاةِ سُؤَالُ العَبْدِ رَبَّهُ العَافِيَةَ وَالنَّجَاةَ، فَهَذَا أَمْرٌ غَيْرُ مَخْصُوصٍ بِزَوْجَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِنَّ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ عَامٌّ لِلْجَمِيعِ.

ثُمَّ قَالَ: «رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ» أَنَّ الحَالَ فِي الدُّنْيَا قَدْ يَتَغَيَّرُ فِي الآخِرَةِ عِيَاذًا بِاللهِ؛ فَيَكُونُ الإِنْسَانُ عَلَى حَالٍ فِي الدُّنْيَا قَدْ يَكُونُ فِيهِ فِي سُرُورٍ وَبَهْجَةٍ، لَكِنْ يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ هَذَا الحَالُ فِي الآخِرَةِ عِيَاذًا بِاللهِ، فَرُبَّمَا كَانَ الإِنْسَانُ كَاسِيًا فِي الدُّنْيَا مِنْ نِعَمِ اللهِ وَمِنْ غَيْرِهَا، لَكِنْ لِأَنَّهُ قَلِيلُ العَمَلِ أَوْ عَمَلُهُ بَاطِلٌ يَأْتِي فِي الآخِرَةِ عَارِيًا وَعَلَى حَالٍ مِنَ السُّوءِ «رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ».

([58]) سورة الأحزاب: 6.

([59]) سورة الشعراء: 214.

(60) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (2753)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} (206).

(6) «بَابُ: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»»

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَّامٍ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ[61]، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»[62].

هَذَا الحَدِيثُ يَرْوِيهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، فِيهِ النَّهْيُ عَنِ الإِشَارَةِ بِالسِّلَاحِ، «لَا يُشِرْ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ» فَإِشَارَتُكَ عَلَى أَخِيكَ -وَلَوْ مَازِحًا- بِالسِّلَاحِ لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مُنْكَرٌ كَمَا سَيَأْتِي فِي الأَحَادِيثِ الَّتِي بَيَّنَتِ الوَعِيدَ الوَارِدَ فِيهِ، «لَا يُشِرْ» أَوْ: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي» لَا يَدْرِي فِي أَعْقَابِ إِشَارَتِهِ بِالسِّلَاحِ مَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ «لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ»، بِالغَيْنِ المُعْجَمَةِ، النَّزْغُ هُوَ أَنْ يَحْمِلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالفَسَادِ، يَعْنِي: لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِغَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ، بِأَنْ يَحْمِلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالشَّرِّ وَالفَسَادِ بَيْنَكُمْ.

وَرُوِيَ بِالعَيْنِ المُهْمَلَةِ، إِذَا قِيلَ: المُهْمَلَةُ. يَعْنِي بِدُونِ نَقْطِ (عَيْنٌ)، وَإِذَا قِيلَ: المُعْجَمَةُ. يَعْنِي فِيهَا نُقْطَةٌ (غَيْنٌ)، فَرُوِيَ: «يَنْزِغُ»، وَرُوِيَ: «يَنْزِعُ»، فَإِذَا قِيلَ: إِنَّهَا «يَنْزِعُ» بِالعَيْنِ. يَكُونُ مَعْنَاهَا لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَقْلَعُ السَّهْمَ مِنْ يَدِهِ فَيُصِيبُ بِهِ أَخَاهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهِ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَقْلَعَ عَدُوُّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ السَّهْمَ مِنْ يَدِكَ فَيُصِيبُ أَخَاكَ بِهَذَا، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ عُقُوبَةِ الإِشَارَةِ بِالسِّلَاحِ؛ إِذْ فِيهِ هَذَا الوَعِيدُ، وَهُوَ أَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ بِدُخُولِ النَّارِ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ اليَوْمَ يَسْتَسْهِلُونَ أَمْرَ الإِشَارَةِ بِالسِّلَاحِ عَلَى سَبِيلِ المَزَاحِ، فَرُبَّمَا كَانَ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ سِكِّينًا أَوْ سَيْفًا أَوْ خِنْجَرًا فَرَفَعَهُ عَلَى أَخِيهِ يَضْحَكُ وَيَمْزَحُ، رُبَّمَا كَانَ مَعَ بَعْضِهِمْ سِلَاحًا مَلِيئًا بِالرَّصَاصِ فَعَبَّأَهُ وَوَجَّهَهُ نَحْوَ أَخِيهِ، كُلُّ هَذَا يَقُولُ: إِنَّهُ يَمْزَحُ. كُلُّ هَذَا مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَشَارَ لِأَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ لَعَنَتْهُ المَلَائِكَةُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ»[63] حَتَّى لَوْ كَانَ

([61]) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة 7 هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه 5374 حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة 59هـ. (تهذيب الكمال: 366/34).

([62]) أخرجه البُخاريّ في كتابِ الفِتن- باب قَول النَّبي **صلى الله عليه وسلم**: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاحَ فَلَيْسَ مِنَّا**» (7072)، ومُسلم في كتابِ البِرّ والصِّلة والآداب- باب النَّهي عن الإشارة بالسِّلاح إلى مُسلم (2617).

(63) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة- باب النهي عن الإشارة بالسلاح (2616).

أَخًا لَكَ، تَقُولُ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي إِلَّا الوُدُّ وَالمحَبَّةُ، وَأَنَا لَوْ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ لَا يُمْكِنُ أَنْ أَقْتُلَ أَخِي. نَقُولُ: لَوْ فَعَلْتَ هَذَا -وَإِنْ كَانَ أَخَاكَ لِأَبِيكَ وَأُمِّكَ- فَإِنَّ مَلَائِكَةَ اللهِ -الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ- سَتَلْعَنُكَ حَتَّى تُقْلِعَ. عِيَاذًا بِاللهِ!

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِذَا سَلَّ أَحَدُكُمُ السَّيْفَ فَلْيُغْمِدْهُ ثُمَّ لْيُعْطِهِ أَخَاهُ**»(64)، مَا مَعْنَاهُ؟ السَّيْفُ لَهُ جِرَابٌ، فَإِذَا سَلَلْتَ السَّيْفَ وَصَارَ صَلْتًا وَقَالَ لَكَ أَخُوكَ: أَرِنِي هَذَا السَّيْفَ. فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ هَكَذَا وَلَا يَجُوزُ هَذَا، بَلْ تُغْمِدُهُ بِحَيْثُ يَكُونُ دَاخِلَ الجِرَابِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ مِنْكَ لَسَقَطَ عَلَى أَخِيكَ، أَمَّا إِذَا أَغْمَدْتَهُ فِي الجِرَابِ أَوَّلًا لَصَارَ حَدِيدَةً مُعْتَادَةً، مَا تَضُرُّ لَوْ خَدَشَتْ خَدْشًا يَسِيرًا؛ وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَعَاطِي السَّيْفِ مَسْلُولًا، يَعْنِي تُعْطِي أَخَاكَ السَّيْفَ لَا تُعْطِهِ إِيَّاهُ هَكَذَا، لَيْسَ لَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ إِيَّاهُ وَهُوَ مَسْلُولٌ، بَلْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا**»، حَتَّى لَوْ قَالَ: أَرِنِي السَّيْفَ. تَقُولُ: أَنَا سَأُرِيكَ السَّيْفَ لَكِنْ لَا أُعْطِيكَ إِيَّاهُ مُبَاشَرَةً، سَآتِي بِهِ وَأَضَعُهُ فِي الغَمْدِ ثُمَّ أُعْطِيكَ إِيَّاهُ وَهُوَ غَيْرُ مَسْلُولٍ. فَإِذَا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ مَسْلُولًا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا، لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا.

كُلُّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَاذَا؟

عَلَى عِظَمِ الدِّمَاءِ وَعَلَى شِدَّةِ أَمْرِهَا، حَتَّى إِنَّكَ إِذَا سَلَلْتَ السَّيْفَ وَأَعْطَيْتَهُ أَخَاكَ أَوْ أَشَرْتَ إِلَيْهِ مُجَرَّدَ إِشَارَةٍ لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَقْتُلَهُ بِهِ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ هَذَا التَّحَوُّطُ الشَّدِيدُ الَّذِي وَصَلَ إِلَى حَدِّ أَنْ يَلْعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ فَعَلَ هَذَا وَأَنْ تَلْعَنَ المَلَائِكَةُ مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ إِشَارَةً وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ الشَّبَابِ -وَهُوَ كَثِيرٌ فِيهِمْ جِدًّا- مِنَ المزَاحِ بِالسَّيَّارَةِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي الحَدِيثِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ دُخُولُهُ أَوَّلِيًّا؛ فَإِنَّهُ إِذَا رَأَى أَخَاهُ يَمْشِي حَرَفَ نَحْوَهُ السَّيَّارَةَ، حَرْفُهُ لِلسَّيَّارَةِ قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَشَدُّ مِمَّا لَوْ أَعْطَاهُ السَّيْفَ مَسْلُولًا؛ فَإِنَّكَ لَوْ أَعْطَيْتَ أَخَاكَ السَّيْفَ مَسْلُولًا رُبَّمَا سَقَطَ عَلَى يَدِهِ أَوْ عَلَى رِجْلِهِ فَأَدْمَاهُ، لَكِنْ لَوْ أَخْطَأْتَ فِي حَرْفِكَ لِلسَّيَّارَةِ مَا الَّذِي يَحْدُثُ؟ يُمْكِنُ أَنْ تُقَطِّعَهُ، وَهَكَذَا يَتَمَازَحُونَ بِالسَّيَّارَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَكُونُ هَذَا مَعَهُ سَيَّارَةٌ وَهَذَا مَعَهُ سَيَّارَةٌ، فَيُشِيرُ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّيَّارَةِ، وَذَاكَ يُشِيرُ إِلَيْهِ بِالسَّيَّارَةِ، هَذِهِ الإِشَارَةُ فِيهَا لَعْنَةٌ تَدْخُلُ فِي هَذَا الحَدِيثِ؛ لِأَنَّ السَّيَّارَةَ كُتْلَةُ حَدِيدٍ، فَقَدْ هَلَكَ فِي حَوَادِثِ السَّيَّارَاتِ مَلَايِينُ النَّاسِ لِشِدَّةِ مَا فِي السَّيَّارَاتِ مِنَ

(64) أخرجه أحمد في «مسنده» (41/5)، وقال شعيب الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

الِانْدِفَاعِ، فَكَيْفَ تُشِيرُ إِلَى أَخِيكَ بِالسَّيَّارَةِ وَأَنْتَ تُمِيتَ أَنْ تَتَعَاطَى السَّيْفَ تُعْطِيهِ أَخَاكَ مَسْلُولًا، فَكُلُّ هَذَا دَاخِلٌ، وَلِهَذَا المِزَاحُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ غَيْرُ مَحْسُوبٍ وَلَا مَأْبُوهٍ بِهِ.

وَلِهَذَا أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ» يَعْنِي لَا يَقُلْ: هَذَا أَخِي، أَنَا غَيْرُ مُتَّهَمٍ فِيهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَ فِعْلًا يُؤَدِّي إِلَى قَتْلِ أَخِي. نَقُولُ: لَا يَجُوزُ هَذَا وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ المِزَاحِ، وَلَوْ كَانَ أَخَاكَ.

وَقَدْ أَدَّتْ مُخَالَفَةُ هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ إِلَى إِهْلَاكِ أُنَاسٍ، فَكَمْ قَتَلَ الرَّصَاصُ بَيْنَ النَّاسِ بِسَبَبِ عَدَمِ تَطْبِيقِ هَذَا الحَدِيثِ؟! النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَهَى عَنْ تَعَاطِي السَّيْفِ مَسْلُولًا لَا يُرِيدُ السَّيْفَ فَقَطْ، وَإِنَّمَا الأَمْرُ عَامٌّ فِي كُلِّ سِلَاحٍ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الأَسْلِحَةَ النَّارِيَّةَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَنْطَلِقَ مِنْهَا الرَّصَاصَةُ هِيَ مِنْ بَابٍ أَوْلَى؛ إِذِ الغَالِبُ إِذَا انْطَلَقَتِ الرَّصَاصَةُ -وَلَا سِيَّمَا مِنْ طَرِيقٍ قَرِيبٍ- الغَالِبُ أَنَّهَا تَقْتُلُ إِذَا وَقَعَتْ فِي مَقْتَلٍ، فَكُلُّ هَذَا مِنْ بَابِ العِنَايَةِ بِالدِّمَاءِ وَالِاهْتِمَامِ بِالأَرْوَاحِ؛ حَتَّى لَا تَكُونَ عُرْضَةً بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ أَوْ بِسَبَبِ المِزَاحِ إِلَى مِثْلِ هَذَا.

فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الهَدْيَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الوَعِيدِ كُلِّهِ مِنَ اللَّعْنِ مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ لَعَنَ مَنْ تَعَاطَى السَّيْفَ مَسْلُولًا، وَلَعْنِ المَلَائِكَةِ الكِرَامِ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَلْعَنُ عَلَى أَمْرٍ يَسِيرٍ، وَالمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا تَلْعَنُ عَلَى أَمْرٍ يَسِيرٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ اللَّعْنُ عَلَى الأَمْرِ الشَّدِيدِ الَّذِي فِيهِ هَذَا الوَعِيدُ العَظِيمُ بِسَبَبِ مَا فِيهِ مِنَ الكَبِيرَةِ؛ وَبِذَلِكَ يُعْلَمُ أَنَّ تَعَاطِي السِّلَاحِ مَسْلُولًا مَعْدُودٌ فِي كَبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ مِنْ دَلَائِلِ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ اللَّعْنُ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي مُجَرَّدِ تَعَاطِيهِ فَكَيْفَ بِحَمْلِ السِّلَاحِ؟! لَا شَكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ، فَكَيْفَ بِقَتْلِ المُسْلِمِ؟! لَا شَكَّ أَنَّهُ أَشَدُّ وَأَشَدُّ.

(7) «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

1-حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا شَقِيقٌ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

تَرْجَمَ بِالتَّرْجَمَةِ بِنَصِّ الحَدِيْثِ، تَرَاجِمُ البُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْوَاعٌ:

تَارَةً يُتَرْجِمُ بِآيَةٍ، وَتَارَةً يُتَرْجِمُ بِحَدِيْثٍ لَفْظُهُ فِي البَابِ، وَتَارَةً يُتَرْجِمُ بِحَدِيْثٍ لَيْسَ عَلَى شَرْطِهِ، وَلَكِنَّهُ يُشِيْرُ إِلَى لَفْظِ الحَدِيْثِ الذِيْ هُوَ خَارِجُ صَحِيْحِهِ، فَهَذَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّرَاجُمِ أن يُتَرْجِمَ عَلَى حَدِيْثٍ وَارِدٍ فِي البَابِ، وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**».

ذَكَرَ فِي هَذَا الحَدِيْثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ: ابْنُ مِسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: «**أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وِسَلَّمَ قَالَ: سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ**».

قِيْل: إِنَّ السِّبَابَ مِنَ السَّبِّ، وَهُوَ القَطْعُ. وَقِيْلَ: مِنَ السُّبَّةِ، وَهِيَ: حَلْقَةُ الدُّبُرِ، سُمِّيَ لِلفَاحِشِ مِنَ القَوْلِ بِالفَاحِشِ مِنَ الجَسَدِ.

وَقَالَ الحَرْبِيُّ إِبْرَاهِيْمُ رَحِمَهُ اللهُ: السِّبَابُ أَشَدُّ مِنَ السَّبِّ، وَهُوَ: أَنْ يَقُولَ فِي الرَّجُلِ مَا فِيْهِ وَمَا لَيْسَ فِيْهِ، فَيَعِيْبُهُ بِالذِيْ فِيْهِ وَبِالذِيْ لَيْسَ فِيْهِ.

«**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ**» لَا شَكَّ أَنَّ سَبَّ المسْلِمِ يُعَدُّ مِنَ الفِسْقِ، وَالفِسْقُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الخُرُوجُ، وَقَالُوا: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ وَذَلِكَ إِذَا خَرَجَتْ. وَهُوَ فِي الشَّرْعِ: الخُرُوجُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: إِنَّ الفُسُوقَ أَشَدُّ مِنَ العِصْيَانِ؛ لِقَولِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيْمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ والعِصْيَانَ**﴾ [65].

وَقَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الفُسُوقُ الذُّنُوبُ الكِبَارُ، يُطْلَقُ عَلَيْهَا: الفُسُوقُ، والعِصْيَانُ جَمِيْعُ المَعَاصِي.

فِيْ هَذَا الحَدِيْثِ دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ قُبْحِ سَبِّ المسْلِمِ لِأَخِيْهِ المسْلِمِ، وَكَثِيْرًا مَا يَكُونُ التَّسَابُّ بِالأَلْسُنِ، فَيَتَلَاسَنُ اثْنَانِ فِيْمَا بَيْنَهُمَا لِأَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ كِلَاهُمَا فِيْهِ عَلَى خَطَأٍ، أَوْ أَحَدُهُمَا مُصِيْبٌ وَالآخَرُ مُخْطِئٌ، فَيَتَلَاسَنَانِ وَيَتَسَابَّانِ وَيَتَشَاتَمَانِ، فَهَذَا مِنَ الخِصَالِ الرَّدِيْئَةِ.

وَقَدْ بَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ السِّبَابَ فُسُوقٌ، وَلَكِنْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِيْ مَا لَمْ يَعْتَدِ**

([65]) سورة الحجرات: 7.

المَظْلُومُ»[66]، فَإِذَا تَسَابَّ اثْنَانِ؛ فَالأَوَّلُ الذِيْ بَدَأَ إِذَا كَانَ الثَّانِيْ الذِيْ يَسُبُّهُ يَرُدُّ عَلَيْهِ سَبَّهُ بِمِثْلِهِ؛ كَأَنْ يَقُولَ لَهُ: يَا جَاهِلُ، فَيَقُولُ: بَلِ الجَاهِلُ أَنْتَ، «**المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِيْ**» الذِيْ بَدَأَ هُوَ الذِيْ عَلَيْهِ الذَّنْبُ «**مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُوْمُ**» المِظْلُومُ الذِيْ سُبَّ وَهُوَ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَرُدَّ السَّبَّ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَلَوْ قَالَ لَهُ: يَا جَاهِلُ، فَقَالَ: بَلْ أَنْتَ الجَاهِلُ وَالخَبِيْثُ، فَهُنَا اعْتَدَى وَتَجَاوَزَ وَخَرَجَ عَنِ العَافِيَةِ التِيْ كَانَ فِيْهَا، وَالأَحْسَنُ وَالأَجْدَى أَنْ يُمْسِكَ بِزِمَامِ نَفْسِهِ، إِذَا قَدِرَ أَلَّا يَسُبَّهُ وَلَا يُعِيْدَ إِلَيْهِ شَتْمَهُ فَهُوَ الأَوْلَى وَلَا شَكَّ، لَكِنْ مِنْ حَيْثُ الجَوَازِ يَجُوزُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ مَسَبَّتَهُ.

وَجَاءَ تَوْجِيْهُ الصَّائِمِ إِلَى تَرْكِ التَّمَادِيْ فِيْ أَمْرِ السِّبَابِ: «**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ**»، مُبَيِّنًا أَنَّهُ لَا يُرِيْدُ أَنْ يَخْدِشَ صَوْمَهُ بِهَذِهِ المسَابَّةِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ السِّبَابَ أَمْرٌ حُكِمَ عَلَى صَاحِبِهِ بِالفُسُوقِ، وَهُوَ حُكْمٌ شَدِيْدٌ مَعَ كَثْرَةِ الوَاقِعِيْنَ فِيْهِ لِلأَسَفِ، كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَزُمُّ لِسَانَهُ أَبَدًا، بِمُجَرَّدِ أَدْنَى مَوْقِفٍ أَوْ أَتْفَهِ أَمْرٍ تَجِدُ أَنَّهُ يَسُبُّ، وَرُبَّمَا سَبَّ وَجَاوَزَ صَاحِبَهُ إِلَى وَالِدَيْهِ، أَوْ إِلَى أَهْلِ بَلَدِهِ، أَوْ إِلَى أَهْلِ قَبِيْلَتِهِ، وَكُلُّ هَذَا تَهَوُّرٌ وَجَهْلٌ وَعَدَمُ تَفَطُّنٍ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْدٌ**﴾[67].

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيْثِ: «**أَنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْزِلَةً: الشَّاعِرُ يَهْجُو القَبِيْلَةَ كُلَّهَا**»[68]، يُغْضِبُهُ أَحَدٌ مِنْ قَبِيْلَةٍ فَيُقَرِّرُ أَنْ يَهْجُوَ بَنِي فُلَانٍ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ لِأَجْلِ أَنَّ فُلَانًا هَذَا مِنْهُمْ، فَهَذَا مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ؛ لِأَنَّهُ ظَالِمٌ مُتَعَدٍّ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ الفُسُوقَ وَالتَّمَادِيَ فِيْهِ أَمْرٌ لِلأَسَفِ كَثِيْرٌ فِي النَّاسِ، وَإِذَا وَقَعَ مِثْلُ هَذَا وَكَانَ الإِنْسَانُ يَعْنِيْ قَدْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ، فَالمُؤْمِنُ رَجَّاعٌ يَرْجِعُ يَطْلُبُ إِلَى أَخِيْهِ الصَّفْحَ، وَيَقُولُ: إِنَّ مَا وَقَعَ مِنِّي وَمِنْكَ خَطَأٌ، فَإِنَّ دِيْنَنَا عَلَّمَنَا الأَدَبَ، وَلَكِنْ غَلَبَنَا الشَّيْطَانُ هَذِهِ المَرَّةَ، فَلْيُبِحْ كُلٌّ مِنَّا صَاحِبَهُ حَتَّى لَا تَبْقَى مَعَرَّةُ هَذَا الإِثْمِ عَلَيْهِمَا فِي القِيَامَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيْبٌ عَتِيْدٌ**﴾.

هَذَا فِي السِّبَابِ –يَا إِخْوَةَ– المُعْتَادِ الذِي كَثِيْرٌ مَا يَقُولُ بَعْضُ الطَّائِشِيْنَ لِبَعْضِهِمْ: يَا حِمَارُ، يَا كَلْبُ، يَا كَذَا، فَإِذَا رَتَّبَ عَلَيْهِ حُكْمًا

([66]) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب النهي عن السِّباب (2587).

([67]) سورة ق: 18.

([68]) أخرجه ابن حبان (5785) بلفظ: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ فِرْيَةٍ اثْنَانِ: شَاعِرٌ يَهْجُو قَبِيْلَةً بِأَسْرِهَا، ...**» **الحديث**.

فَالأَمْرُ خَطِيْرٌ لِلغَايَةِ؛ كَأَنْ يَقُولَ: يَا كَافِرُ، أَوْ أَنْ يَقْذِفَهُ فِي عِرْضِهِ فَيَقُولَ: يَا زَانِي، أَوْ يَا ابْنَ الزِّنَا، فَهَذَا تَجَاوَزَ مُجَرَّدَ السَّبِّ المُعْتَادِ وَتَعَلَّقَ بِهِ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ؛ فَأَمَّا القَذْفُ فَتَعَلَّقَ بِهِ حَدُّ القَذْفِ، تَرَتَّبَ عَلَيْهِ سُقُوطُ شَهَادَتِهِ وَتَفْسِيْقُهُ، وَتَرَتَّبَ عَلَى قَوْلِهِ لِأَخِيْهِ: يَا كَافِرُ مُنْكَرٌ عَظِيْمٌ جِدًّا، أَنْ يَحَارَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ.

فَعَلَى طَالِبِ العِلْمِ الحَرِيْصِ عَلَى عَمَلِهِ وَأَجْرِهِ أَنْ يَسْحَبَ نَفْسَهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا المَزْلَقِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ بَيْنَ العُلَمَاءِ كَمَا بَيْنَ التُّيُوسِ فِي زُرْبِهَا**»[69]، التُّيُوسُ بَيْنَهَا دَائِمًا شَيْءٌ مِنَ التَّطَاحُنِ، وَلَا يُسْتَغْرَبُ؛ لِأَنَّهَا بَهَائِمُ. فَيَقُولُ: قَدْ يُوجَدُ هَذَا.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَفَطَّنَ لِمِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ إِنْ كَانَ الحَامِلُ عَلَى السِّبَابِ هَوَى النُّفُوسِ وَالبَغْضَاءُ التِي لَمْ يُنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؛ فَإِنَّ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَرْفَعَ نَفْسَهُ عَنْ مِثْلِ هَذَا؛ لِأَنَّ الوَرْطَةَ فِي هَذَا كَبِيْرَةٌ، وَالأَمْرُ أَمْرُ فُسُوقٌ: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ**»، وَلَمَّا كَانَ بِمِثْلِ هَذَا الحَالِ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُؤَثِّرٌ فِي الإِيْمَانِ، لِذَلِكَ أَوْرَدَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هَذَا الحَدِيْثَ فِي كِتَابِ الإِيْمَانِ فِي أَوَّلِ الصَّحِيْحِ، وَهُوَ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ المُرْجِئَةِ الذِيْنَ يُهَوِّنُونَ مِنْ أَمْرِ المَعَاصِيْ؛ فَإِنَّ الحُكْمَ عَلَيْهِ بِالفُسُوقِ لَا يَكُونُ إِلَّا وَمَعَهُ نَقْصٌ فِي إِيْمَانِهِ لَا كَمَا تَقُولُ المُرْجِئَةُ: إِنَّ الإِيْمَانَ لَا يَزِيْدُ وَلَا يَنْقُصُ.

وَهَكَذَا قَوْلُهُ: «**وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**» هَذَا المَوْضِعُ مِنَ الحَدِيْثِ يَجِبُ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَضْبِطَهُ ضَبْطًا دَقِيْقًا؛ لِأَنَّ الخَلَلَ فِي فَهْمِهِ يُؤَدِّي إِلَى مَفَاسِدَ عَظِيْمَةٍ لِلغَايَةِ.

بَوَّبَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِ الإِيْمَانِ بِقَوْلِهِ: «**بَابٌ: المَعَاصِي مِنْ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ**».

التَّكْفِيْرُ الذِي مَعْنَاهُ: الإِخْرَاجُ مِنَ المِلَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالأُمُورِ النَّاقِضَةِ لِهَاتَيْنِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَهَذا يُؤَكِّدُ عَلَى أَهَمِّيَّةِ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ الكُفْرِ وَأَنْوَاعِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّهَا تَرِدُ فِي النُّصُوصِ تَارَةً يُرَادُ بِهَا: الكُفْرُ الأَكْبَرُ، وَتَارَةً يُرَادُ بِهَا: الكُفْرُ الأَصْغَرُ؛ فَمَنْ عَدَّهَا جَمِيْعًا فِي الكُفْرِ الأَكْبَرِ هَلَكَ

([69]) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (2123) عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «**استمِعوا علمَ العلماءَ، ولا تُصدِّقُوا بعضَهم على بعضٍ، فوالذي نفسي بيده؛ لهم أشدُّ تغايُرًا من التيوسِ في زُرُوبِها**».

وَأَهْلَكَ.

فَالكُفْرُ نَوْعَانِ:

النَّوْعُ الأَوَّلُ مِنَ الكُفْرِ: الكُفْرُ المخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ، وَهُوَ عَلَى أَقْسَامٍ، وَإِذَا قِيْلَ: إِنَّهُ مُخْرِجٌ مِنَ المِلَّةِ، فَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ صَاحِبَهُ يَرْتَدُّ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى القَوْلِ بِتَكْفِيْرِهِ جَمِيْعُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الرَّجُلِ إِذَا ارْتَدَّ مِنْ أَحْكَامٍ.

النَّوْعُ الثَّانِي: كُفْرٌ لَيْسَ بِأَكْبَرَ، وَلَكِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ فِي النُّصُوصِ: الكُفرُ لِفَدَاحَةِ الذَّنْبِ، الذَّنْبُ الذِي يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ الكُفْرِ لَا شَكَّ أَنَّهُ ذَنْبٌ كَبِيْرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُنَا: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ طَالِبَ العِلْمِ مِنَ المهِمِّ جِدًّا أَنْ يَعِيَ أَنْوَاعَ هَذِهِ التَّقْسِيْمَاتِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَلْحَقَ بِالنَّوْعِ الأَكْبَرِ مِنْهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا جَعَلَ بَعْضَ الأَعْمَالِ مِنَ الكُفْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ: الفِسْقُ؛ فَالفِسْقُ المذْكُورُ فِي هَذَا الحَدِيْثِ لَا شَكَّ أَنَّهُ الفِسْقُ الذِي يَقَعُ فِيْهِ عُصَاةُ المَوَحِّدِيْنَ، وَلَكِنْ قَدْ يُطْلَقُ الفِسْقُ عَلَى الكُفْرِ الأَكْبَرِ؛ لِأَنَّ الفِسْقَ نَوْعَانِ أَيْضًا: فِسْقٌ أَكْبَرُ، وَفِسْقٌ أَصْغَرُ، وَمِنْهُ: فِسْقُ إِبْلِيْسَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[70]، فِسْقُ إِبْلِيْسَ لَيْسَ فِسْقًا أَصْغَرَ، هُوَ أَعْظَمُ الخَلْقِ كُفْرًا، وَمَعَ ذَلِكَ سَمَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خُرُوجَهُ عَنِ الطَّاعَةِ فِسْقًا؛ لِأَنَّهُ فِسْقٌ أَكْبَرُ.

إِذًا فَالفِسْقُ وَالظُّلْمُ وَالكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالشِّرْكُ تَنْقَسِمُ إِلَى هَذِهِ الأَقْسَامِ؛ مِنْهَا مَا هُوَ أَصْغَرُ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيْهِ المَوَحِّدُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَكْبَرُ لَا يَقَعُ فِيْهِ إِلَّا الذِي انْتَقَلَ عَنِ المِلَّةِ.

مَا المرَادُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»؟

لَا شَكَّ أَنَّ الكُفْرَ -كَمَا قُلْنَا-: نَوْعَانِ، وَأَنَّ القِتَالَ الذِي يَقَعُ بَيْنَ المسْلِمِيْنَ أَنَّهُ مِنَ الكُفْرِ الأَصْغَرِ، وَالأَدِلَّةُ عَلَى هَذَا كَثِيْرَةٌ، سُقْنَا بَعْضَهَا، وَنُعِيْدُ بَعْضًا مِنْهَا فِي هَذَا المَوْطِنِ الآنَ:

([70]) سورة الكهف: 50.

مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[71]، فَاجْتَمَعَ وَصْفُهُمْ بِالإِيْمَانِ مَعَ وُقُوعِ الاقْتِتَالِ مِنْهُمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الاقْتِتَالَ لَمْ يُزِلْ عَنْهُمْ اسْمَ الإِيْمَانِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[72]، هَذَا إِذَا وَقَعَ قِتَالٌ، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا﴾ وَقَعَ مِنْهُمُ اقْتِتَالٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْقَاتِلِ الْمُتَعَدِّي الذِيْ يُمْكِنُ أَنْ يُعْفَى عَنْهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيْهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوْفِ﴾[73]، هَذَا فِي قَتْلِ الْعَمْدِ لَيْسَ فِي قَتْلِ الْخَطَأِ؛ لِأَنَّ قَتْلَ الْخَطَأِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَلَ أَحَدٌ بِهِ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا قَتَلَ إِنْسَانًا عَلَى سَبِيْلِ الْخَطَأِ، فَلَا يُقَالُ: لَا يُرْضِينَا إِلَّا أَنْ يُقْتَلَ حَتَّى لَوْ قَتَلَ أَلْفًا، لَوْ كَانَ قَائِدَ قِطَارٍ مَثَلًا فَنَعَسَ وَتَسَبَّبَ نَوْمُهُ فِي مَقْتَلِ أَلْفٍ مِنْ رُكَّابِ الْقِطَارِ وَنَجَا هُوَ، لَا يُقْتَلُ لَوْ قَتَلَ أَلْفًا أَوْ أَكْثَرَ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَهُ خَطَأً، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ إِلَّا فِي الْعَفْوِ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ الدِّيَةِ، فَمِنْ جِهَةِ الْعَمْدِ أَصْحَابُ الْعَمْدِ -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- يُخَيَّرُ وَرَثَةُ الدَّمِ بَيْنَ قَتْلِ الْقَاتِلِ وَبَيْنَ الْعَفْوِ إِلَى دِيَةٍ.

وَالْعَفْوُ نَوْعَانِ:

عَفْوٌ إِلَى دِيَةٍ: لِأَنَّهُمْ عَفَوْا عَنْ قَتْلِهِ.

وَعَفْوٌ إِلَى غَيْرِ دِيَةٍ، فَيَصْفَحُونَ عَنْهُ مُطْلَقًا، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فِي الْعَمْدِ ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[74].

وَهَكَذَا أَيْضًا الْعَفْوُ عَنِ الْقَاتِلِ خَطَأً، قَدْ يُعْفَى عَنِ الْقَاتِلِ خَطَأً بِأَنْ يُعْفَى عَنْهُ بِأَنْ تَسْقُطَ عَنْهُ الدِّيَةُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنْ يُعْفَى عَنْهُ مَعْنَى أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقْتَلُ فِي شَرْعِ اللهِ أَصْلًا الْقَاتِلُ الْخَطَأُ، وَإِنَّمَا قَاتِلُ الْعَمْدِ هُوَ الَّذِي يُعْفَى عَنْهُ إِلَى الدِّيَةِ أَوْ إِلَى الصَّفْحِ مُطْلَقًا، فَثَبَتَ الْقَتْلُ مَعَ اسْمِ الْأُخُوَّةِ، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا بِالْقَتْلِ لَمَا سُمِّيَ أَخًا لَهُ.

وَيَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْحَسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ يُصْلِحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ فِئَتَيْنِ

([71]) سورة الحجرات: 9.

([72]) سورة الحجرات: 10.

([73]) سورة البقرة: 178.

([74]) سورة البقرة: 178.

عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[75] كَمَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ الكَلَامُ عَلَيْهِ، إِذًا فَالكُفْرُ عَلَى هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ.

وَقَدْ بَوَّبَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النِّسَاءِ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ» بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الكُفْرَ مِنْهُ مَا هُوَ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ؛ لِقَوْلِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي النِّسَاءِ: «يَكْفُرْنَ». فَقَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «يَكْفُرْنَ بِاللهِ؟» قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ»[76]، فَأَطْلَقَ عَلَى كُفْرَانِ المَرْأَةِ لِعَشِيرِهَا كُفْرًا.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» لَيْسَ المُرَادُ بِهِ الكُفْرَ النَّاقِلَ عَنِ المِلَّةِ لِهَذِهِ النُّصُوصِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ إِطْلَاقَ الشَّرْعِ عَلَى القِتَالِ اسْمَ الكُفْرِ أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى فَدَاحَةِ أَمْرِ القِتَالِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ إِذَا كَانَ عَلَى البَاطِلِ، فَالقِتَالُ أَمْرُهُ شَدِيدٌ لِمَا فِيهِ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ، وَلِمَا فِيهِ مِنَ التَّعَدِّي، وَقُلْنَا: إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»[77]، وَلَا يُعَارِضُ ذَلِكَ كَوْنَ أَوَّلَ مَا يُنْظَرُ فِي عَمَلِ العَبْدِ الصَّلَاةُ، أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِي عَمَلِ العَبْدِ الصَّلَاةُ مِنْ جِهَةِ عَمَلِهِ الخَاصِّ؛ لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عُمُومِ الخَلَائِقِ القَضِيَّةُ الَّتِي يُقْضَى بَيْنَهُمْ فِيهَا جَمِيعًا هِيَ الدِّمَاءُ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ أَمْرَ الدِّمَاءِ أَمْرٌ شَدِيدٌ وَأَمْرٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الأَبْوَابِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مُتَحَوِّطًا غَايَةَ التَّحَوُّطِ مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا؛ نَظَرًا لِمَا فِيهَا مِنَ الجُرْمِ وَالإِثْمِ العَظِيمِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ دَخَلَ فِيهَا أَنْ يَقْتُلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ»، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا: «لَا يَزَالُ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[78]، فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا نُزِعَ مِنْهُ الحَيَاءُ»[79].

فَأَمْرُ القِتَالِ هَذَا الَّذِي يَتَسَاهَلُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَسْرَعِ مَا يَكُونُ عِنْدَهُ الرَّكْضُ إِلَى السِّلَاحِ وَإِزْهَاقُ الأَنْفُسِ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الأُمُورِ عِنْدَ اللهِ بِمَكَانٍ كَمَا قُلْنَا، وَلِهَذَا أَطْلَقَ الشَّرْعُ عَلَيْهِ هَذَا الإِطْلَاقَ -إِطْلَاقَ الكُفْرِ-، وَلَمَّا كَانَ القِتَالُ أَشَدَّ مِنَ السِّبَابِ لَاحِظْ لَفْظَ

([75]) أخرجه البخاري في كتاب الصلح- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي رضي الله عنهما: «**ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين**» (2704).

([76]) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب صلاة الكسوف جماعة (1052)، ومسلم في كتاب الكسوف- باب ما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم (907).

([77]) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة (6533)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين- باب المجازاة بالدماء في الآخرة (1678).

([78]) أخرجه البخاري في كتاب الديات- باب قول الله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم﴾ (6862).

(79) أخرجه هناد بن السري في «الزهد» (1363)، والطبراني في «المعجم الكبير» (9071/221/9)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

الحَدِيثِ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[80] أَطْلَقَ عَلَيْهِ الكُفْرَ؛ لِأَنَّ القِتَالَ أَشَدُّ مِنَ السِّبَابِ، وَلَكِنْ كَمَا فَصَّلْنَا لَا يَعْنِي ذَلِكَ بِلَا شَكٍّ الكُفْرَ الأَكْبَرَ، وَلَكِنْ يَدُلُّ عَلَى فَدَاحَةِ الجُرْمِ، وَقُلْنَا: إِنَّ أَهْلَ العِلْمِ يَقُولُونَ: إِنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ بَعْدَ الشِّرْكِ بِاللهِ أَنْ تُقْتَلَ النُّفُوسُ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَعْظَمُ ذَنْبٍ لِلْمُوَحِّدِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ فِي هَذَا عَظِيمٌ لِلْغَايَةِ.

وَرَدَ فِي سَبَبِ هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ انْتَهَى إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، وَفِي المَجْلِسِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالبَذَاءَةِ وَمُشَاتَمَةِ النَّاسِ، يَشْتُمُ هَذَا، مِثْلُ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ -نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ- مَعْرُوفٌ بِبَذَاءَةٍ لِسَانِهِ وَتَسَلُّطِهِ، فَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»؛ قَالَ الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَاللهِ لَا أُسَابُّ رَجُلًا»؛ يَعْنِي: بَعْدَ اليَوْمِ، بَعْدَ هَذَا الحَدِيثِ.

وَهَذَا مِنَ الفُرُوقِ العَظِيمَةِ جِدًّا بَيْنَ السَّلَفِ وَبَيْنَ مَنْ بَعْدَهُمْ، السَّلَفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إِذَا وَصَلَتْهُمُ النُّصُوصُ سَلَّمُوا وَانْتَهَوْا مِنَ المُنَازَعَاتِ، كَثِيرٌ مِمَّنْ لَمْ يُوَفَّقْ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ تُتْلَى عَلَيْهِمْ أَنْوَاعُ النُّصُوصِ فَلَا تُؤَثِّرُ وَلَا تُحَرِّكُ فِيهِمْ سَاكِنًا، أَمَّا أُولَئِكَ الأَخْيَارُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ النَّاسِ شَيْءٌ مِنَ البَذَاءَةِ وَالتَّسَلُّطِ، لَكِنْ مَزِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَتَتْهُمْ هَذِهِ النُّصُوصُ زَكَّتْهُمْ وَطَهَّرَتْهُمْ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي بُعِثَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى المَعَانِيَ العَظِيمَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[81].

حَاصِلُ الأَمْرِ: أَنَّ السِّبَابَ وَأَنَّ القِتَالَ كِلَيْهِمَا أَمْرَانِ عَظِيمَانِ وَأَمْرَانِ شَدِيدَانِ، فَسِبَابُ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ المُسْلِمِ عَلَى هَذَا الحَدِّ مِنَ الفُسُوقِ، وَهُوَ الذُّنُوبُ العِظَامُ، وَمَا جَاوَزَ ذَلِكَ مِنَ القِتَالِ وَإِزْهَاقِ الأَنْفُسِ أَوْ خَدْشِ أَخِيهِ المُسْلِمِ أَوْ كَسْرِ يَدِهِ أَوْ رِجْلِهِ أَوْ ضَرْبِهِ أَوْ غَيْرِهِ؛ كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي حَدِّ قَوْلِهِ: «وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»، وَهَذَا كُلُّهُ يَسْتَدْعِي المُسْلِمَ إِلَى تَهْذِيبِ لِسَانِهِ وَتَهْذِيبِ يَدِهِ، «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، الأَذِيَّةُ تَأْتِي مِنْ هَذَيْنِ، إِمَّا مِنَ اللِّسَانِ أَوْ مِنَ اليَدِ، فَإِذَا هَذَّبَ الإِنْسَانُ أَلْفَاظَهُ وَكَفَّ يَدَهُ عَنْ مَا لَا يَنْبَغِي فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ إِسْلَامًا وَمِنْ أَعْظَمِهِمْ إِيمَانًا.

([80]) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (48)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق (64).

([81]) سورة الجمعة: 2.

فَالحَاصِلُ: أَنَّهُ أَوْرَدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هَذَا البَابَ فِي كِتَابِ الفِتَنِ؛ لِأَنَّ الفِتَنَ مِنَ العَادَةِ يَكُونُ مَعَهَا سِبَابٌ، يَكُونُ مَعَهَا قِتَالٌ، فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ هَذَا البَابَ فِيهَا؛ نَظَرًا لِكَثْرَةِ مَا فِي الفِتَنِ بَيْنَ الوَاقِعِينَ فِيهَا مِنَ السَّبِّ وَالشَّتْمِ، وَأَيْضًا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ القِتَالِ وَنَحْوِهِ، فَالبَابُ مُنَاسِبٌ لِلْكِتَابِ، رَحِمَ اللهُ مَنْ صَنَّفَهُ.

2-«حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنِي وَاقِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ[82] أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[83].

هَذَا أَيْضًا الحَدِيثُ الآنَ يَتَّضِحُ بِشَرْحِ الحَدِيثِ السَّابِقِ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبْ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» بِالجَزْمِ، أَوْ «يَضْرِبُ» بِالضَّمِّ، «يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الكُفْرَ وَأَنَّ الكُفْرَ هُنَا لَيْسَ مُخْرِجًا مِنَ المِلَّةِ، وَلَكِنْ تَسْمِيَةُ القِتَالِ بِالكُفْرِ مِنْ دَلَائِلِ عِظَمِ وَفَدَاحَةِ شَأْنِ القِتَالِ، وَبِذَلِكَ يُعْلَمُ أَنَّ القِتَالَ الَّذِي يَقَعُ هَذَا هُوَ مِنَ القِتَالِ الوَاقِعِ تَحْتَ المَشِيئَةِ، هُوَ مِنَ الذُّنُوبِ الوَاقِعَةِ تَحْتَ المَشِيئَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[84]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ هَذِهِ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ أَنَّ جَمِيعَ المُشْرِكِينَ الشِّرْكَ الأَكْبَرَ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ نِهَائِيًّا.

وَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ حَتَّى الشِّرْكُ الأَصْغَرُ. قَالُوا: لِإِطْلَاقِ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾. قَالُوا: فَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي الوَعِيدِ، لَكِنَّ شِرْكَهُ لَا يَخْلُدُ بِهِ فِي النَّارِ، لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَيْهِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، وَهَذَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ اسْمُهُ شِرْكٌ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الإِطْلَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ يُرَادُ بِهِ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

([82]) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى الصحابي المشهور أمه زينب بنت مظعون الجمحية ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. (الإصابة في تمييز الصحابة: 181/4).

([83]) أخرجه البخاري في كتاب المغازي- باب حجة الوداع (4405)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**» (65) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

([84]) سورة النساء: 48.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ لَمَّا جَعَلَ تَعَالَى الحَدَّ الَّذِي لَا يُغْفَرُ هُوَ الشِّرْكُ بَيَّنَ مَا الَّذِي يُغْفَرُ وَلَمْ يُعَدِّدْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَمْ يَقُلْ: (وَيَغْفِرُ الزِّنَا وَالقَتْلَ وَالسَّرِقَةَ)، قَالَ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾. وَ«مَا» لَفْظَةٌ تَدُلُّ عَلَى العُمُومِ، فَالآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى مَغْفِرَةِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ الَّتِي تَقَعُ مِنَ المُوَحِّدِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَغْفِرَهَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ القَتْلُ بِلَا شَكٍّ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لِأَنَّ القَتْلَ قَطْعًا دُونَ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَى.

مِنْ أَقْوَى الأَدِلَّةِ عَلَى دُخُولِ القَتْلِ فِي مَشِيئَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَصْفَحَ تَعَالَى عَنِ القَاتِلِ إِنْ شَاءَ: حَدِيثُ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المُتَّفَقُ عَلَيْهِ وَمَرَّ مَعَنَا، وَهُوَ أَنَّهُمْ بَايَعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمُورٍ، مِنْهَا: أَلَّا يَقْتُلُوا النَّفْسَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَأَلَّا يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ وَأَلَّا يَزْنُوا وَلَا يَسْرِقُوا. قَالَ فِيهِ: «مَنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» أَوْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ القَتْلَ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ المَشِيئَةِ بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلًا دُونَ الشِّرْكِ؛ وَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَايَعَهُمْ عَلَى هَذَا وَمِنْهَا عَدَمُ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ، وَقَتْلُ الأَوْلَادِ أَشَدُّ أَنْوَاعِ القَتْلِ، إِذَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ ذَنْبُ قَتْلِ وَلَدِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ لَهُ – فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى؛ لِأَنَّ قَتْلَ الوَلَدِ نَوْعٌ مِنْ جِنْسِ القَتْلِ هُوَ أَشَدُّ الأَنْوَاعِ؛ لِأَنَّهُ قَتْلُ قَرِيبٍ، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ عَدَّ فِيهَا: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»[85].

فَلَمَّا قَالَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «فَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ» يَعْنِي: فَلَمْ يُعْرَفْ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَهُ «فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ»[86]، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُعْفَى عَنْهُ حَتَّى لَوْ كَانَ قَتْلًا، وَاللهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْفُوَ عَنِ الشِّرْكِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ القَتْلَ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ فِي حَدِّ المَغْفِرَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى المَغْفِرَةَ لِصَاحِبِهَا.

وَهَذِهِ أُمُورٌ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الأُمُورُ هُنَا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَنْ يَغْفِرُ لَهُ فِيمَنْ يُعَاقِبُهُ وَيُدْخِلُهُ النَّارَ، كُلُّ هَذِهِ إِلَيْهِ، لَكِنْ المَقْصُودُ: أَنَّ القِتَالَ لَا يَعْنِي فِي هَذَا الحَدِيثِ: الرِّدَّةَ كَمَا تَقُولُهُ الخَوَارِجُ؛ لِأَنَّ الخَوَارِجَ يُكَفِّرُونَ بِالذُّنُوبِ؛ كَالقِتَالِ وَالسَّرِقَةِ وَالزِّنَا وَنَحْوِهَا، وَهَذِهِ

([85]) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن– باب قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون} (4477)، ومسلم في كتاب الإيمان– باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعبده (86)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(86) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان– باب علامة الإيمان حب الأنصار (18).

مِنْ شِعَارَاتِهِمُ البَيِّنَةِ، أَنْ يُكَفِّرُوا بِالكَبَائِرِ، فَمَنْ كَفَّرَ بِالكَبَائِرِ فَهُوَ شِعَارٌ عَلَى كَوْنِهِ مِنَ الخَوَارِجِ، شِعَارٌ جَلِيٌّ وَاضِحٌ.

(8) «بَابٌ: تَكُونُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ»

«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ؛ فَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[87].

نَعَمْ، مِثْلُ مَا فِي الحَدِيثِ السَّابِقِ، المَلْجَأُ وَالمَعَاذُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، مَنْ وَجَدَ مَلْجَأً مِنْهَا فَإِنَّهُ يَعُوذُ بِهِ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ الذَّهَابُ إِلَى بِلَادِ الكُفَّارِ، هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ، بَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ المَلْجَأَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بِلَادٍ كَافِرَةٍ، لَا، المَلْجَأُ المَقْصُودُ كَمَا سَيَأْتِي فِي الحَدِيثِ أَنْ يُبْعِدَ عَنِ المَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ الفِتْنَةُ؛ لِأَنَّ الذَّهَابَ إِلَى بِلَادِ الكُفَّارِ لَا يَحِلُّ -كَمَا تَقَدَّمَ- إِلَّا بِشُرُوطٍ مُحَدَّدَةٍ وَاضِحَةٍ، أَمَّا أَنْ يَقْصِدَ أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ الفِتْنَةُ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ، أَنَّ الحَلَّ أَنْ يَذْهَبَ لِيُقِيمَ عِنْدَ الكُفَّارِ، لَا، لَيْسَ هَذَا حَلًّا، هَذَا أَعْظَمُ مِنَ الفِتْنَةِ الَّتِي فَرَّ مِنْهَا، وَإِنَّمَا المَقْصُودُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَوْضِعٍ يَعْصِمُهُ مِنَ الفِتْنَةِ، قَدْ تَكُونُ البَرِّيَّةُ بَعْضُ الأَحْيَانِ لَيْسَ فِيهَا مِثْلُ مَا فِي دَاخِلِ البِلَادِ، قَدْ تَكُونُ الأَرْيَافُ لَيْسَ فِيهَا مَا فِي المُدُنِ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَى المُسْلِمِينَ بِلَادَهُمْ كُلَّهَا مُدُنَهَا وَأَرْيَافَهَا، لَكِنْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ يَكُونُ التَّطَاحُنُ فِي المُدُنِ عِيَاذًا بِاللهِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ مَوْقِعُ القُوَّةِ وَفِيهَا الأَسْلِحَةُ يَعْنِي فِي الغَالِبِ، فَقَدْ يَجِدُ فِي الرِّيفِ مَوْضِعًا، قَدْ لَا يَجِدُ -عِيَاذًا بِاللهِ- لَا فِي الرِّيفِ وَلَا فِي المَدِينَةِ، فَلَا يَجِدُ إِلَّا شَعَفَ الجِبَالِ وَالأَوْدِيَةَ، فَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَفِرَّ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ المَوَاضِعِ، نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الحَدِيثِ هَذَا خُطُورَةُ الدُّخُولِ فِي الفِتَنِ، وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ عَلَى المُسْلِمِ أَلَّا يَكُونَ عَجُولًا سَرِيعًا مُتَّخِذًا لِلْقَرَارِ بِتَحْسِينِ ظَنِّهِ بِرَأْيِهِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ دَخَلُوا فِي فِتَنٍ لَوْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا أَهْلَ العِلْمِ لَبَصَّرُوهُمْ، وَلَكِنْ حَمَلَتْ بَعْضَهُمُ الحَمِيَّةُ، وَبَعْضُهُمْ تَحْمِلُهُ حَتَّى الغَيْرَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَعْلَمُ اللهُ مِنْ سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ نُصْرَةَ الإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ مُبْغِضٌ لِلْكُفْرِ وَالفُجُورِ وَالظُّلْمِ، لَكِنْ أَتَى البُيُوتَ مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا فَاشْتَرَكَ فِي الفِتْنَةِ، الفِتَنُ الأَصْلُ عَدَمُ الِاشْتِرَاكِ فِيهَا عِيَاذًا بِاللهِ، وَكَمَا قَدَّمْنَا فِي كَلَامِ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ

(87) سبق تخريجه.

قِتَالٍ، فَالقِتَالُ الَّذِي يَتَّضِحُ فِيهِ الظَّالِمُ مِنَ المظْلُومِ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ هَؤُلَاءِ مِنَ البُغَاةِ وَهَذَا مِمَّنْ لَهُ حُكْمٌ مُسْتَقِرٌّ شَرْعِيٌّ، هَذَا القِتَالُ فِيهِ مُتَعَيِّنٌ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ بِنَصِّ القُرْآنِ قِتَالُ البُغَاةِ إِنْ لَمْ يَنْزَجِرُوا، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ هَذَا هُوَ الأَصْلُ، أَنْ يُبْدَأَ بِالإِصْلَاحِ، ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾[88] مَا نَتَفَرَّجُ نَقُولُ: لَا شَأْنَ لَنَا بِهِمْ. هَؤُلَاءِ بَغَوْا بَغْيًا وَاضِحًا مُتَعَمَّدًا، وَهَذَا قَدِ اسْتَقَرَّ لَهُ الحُكْمُ الشَّرْعِيُّ، وَتَمَّتْ لَهُ البَيْعَةُ الشَّرْعِيَّةُ، فَالتَّوَقُّفُ لَا وَجْهَ لَهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ.

فَمِنْ هُنَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ أَنَّ القِتَالَ الَّذِي يَكُونُ لِلْبُغَاةِ أَوْ أَظْهَرُ مِنْهُ وَأَشَدُّ قِتَالُ الكُفَّارِ، فَيَقُولُ القَائِلُ: وَاللهِ قِتَالُ المسْلِمِينَ لِلْكُفَّارِ فِي بِلَادِ الرُّومِ وَفَارِسَ وَغَيْرِهَا نَحْنُ لَا نَدْخُلُ فِيهِ، مَا نَدْرِي. لَا، لَيْسَ هَذَا هُوَ المقْصُودَ قَطْعًا، لَيْسَ المقْصُودُ أَيَّ قِتَالٍ، وَلَكِنَّ المقْصُودَ القِتَالُ الَّذِي لَا يَتَّضِحُ فِيهِ وَجْهُ الصَّوَابِ، وَغَالِبُ مَا يَكُونُ هَذَا فِي القِتَالِ عَلَى المُلْكِ وَعَلَى الدُّنْيَا، كَمَا سَيَأْتِي فِي حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كَلَامِهِ.

فَالفِتَنُ إِذَا كَانَتْ غَيْرَ وَاضِحَةٍ أَوْ كَانَتْ عَلَى الدُّنْيَا؛ غَالِبُ القِتَالِ الَّذِي يُذَمُّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى الدُّنْيَا لِيَتَمَلَّكَ فُلَانٌ، أَوْ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ وَاضِحٍ، الرَّايَةُ الَّتِي سَتَأْتِي وَسَتَحِلُّ مَا هِيَ؟ وَاللهِ مَا نَدْرِي، لَكِنْ المهِمُّ يَزُولُ هَذَا، ثُمَّ، وَإِذَا زَالَ قَدْ يَأْتِيكَ مَنْ هُوَ أَخْبَثُ مِنْهُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، الرَّايَةُ الَّتِي تَرْفَعُهَا كَمَا قُلْنَا وَنُؤَكِّدُ عَلَيْهَا، وَأَكَّدَ عَلَيْهَا حَدِيثُ مُسْلِمٍ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ رَايَةً شَرْعِيَّةً حَتَّى يَكُونَ قَتْلَاهَا شُهَدَاءَ، وَحَتَّى يَكُونَ القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ رَايَةً شَرْعِيَّةً، فَإِنْ رُفِعَتْ أَيُّ رَايَةٍ سِوَى الإِسْلَامِ فَهِيَ رَايَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ وَيَغْضَبُ»، قَدْ يَحْمِلُهُ شَيْءٌ أَغْضَبَهُ «لِلْعَصَبَةِ فَقِتْلَتُهُ قِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»، وَفِي لَفْظٍ: «فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي».

فَالأَمْرُ عَظِيمٌ جِدًّا وَخَطِيرٌ لِلْغَايَةِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الأُمُورُ عِنْدَ المسْلِمِ وَاضِحَةً، وَنُعِيدُ مَا قُلْنَاهُ فِي أَمْرِ التَّغْيِيرِ الَّذِي أَزْعَجَنَا الإِعْلَامُ بِهِ وَأَكْثَرَ سَفَرَةُ الغَرْبِ مِنَ المطَالَبَةِ بِهِ، لَا بُدَّ مِنَ التَّغْيِيرِ، لَا بُدَّ مِنَ التَّغْيِيرِ، نَقُولُ: التَّغْيِيرُ كَلِمَةٌ ضَبَطَهَا الشَّرْعُ أَحْسَنَ ضَبْطٍ. لَيْسَ مِثْلَ ثَوْرَاتِكُمْ فِي فَرَنْسَا وَفِي غَيْرِهَا وَفِي غَيْرِهَا، وَالَّتِي لَا يُدْرَى لَهَا قُبُلٌ مِنْ دُبُرٍ، التَّغْيِيرُ فِي الشَّرْعِ لَهُ مَعْنًى مُحَدَّدٌ، هُوَ تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ»، يَعْنِي: يُغَيِّرُ البَاطِلَ لِيُحِلَّ مَحَلَّهُ الحَقَّ، «فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»، فَكَلِمَةُ التَّغْيِيرِ لَيْسَتْ شَيْئًا عَائِمًا، كَلِمَةُ التَّغْيِيرِ تَعْنِي تَغْيِيرَ الوَضْعِ الخَاطِئِ غَيْرِ الشَّرْعِيِّ مِنَ الْمُنْكَرِ كَبُرَ أَوْ صَغُرَ مِنَ

([88]) سورة الحجرات: 9.

الحَاكِمِ أَوْ مِنَ المحْكُومِ، بِالطَّرِيقِ الَّذِي بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَمْرِ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، يُغَيَّرُ بِاليَدِ لِمَنْ لَهُ سُلْطَةٌ، يُغَيَّرُ بِاللِّسَانِ لِمَنْ لَهُ عِلْمٌ، يُغَيَّرُ بِالقَلْبِ إِذَا عَجِزْنَا عَنِ اليَدِ وَعَنِ اللِّسَانِ.

ثُمَّ إِذَا أُرِيدَ التَّغْيِيرُ فَلَهُ ضَوَابِطُ ثَلَاثٌ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَةِ ضَبْطُهَا:

الضَّابِطُ الأَوَّلُ وَالأَهَمُّ وَالأَكْبَرُ: ضَابِطُ الرَّايَةِ، أَنْ تَكُونَ الرَّايَةُ الَّتِي يَجْتَمِعُ النَّاسُ حَوْلَهَا لِيُحْدِثُوا التَّغْيِيرَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ رَايَةَ الإِسْلَامِ، مَا تَكُونُ رَايَةً أُخْرَى، أَيُّ رَايَةٍ سِوَى الإِسْلَامِ تُرْفَعُ فَإِنَّهَا رَايَةٌ جَاهِلِيَّةٌ.

الضَّابِطُ الثَّانِي: الوَسِيلَةُ، الشَّرْعُ جَاءَ بِالوَسَائِلِ الكَرِيمَةِ المنَاسِبَةِ لِلتَّغْيِيرِ فِي حَالِ السِّلْمِ وَفِي حَالِ الحَرْبِ، فَهُنَاكَ وَسَائِلُ شَرْعِيَّةٌ يَتِمُّ بِهَا التَّغْيِيرُ فِي السِّلْمِ، وَهُنَاكَ وَسَائِلُ شَرْعِيَّةٌ يَتِمُّ بِهَا التَّغْيِيرُ فِي الحَرْبِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الوَسِيلَةُ وَسِيلَةً شَرْعِيَّةً، وَلَا تَكُونُ وَسِيلَةً غَيْرَ شَرْعِيَّةٍ كَمَا قَالَ –بِكُلِّ أَسَفٍ– بَعْضُ النَّاسِ: حَتَّى لَوْ كَانَتِ الوَسِيلَةُ غَيْرَ شَرْعِيَّةٍ لَكِنِ انْظُرِ النَّتَائِجَ!

يَا إِخْوَانِي هَذِهِ نَظَرِيَّةُ عَدُوِّ اللهِ مِيكْيَافِيلِّي عَدُوِّ اللهِ وَرَسُولِهِ، الَّذِي يَقُولُ: «الغَايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ»، يَعْنِي: أَنْتَ عِنْدَكَ غَايَةٌ مُعَيَّنَةٌ تُرِيدُهَا ابْحَثْ عَنْ أَيِّ وَسِيلَةٍ، هَكَذَا أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ، مَا عِنْدَهُمْ ضَبْطٌ، مَا عِنْدَهُمْ أَحْكَامٌ وَاضِحَةٌ، فَيَقُولُ: مَا دَامَ لَكَ غَايَةٌ فَارْكَبْ أَيَّ وَسِيلَةٍ. لَا، لَوْ كَانَتْ غَايَتُكَ شَرِيفَةً –أَشْرَفُ غَايَةٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ هِيَ غَايَةُ المسْلِمِ– لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الوَسِيلَةُ المؤَصِلَةُ إِلَيْهَا شَرْعِيَّةً، وَلَا تَرْكَبْ وَسِيلَةً جَاهِلِيَّةً، وَلَا تَرْكَبْ وَسِيلَةً مُحَرَّمَةً، فَفِي الوَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ مَا يَكْفِي؛ لِأَنَّكَ بِهَذَا كَالَّذِي يُصَوِّرُ الشَّرْعَ فِي وَسَائِلِهِ بِالعَاجِزِ القَاصِرِ، كَأَنَّكَ تَقُولُ: وَسَائِلُ الشَّرْعِ لَيْسَتْ كَافِيَةً، فَنَحْتَاجُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ وَسَائِلِ هَؤُلَاءِ الجَاهِلِيِّيْنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الغَايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ.

فَإِذَا اتَّضَحَتِ الرَّايَةُ، وَاسْتَخْدَمْتَ الوَسِيلَةَ الشَّرْعِيَّةَ، فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ، يُنْظَرُ فِي أَمْرِ عَوَاقِبِ التَّغْيِيرِ، هَلِ التَّغْيِيرُ سَيَكُونُ مَصْلَحَةً لِلْأُمَّةِ، أَوْ سَيَكُونُ مَضَرَّةً تَعُودُ عَلَى الأُمَّةِ بِالأَسْوَأِ وَالأَشَدِّ؟

وَكَيْفَ نَعْرِفُ هَذَا؟! نَحْنُ لَا نَعْلَمُ الغَيْبَ، لَكِنْ إِذَا رُدَّتِ الأُمُورُ إِلَى مَنْ أَمَرَ اللهُ أَنْ تُرَدَّ إِلَيْهِمْ ﴿**وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[89] قَالَ أَهْلُ العِلْمِ: المرَادُ بِهِمُ ﴿**الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ**﴾ المرَادُ بِهِمْ: أَهْلُ العِلْمِ.

([89]) سورة النساء: 83.

وَلِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سِعْدِيٍّ فِي هَذِهِ الآيَةِ كَلَامٌ لَمْ أَرَ مُفَسِّرًا تَكَلَّمَ بِأَفْضَلَ مِمَّا تَكَلَّمَ بِهِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، تَكَلَّمَ بِمَرَارَةٍ عَمَّا يَقَعُ مِنَ المسْلِمِينَ حِينَ يَقَعُ أَمْرٌ فِيهِ خَوْفٌ، يَقُولُ: كَيْفَ يُذِيعُونَ بِهِ وَيَطِيْرُونَ بِهِ كَمَا يَطِيْرُ الإِعْلَامُ الآنَ؟! اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ أَنْ يُرَدَّ هَذَا الأَمْرُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ؛ لِأَنَّ رَدَّهُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ قَدْ يَسْتَوْجِبُ عَدَمَ إِذَاعَتِهِ أَصْلًا، مَنْ قَالَ: إِنَّ كُلَّ أَمْرٍ يُذَاعُ؟ ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ**﴾ ذَمَّ اللهُ هَذَا، ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾، يَقُولُ: فَيَقُولُ أَهْلُ العِلْمِ: يُذَاعُ هَذَا، وَفِي بَعْضِ الأُمُورِ يَقُولُونَ لَا يُذَاعُ هَذَا؛ لِعَدَمِ المِصْلَحَةِ فِيهِ، أَوْ يَقُولُونَ: لَا يُذَاعُ؛ لِأَنَّ المِضَرَّةَ فِي إِذَاعَتِهِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الإِذَاعَاتُ الآنَ تُذِيعُ كُلَّ شَيْءٍ رَأَيْتَ آثَارَ مُخَالَفَةِ هَذَا الهَدْيِ الشَّرْعِيِّ، وَتَكَلَّمَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: كَيْفَ أَنَّ المسْلِمِيْنَ خَالَفُوا هَذَا الأَدَبَ القُرْآنِيَّ، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى المسْلِمِينَ أَنْ يَبْنُوا إِعْلَامَهُمْ بِنَاءً إِسْلَامِيًّا؛ لِأَنَّ بَعْضَ الأُمُورِ مِنَ القَذَارَاتِ وَالدَّنَاسَاتِ وَالوَقَاحَاتِ، كَأَنْ يَأْتِيَ خَبَرٌ بِأَنَّ شَابًّا فَعَلَ بِأُخْتِهِ عِيَاذًا بِاللهِ، لَا يُذَاعُ يَا إِخْوَةُ، كَيْفَ يُذَاعُ هَذَا؟! هَذَا فَضِيحَةٌ مِنَ الفَضَائِحِ الَّتِي تَجْتَلِبُ عَلَى المسْلِمِينَ الشَّرَّ، فَتَفْرَحُ هَذِهِ الوَسَائِلُ الإِعْلَامِيَّةُ بِأَنْ تَجِدَ مِثْلَ هَذَا، وَتَجِدُ أَنَّ الخَبَرَ يُذَاعُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَعُودُ عَلَى المسْلِمِينَ بِأَخَسِّ مَا يَكُونُ مِنَ المَذَلَّةِ، مِثْلُ هَذِهِ أَخْبَارٌ دَنِسَةٌ قَذِرَةٌ، وَهِيَ –وَللهِ الحَمْدُ– لَيْسَتْ كَثِيرَةً، فَتُعَالَجُ فِي المحَاكِمِ، وَلَا تَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الإِذَاعَةِ بِأَنْ يُظْهَرَ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ كُلَّ خَبَرٍ يُذَاعُ؟!

فَالحَاصِلُ: أَنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ ذَكَرَ كَلَامًا فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَةِ فِي أَمْرِ النَّظَرِ فِي المفَاسِدِ وَالمصَالِحِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا: أَنْ يُرَدَّ الأَمْرُ إِلَى أَهْلِ العِلْمِ، هَذِهِ الضَّوَابِطُ العَظِيمَةُ المدَلَّلُ عَلَيْهَا بِأَدِلَّةِ الشَّرْعِ غَايَةٌ فِي الأَهَمِّيَةِ، تَضْبِطُ لَنَا التَّغْيِيرَ، هَذِهِ العِبَارَاتُ الآنَ الَّتِي صِرنَا نَسْمَعُهَا وَيَأْتِي الإِعْلَامُ وَيَسْأَلُ: تُشَجِّعُ التَّغْيِيرَ أَوْ مَا تُشَجِّعُ التَّغْيِيرَ؟! يَقُولُ: أَنَا أُشَجِّعُ التَّغْيِيرَ. وَالثَّانِي يَقُولُ: أَنَا لَا أُشَجِّعُ التَّغْيِيرَ. وَهُوَ لَا يَدْرِي مَاذَا يُرِيدُونَ بِكَلِمَةِ التَّغْيِيرِ، الغَالِبُ عَلَى التَّغْيِيرِ الَّذِي تَسْمَعُهُ الآنَ تَغْيِيرَ أَوْضَاعِ المسْلِمِينَ، يَكُونُ صُورَةً طِبْقَ الأَصْلِ مِنْ: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[90] فِي الغَرْبِ وَفِي غَيْرِهِ، هَذَا هُوَ المقْصُودُ، هَذَا الَّذِي يُدَنْدِنُونَ حَوْلَهُ وَبَذَلُوا فِيهِ الأَمْوَالَ، فَنَحْنُ لَا نَطِيشُ مَعَ مَنْ يَطِيشُ، وَلَا نُطَالِبُ بِمُطَالَبَاتِ هَؤُلَاءِ، وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُغَيِّرَ نُغَيِّرُ بِالأُسْلُوبِ الشَّرْعِيِّ وَتُغَيَّرُ الأَخْطَاءُ؛ لِأَنَّهُمْ هُنَاكَ فِي الغَرْبِ يُرِيدُونَ أَنْ تُغَيَّرَ أُمُورُ الصَّوَابِ عِنْدَ المسْلِمِينَ، فَيَقُولُونَ: لَا بُدَّ أَنْ يُغَيَّرَ أَمْرُ الحُدُودِ، لَا بُدَّ أَنْ يُغَيَّرَ أَمْرُ الحِجَابِ، لَا بُدَّ أَنْ يُغَيَّرَ أَمْرُ التَّعَدُّدِ، هَذِهِ أُمُورٌ مِنَ الدِّينِ.

([90]) سورة الفرقان: 44.

وَقَدْ مَدَحَ اللهُ مَنْ لَمْ يُغَيِّرْ وَلَمْ يُبَدِّلْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾[91]، الخَيْرُ وَالحَقُّ مَا يُبَدِّلُ، الدِّينُ وَالسُّنَّةُ مَا تُبَدَّلُ؛ لِأَنَّهَا إِذَا بُدِّلَتِ انْقَلَبَتْ عَلَى العَقِبِ، فَهَذِهِ المطَالَبَاتُ بِالتَّغْيِيرِ وَغَيْرِهَا أَضْحَتْ بِكُلِّ أَسَفٍ بِسَبَبِ الجَهْلِ بِمَقَاصِدِ أُولَئِكَ وَبِسَبَبِ الكَلِمَاتِ العَائِمَةِ الَّتِي تُقَالُ وَبِسَبَبِ الظَّنِّ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ مَنْ لَا يَفْهَمُ أَنَّ الشَّرْعَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ مِثْلِ التَّغْيِيرِ وَغَيْرِهِ مَا لَهُ ضَوَابِطُ، جَعَلَ كَثِيرِينَ يَدْخُلُونَ فِيهَا هَكَذَا بِدُونِ قَيْدٍ وَبِدُونِ شَرْطٍ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأُمُورِ تُفِيدُ المسْلِمَ الخَوْفَ الشَّدِيدَ مِنْ أَمْرِ الفِتَنِ، وَلِهَذَا قُلْنَا: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ: «**عَمْيَاءُ صَمَّاءُ**» نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، الشَّيْءُ الَّذِي فِيهِ عَمًى وَصَمَمٌ لَا يُعْرَفُ لَهُ وَجْهٌ كَيْفَ يُدْخَلُ فِيهِ؟! وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرَ وَاضِحٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، أَوْ بِنَقْلِ المسْلِمِينَ لِيَكُونُوا مُغَيِّرِينَ لِسُنَّةِ الإِسْلَامِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، فَيَكُونُوا عَلَى سُنَنِ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، كَمَا قُلْنَا فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»، تَجِدُ الَّذِي يَسْعَى فِي هَذَا هُمُ الأَشْرَارُ، «**لَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِيْنَ خَلَوا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**»[92] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ تَغْيِيرَ أَوْضَاعِ المسْلِمِينَ السِّيَاسِيَّةِ وَالاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ لِتَكُونَ إِلَى الأَحْسَنِ وَعَلَى وِفْقِ الشَّرْعِ. هَذَا هُوَ التَّغْيِيرُ، لِأَنَّ الْمُنْكَرَ فِي أَيِّ جَانِبٍ مِنْ هَذِهِ الجَوَانِبِ هُوَ الَّذِي يُغَيَّرُ، أَمَّا أَنْ تُبَدَّلَ الأَحْوَالُ الصَّحِيحَةُ؛ كَالحُدُودِ، وَكَأَمْرِ الحِجَابِ، وَمَنْعِ الاِخْتِلَاطِ لِيَخْتَلِطَ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ، وَلِكَيْ لَا تَتَحَجَّبَ النِّسَاءُ، وَلِتَكُونَ الأُمُورُ شَذَرَ مَذَرَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ أُولَئِكَ – أَنْتَ تَدْخُلُ فِي فِتْنَةٍ لَا تَدْرِي بِأَبْعَادِهَا، وَتَكُونُ وَاحِدًا مِنَ الَّذِينَ يَهْدِمُونَ الدِّينَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، وَتُسْتَخْدَمُ وَسِيلَةً لَا تَدْرِي لِلْغَايَةِ الَّتِي دَخَلْتَ فِيهَا.

وَلِهَذَا مِثْلُ هَذِهِ الأُمُورِ لَا يُدْخَلُ فِيهَا، إِمَّا أَنْ تَكُونَ غَيْرَ وَاضِحَةٍ، أَوْ أَنْ تَكُونَ ذَاتَ رَايَةٍ جَاهِلِيَّةٍ فَاسِدَةٍ، أَوْ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ مُسْلِمِينَ يَتَقَاتَلُونَ عَلَى الدُّنْيَا، هَذَا يُرِيدُ المُلْكَ، يُرِيْدُ يَنْزِعُ هَذَا مِنْهُ، فَيَتَقَاتَلُونَ وَيَتَذَابَحُونَ عَلَى هَذَا.

وَقَدْ قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «إِذَا أَقْبَلَتِ الفِتْنَةُ رَآهَا العَالِمُ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ رَآهَا كُلُّ أَحَدٍ»، إِذَا رُئِيَتْ آثَارُ الفِتْنَةِ وَمَا فَعَلَتْ بِالنَّاسِ كُلُّ أَحَدٍ يَقُولُ: صَحِيحٌ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً. لَيْسَ العِبْرَةُ أَنْ تَعْرِفَ إِذَا انْتَهَتْ، إِذَا انْتَهَتْ سَيَعْلَمُ العَالِمُ وَالجَاهِلُ وَالصَّغِيرُ وَالكَبِيرُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِتْنَةٌ، لَكِنَّ الشَّأْنَ فِي بَدْئِهَا حِينَ تَأْتِي، وَسَيَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِي «**بَابِ الفِتْنَةِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ**»، كَيْفَ أَنَّ السَّلَفَ

([91]) سورة الأحزاب: 23.

(92) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» (7320)، ومسلم في كتاب العلم- باب اتباع سنن اليهود والنصارى (2669).

يُذَكِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالفِتْنَةِ.

الحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةً تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولِ

حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلِ

شَمْطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلثَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

أَوَّلُ مَا تَرِدُ يَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ جَاهِلٍ، ثُمَّ إِذَا أَدْبَرَتْ وَإِذَا بِهَا تِلْكَ الشَّابَّةُ الفَتِيَّةُ إِذَا بِهَا عَجُوزٌ شَمْطَاءُ مَكْرُوهَةُ العِشْرَةِ وَمَكْرُوهَةُ التَّقْبِيلِ، فَكُلُّ هَذَا مِمَّا يُوجَدُ عِنْدَ المُسْلِمِ هَذَا، لَا تَكُنْ قَائِمًا فِي الفِتْنَةِ، وَلَا قَاعِدًا، وَلَا سَاعِيًا، وَلَا مَاشِيًا، فَكُلُّهُمْ مَذْمُومُونَ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَقَلَّ فِي الذَّمِّ مِنْ بَعْضٍ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

(9) «بَابٌ: إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا»

«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ رَجُلٍ لَمْ يُسَمِّهِ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: خَرَجْتُ بِسِلَاحِي لَيَالِيَ الْفِتْنَةِ فَاسْتَقْبَلَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ نُصْرَةَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قِيلَ: فَهَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ. (93)

هَذَا البَابُ العَظِيمُ بَوَّبَهُ عَلَى هَذَا الحَدِيثِ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا**»، فَتَرَكَ بَقِيَّتَهُ فِي الحَدِيثِ.

أَنَّ الحَدِيثَ مِنْ طَرِيقِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، يَرْوِيهِ الحَسَنُ، عَنِ الأَحْنَفِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ.

قَالَ: «أَيْنَ تُرِيدُ؟» قُلْتُ: «**أُرِيدُ نُصْرَةَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»، يَعْنِي: عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ،

(93) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما (7083)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (2888).

فَقَالَ: فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «ارْجِعْ»[94]، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ». قِيلَ: «فَهَذَا الْقَاتِلُ» يَعْنِي: أَمْرُهُ وَاضِحٌ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. «فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟» يَعْنِي: مَا ذَنْبُهُ وَقَدْ قُتِلَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ» هُوَ مَا وَاجَهَ صَاحِبَهُ بِالسَّيْفِ إِلَّا لِأَنَّهُ يُرِيدُ قَتْلَهُ، لَكِنَّ ذَاكَ تَمَكَّنَ مِنْهُ، وَلِهَذَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[95].

وَلِهَذَا قُلْنَا: إِنَّ أَبَا بَكْرَةَ رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا رَوَى هَذَا الحَدِيثَ وَرَوَى الحَدِيثَ السَّابِقَ فِي البَابِ السَّابِقِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ وَأَبْشَارَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»[96] اخْتَارَ اعْتِزَالَ القِتَالِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَرَأَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَاجَهَ مُسْلِمَانِ بِالسُّيُوفِ لِخَطَرِ هَذَا الحَدِيثِ.

يَأْتِي الكَلَامُ عَلَى القِتَالِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَبَيْنَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، وَالقِتَالِ أَيْضًا الَّذِي بَيْنَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا جَمِيعًا، قُلْنَا: إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَ بِفِتْنَةٍ، وَسَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: «إِنِّي لَأَرَى الْفِتَنَ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»، وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِفِتْنَةٍ أَيْضًا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى الكَلَامُ عَلَيْهَا فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ، وَالشَّرِّ الَّذِي يَقَعُ بَعْدَ الخَيْرِ، وَأَوَّلُ شَرٍّ وَقَعَ وَسَبَّبَ فِتْنَةً وَفُرْقَةً هُوَ قَتْلُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَظْلُومًا، فَتَفَرَّعَ عَنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِن الفِتَنِ المُتَلَاحِقَةِ؛ مِنْ قِتَالِ صِفِّينَ، وَقِتَالِ الجَمَلِ وَغَيْرِهَا.

لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ بُويِعَ لِعَلِيٍّ، وَبَايَعَهُ طَلْحَةُ، وَبَايَعَهُ الزُّبَيْرُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ تَرَدُّدٌ فِي أَنَّ عَلِيًّا أَفْضَلُ المَوْجُودِينَ، وَجَاءَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ أَنَّ الأَحْنَفَ لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ سَأَلَ طَلْحَةَ وَسَأَلَ الزُّبَيْرَ وَسَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنِ الجَمِيعِ: «مَنْ أَلْزَمُ؟» قَالُوا كُلُّهُمْ: «الْزَمْ عَلِيًّا»، وَهَذَا الأَثَرُ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَةِ؛ إِذْ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ يُقَاتِلُ عَلِيًّا يَقُولُ: لَا أَرْضَى بِهِ خَلِيفَةً، أَبَدًا، لَمْ يَكُنْ هَذَا وَاقِعًا، وَلِهَذَا طَوَالَ السِّنِينَ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا القِتَالُ لَمْ يُنَصَّبْ أَحَدٌ خَلِيفَةً غَيْرَ عَلِيٍّ.

وَجَاءَ بِسَنَدٍ فِي غَايَةِ الأَهَمِّيَةِ -وَهُوَ صَحِيحٌ وَأَشَارَ إِلَيْهِ الحَافِظُ- أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ الخَوْلَانِيَّ ذَهَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَالَ: «تُقَاتِلُ

(94) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (31).

(95) أخرجه البخاري في كتاب الديات- باب قول الله تعالى: {ومن أحياها} (6875).

(96) أخرجه البخاري في كتاب الحج- باب الخطبة أيام منى (1741)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات- باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (1679).

عَلِيًّا؟ أَفَأَنْتَ مِثْلُهُ؟!»، قَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنِّي، وَأَوْلَى بِالْأَمْرِ مِنِّي، وَلَكِنْ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنِّي ابْنُ عَمِّ عُثْمَانَ؟ لِيَدْفَعْ لِي قَتَلَتَهُ وَأُسَلِّمْ لَهُ»، فَكَانَ أَصْلُ النِّزَاعِ فِي قَتْلِ عُثْمَانَ، وَلِهَذَا جَاءَ عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –كَمَا فِي «المصَنَّفِ» عِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ– أَنَّهُ قَالَ: «مَا قَاتَلْتُ عَلِيًّا إِلَّا فِي شَأْنِ عُثْمَانَ»، يَعْنِي: مَا قَاتَلْتُهُ لِأَنِّي لَا أُرِيدُهُ خَلِيفَةً، وَلَمْ يَقُلْ هَذَا أَحَدٌ، لَا طَلْحَةُ وَلَا الزُّبَيْرُ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ بَلْ بَايَعَ طَلْحَةُ وَبَايَعَ الزُّبَيْرُ، وَرَأَوْا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَفْضَلُ الموْجُودِينَ، وَأَلَحُّوا عَلَيْهِ، وَخَوَّفُوهُ بِاللهِ أَلَّا يُمْسِكَ الخِلَافَةَ، قَالُوا: «لَا بُدَّ أَنْ تُمْسِكَهَا حَتَّى لَا تَضِيعَ الأُمَّةُ».

فَمَا كَانَ هُنَاكَ إِشْكَالٌ فِي أَصْلِ تَوْلِيَةِ عَلِيٍّ نِهَائِيًّا، وَأَرْغَمَ اللهُ بِأُنُوفِ الرَّافِضَةِ، الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ الأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا، فَمَا كَانَ هُنَاكَ أَحَدٌ يَقُولُ: لَا نُرِيدُ عَلِيًّا. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِيهِمْ أَصْلًا طَبْعًا حَتَّى يَقُولُوا: لَا نُرِيدُ هَذَا أَوْ نُرِيدُ هَذَا، إِذَا بُويِعَ انْتَهَى، تَمَّتِ البَيْعَةُ، فَجَاءَتْ هَذِهِ المشْكِلَةُ، وَهِيَ مُشْكِلَةُ قَتَلَةِ عُثْمَانَ، فَقَالَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: «هَذَا الْخَلِيفَةُ الَّذِي ثَبَتَتْ خِلَافَتُهُ قُتِلَ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الْخَبِيثَةِ»، وَلَمْ يُمَكَّنْ حَتَّى مِنْ دَفْنِهِ إِلَّا مِنْ أَرْبَعَةٍ، سَيْطَرُوا عَلَى الْمَدِينَةِ أَخَذَهُمُ اللهُ، لَمْ يَحْمِلْ جُثْمَانَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَّا أَرْبَعَةٌ فَقَطْ، وَذَهَبُوا بِهِ عَجِلِينَ وَدَفَنُوهُ، وَكَأَنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ فَجَرَةِ النَّاسِ، خَلِيفَةُ المسْلِمِينَ لَا يَدْفِنُهُ إِلَّا أَرْبَعَةٌ؟ فَاغْتَاظَ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَاغْتَاظَ أَهْلُ الشَّامِ، وَقَالُوا: «لَا نَحُلُّ عَقْدَهُ بَتَاتًا حَتَّى يُقْتَلَ الْقَتَلَةُ ثُمَّ لِيَتَوَلَّنَا أَيُّ أَحَدٍ»، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «قَتْلُ الْقَتَلَةِ غَيْرُ مُمْكِنٍ، البِلَادُ الخُطُوبُ فِيهَا مُدْلَهِمَّةٌ؛ فَكَيْفَ يُمْكِنُ قَتْلُ الْقَتَلَةِ؟» لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْيَدُ وَاحِدَةً، فِي الشَّامِ وَفِي مِصْرَ وَفِي الْعِرَاقِ وَفِي الْحِجَازِ وَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ فَيَتَحَدَّدُ الْقَتَلَةُ، خَاصَّةً وَأَنَّ القَتَلَةَ –أَخْزَاهُمُ اللهُ– انْحَازُوا إِلَى قَبَائِلِهِمْ، فَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى تُجَيْبٍ فَتَأْتِي بِالتُّجَيْبِيِّ، وَتَذْهَبَ إِلَى تَمِيمٍ فَتَأْخُذَ التَّمِيمِيَّ، لَيْسَ الأَمْرُ بِالهَيِّنِ، حَتَّى تَهْدَأَ الأَوْضَاعُ.

وَكَانَ الصَّوَابُ مَعَهُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ، أَهْلُ السُّنَّةِ يُقَرِّرُونَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَوْلَى بِالصَّوَابِ، وَلَكِنْ جَاءَ حَدِيثٌ فِيهِ مَلْحَظٌ لَحَظَهُ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الخَوَارِجِ: «**تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ**»[97] مَنِ الَّذِي قَتَلَ الخَوَارِجَ؟ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: فَقَوْلُهُ: «**أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ**» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّائِفَتَيْنِ مَعَ بَعْضِهِمْ مَعَهُمْ بَعْضُ الحَقِّ، وَلَكِنَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَوْلَى وَأَجْدَرُ مِنَ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ بِالحَقِّ، يَعْنِي: أَنَّ لَيْسَ عِنْدَنَا طَائِفَةٌ ضَالَّةٌ فَاجِرَةٌ، وَطَائِفَةٌ مُحِقَّةٌ مُصِيبَةٌ بِنِسْبَةِ مِائَةٍ فِي المِائَةِ، هَؤُلَاءِ مَعَهُمْ حَقٌّ هُوَ الأَقْوَى وَالأَكْثَرُ وَالأَجْدَرُ، وَهُوَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا قُطَّاعَ طَرِيقٍ وَفُجَّارًا، حَاشَاهُمْ وَأَجَلَّ اللهُ مَقَامَهُمْ! لَكِنْ كَانَ

(97) أخرجه البخاري في كتاب المناقب– باب علامة النبوة في الإسلام (3610)، ومسلم في كتاب الزكاة– باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1065).

عِنْدَهُمْ قَضِيَّةٌ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِعَلِيٍّ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، لَكِنْ هَذَا الْمُنْكَرُ وَهُوَ قَتْلُ هَذَا الْخَلِيفَةِ الَّذِي قَبْلَ عَلِيٍّ وَأَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ، يَجِبُ أَنْ يُبْدَأَ بِهَذَا الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ، فَقَدَّرَ اللهُ تَعَالَى أَنْ وَقَعَ القِتَالُ، وَأَيْنَ وَقَعَ القِتَالُ بَيْنَ عَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ؟ كُلُّهُمْ فِي المَدِينَةِ، أَيْنَ وَقَعَتْ مَوْقِعَةُ الجَمَلِ؟ فِي البَصْرَةِ، لَوْ كَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُرِيدَانِ قِتَالَ عَلِيٍّ لَقَاتَلَاهُ أَيْنَ؟ فِي المَدِينَةِ، فَذَهَبَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِمَنْ مَعَهُمْ وَصَحِبَتْهُمْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَاتَّجَهُوا إِلَى البَصْرَةِ؛ لِأَنَّ البَصْرَةَ وَفَدَ مِنْهَا مَجْمُوعَةٌ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ، وَأَرَادُوا قِتَالَ أَهْلِ البَصْرَةِ، فَأَحْفَظَ هَذَا عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الخَلِيفَةُ، وَالوَاجِبُ أَنْ يُسْمَعَ لَهُ وَيُطَاعَ، وَأَلَّا يَحْدُثَ هَذَا الأَمْرُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَتَبِعَهُمْ لَا يُرِيدُ قِتَالَهُمْ، أَرَادَ أَنْ يَرُدَّهُمْ وَيَقُولَ: قِفُوا، حَتَّى لَوْ أَرَدْنَا قَتْلَ القَتَلَةِ فَإِنَّكُمْ مَا تَتَوَلَّوْنَ هَذَا أَنْتُمْ. فَكَتَبَ اللهُ تَعَالَى أَنْ وَقَعَتِ المَوْقِعَةُ بِغَيْرِ رِضَا الطَّرَفَيْنِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ المؤَرِّخِينَ: إِنَّ بَدْءَ القِتَالِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ لَمْ يُرِدْهُ الجَمِيعُ، وَإِنَّمَا أَثَارَهُ مَنْ؟ أَثَارَهُ الفَجَرَةُ الَّذِينَ قَتَلُوا عُثْمَانَ؛ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ عَلِيًّا وَالزُّبَيْرَ وَطَلْحَةَ قَدِ الْتَأَمَ أَمْرُهُمْ عَلَى قَتْلِ القَتَلَةِ فِي البَصْرَةِ، فَأَرَادُوا أَلَّا يَتَفَرَّجُوا حَتَّى يُؤْخَذُوا، فَأَثَارُوا القِتَالَ وَصَارَ مَا صَارَ وَنَدِمَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى مَا وَقَعَ، وَمِنْهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا رَأَى طَلْحَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَتِيلًا صَارَ يُزِيلُ التُّرَابَ عَنْ جَبْهَتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَيَقُولُ: يَعِزُّ عَلَيَّ أَبَا مُحَمَّدٍ أَنْ أَرَاكَ مُجَنْدَلًا تَحْتَ نُجُومِ السَّمَاءِ، يَا حَسَنُ، لَيْتَ أَبَاكَ مَاتَ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً. يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ أَنْ أَرَى طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ مَقْتُولًا.

وَلَا تَعْجَبْ؛ فَكُلُّهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ زُمَلَاءُ خَيْرٍ فِي الهِجْرَةِ، وَفِي الصَّبْرِ عَلَى أَذَى الكُفَّارِ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ زُمَلَاءُ فِي الهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ وَفِي بَدْرٍ وَفِي أَحَدٍ وَفِي الخَنْدَقِ، وَفِي المَشَاهِدِ وَفِي قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ، وَفِي فَتْحِ الرُّومِ وَفِي فَتْحِ فَارِسَ، كُلُّهُمْ كَانُوا مُتَعَاضِدِينَ عَلَى هَذَا، ثُمَّ جَاءَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ، فَلَمْ يَهُنْ عَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ هَذَا.

وَلَمَّا قَتَلَ ابْنُ جُرْمُوزٍ الزُّبَيْرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اسْتَأْذَنَ مِنَ الغَدِ عَلَى عَلِيٍّ وَقَالَ: قَاتِلُ الزُّبَيْرِ بِالبَابِ. يُرِيدُ عَلِيًّا أَنْ يُعْطِيَهُ شَيْئًا، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ ضِمْنَ الحَشَمِ. قَالَ: بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ. فَغَضِبَ ابْنُ جُرْمُوزٍ قَالَ: أَنَا أَقْتُلُهُ لِأَجْلِهِ ثُمَّ يَقُولُ: بَشِّرْهُ بِالنَّارِ؟ لِأَنَّ الزُّبَيْرَ وَطَلْحَةَ وَعَلِيًّا قَدْ جَاءَ الحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ العَشَرَةِ، وَقَالَ: بَشِّرِ ابْنَ جُرْمُوزٍ –الَّذِي فَرِحَ الآنَ بِقَتْلِ الزُّبَيْرِ وَإِنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَتَلَهُ لِأَجْلِي– بَشِّرْهُ بِالنَّارِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» لَا يَتَنَاوَلُ الصَّحَابَةَ؛ لأُمُورٍ:

مِنْهَا: أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ يُرَادُ بِهِ القِتَالُ عَلَى الدُّنْيَا، كَمَا فِي لَفْظِ البَزَّارِ: «إِذَا اقْتَتَلْتُمْ عَلَى الدُّنْيَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»[98].

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ وَقُطِعَ قَطْعًا بِأَنَّ عَلِيًّا فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرَ الَّذِي قَاتَلَهُ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةَ الَّذِي قَاتَلَهُ فِي الجَنَّةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، فَقَتْلَى هَؤُلَاءِ لَا يُقَالُ: قَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ. حَاشَا، لِمَ؟ لِأَنَّ ثَمَّةَ سَبَبًا فِي القِتَالِ، يَعْنِي: القِتَالُ نَعَمْ فِيهِ مَنِ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ – وَهُوَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، فَلَهُ أَجْرُ الصَّوَابِ وَأَجْرُ الِاجْتِهَادِ، وَهُمْ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللهِ اجْتَهَدُوا فَأَخْطَأُوا، فَحَصَّلُوا أَجْرَ الِاجْتِهَادِ وَفَاتَهُمْ أَجْرُ الصَّوَابِ، وَهَذَا أَمْرٌ أَطْبَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَصَارَ شِعَارًا مِنَ الشِّعَارَاتِ، أَنَّ مَنْ تَعَرَّضَ لِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مَسْلَكَ الرَّافِضَةِ.

وَأَيْضًا مَنْ حَزَّبَ النَّاسَ لِيَكُونُوا مَعَ أَحَدٍ ضِدَّ أَحَدٍ؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُشْتَمَ مَنْ قَاتَلَ عَلِيًّا، أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُشْتَمَ عَلِيٌّ لِأَنَّهُ قَاتَلَهُمْ، هَذَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ بِإِطْبَاقٍ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَالضَّلَالِ، وَنَصُّوا عَلَى أَنَّهُ لَا يُتَعَرَّضُ لَهُمْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ؛ لِأَنَّهُمُ اجْتَهَدُوا وَأَرَادُوا الدَّارَ الآخِرَةَ، وَظَنُّوا أَنَّ الصَّوَابَ فِي هَذَا، فَمِنْهُمْ مَنْ أَصَابَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْطَأَ.

قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَلِيٌّ بِالإِجْمَاعِ مِنْهُمْ، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[99]، وَقَالَ تَعَالَى فِي عُمُومِ الصَّحَابَةِ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾[100] فَقَسَمَ الصَّحَابَةَ إِلَى قِسْمَيْنِ:

القِسْمِ الأَوَّلِ: مَنْ آمَنَ قَبْلَ الفَتْحِ، وَالمُرَادُ بِهِ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ، هُوَ المُرَادُ بِالآيَةِ، وَهُوَ المُرَادُ بِالفَتْحِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[101]، وَلَمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: «أَفَتْحٌ هُوَ؟» قَالَ: «نَعَمْ»، فَمِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ آمَنَ قَبْلَ الفَتْحِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بَعْدَ الفَتْحِ، كُلُّهُمْ ذَوُو دَرَجَةٍ، لَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي الدَّرَجَةِ، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ

(98) سبق تخريجه.

(99) سورة التوبة: 100.

(100) سورة الحديد: 10.

(101) سورة الفتح: 1.

﴿أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا﴾ يَعْنِي: مِمَّنْ أَنْفَقَ وَآمَنَ قَبْلَ الفَتْحِ وَآمَنَ وَأَنْفَقَ بَعْدَ الفَتْحِ ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ وَالمُرَادُ بِالحُسْنَى: الجَنَّةُ، فَهُمْ مَوْعُودُونَ جَمِيعًا الجَنَّةَ.

وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ طَلْحَةُ، قَالَ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ أَوْ لِغَيْرِهِ –لِأَحَدِ أَبْنَاءِ طَلْحَةَ– قَالَ لَهُ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَبُوكَ مِمَّنْ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[102]»، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ عِنْدَ عَلِيٍّ: «اللهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ تَقْتَتِلُوا وَيَجْمَعُكُمْ فِي النَّارِ»، قَالَ: «قُمْ أَبْعَدَ مَوْضِعٍ وَأَسْحَقَهُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَنَا وَطَلْحَةُ. فَمَنْ؟». أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أَوْلَى النَّاسِ بِالآيَةِ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللهِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ المؤْمِنَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحَزِّبَ النَّاسَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، لَا أَنْ يَقُولَ: هَؤُلَاءِ ظَلَمَهُمْ عَلِيٌّ. وَلَا أَنْ يَقُولَ: أُولَئِكَ ضَالُّونَ بِخُرُوجِهِمْ عَلَيْهِ. لَا يَجُوزُ هَذَا قَطْعًا بِإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَصَارَتْ هَذِهِ –وَللهِ الحَمْدُ– عَلَامَةً تُبَيِّنُ الرَّافِضِيَّ مِنَ السُّنِّيِّ، مَنْ تَعَرَّضَ لِلصَّحَابَةِ أَيًّا كَانَ –طَلْحَةَ أَوِ الزُّبَيْرَ أَوْ مُعَاوِيَةَ أَوْ عَمْرَو بْنَ العَاصِ– فَإِنَّهُ فِيهِ رَفْضٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالضَّرُورَةِ شِيعِيًّا، لَكِنْ يُقَالُ: فِيهِ مَسْلَكٌ مِنْ مَسَالِكِ الرَّافِضَةِ.

وَقَدْ سُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَمَّنْ يَسُبُّ مُعَاوِيَةَ، أَيُصَلَّى خَلْفَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا كَرَامَةً»، مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُصَلَّى خَلْفَهُ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مُعَاوِيَةُ سِتْرٌ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، فَمَنْ هَتَكَهُ دَخَلَ إِلَى غَيْرِهِ»، يَعْنِي: إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَشْتُمُ الصَّحَابَةَ أَبَدًا، لَكِنْ مُعَاوِيَةُ هَذَا سَأَسُبُّهُ. يُقَالُ: سَتَسُبُّ مُعَاوِيَةَ وَسَتَدْخُلُ إِلَى غَيْرِ مُعَاوِيَةَ، لَنْ تَقِفَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ قَطْعًا، سَتَسُبُّ غَيْرَهُ حَتَّى تَصِلَ إِلَى السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، وَلِهَذَا وَجَبَ الكَفُّ عَنْ مَسَاوِيهِمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

فَالصَّحَابَةُ فِي هَذِهِ المِسْأَلَةِ الَّتِي وَقَعَتْ انْقَسَمُوا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: مَنْ رَأَى أَنَّ عَلِيًّا تَمَّتْ لَهُ البَيْعَةُ فَإِنَّهُ يُنَاصِرُهُ، وَهُوَ مِمَّنِ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ.

القِسْمُ الثَّانِي: مَنْ رَأَى أَنَّ عَلِيًّا وَإِنْ لَمْ يُنَازَعْ وَلَمْ يُرَدْ قِتَالَهُ إِلَّا أَنَّ المُتَوَجِّبَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَ القَتَلَةَ أَوَّلًا، وَهُمْ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَمُعَاوِيَةُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنِ الجَمِيعِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدِ اجْتَهَدُوا فَأَخْطَأُوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَلَهُمْ أَجْرُ الِاجْتِهَادِ دُونَ الصَّوَابِ.

([102]) سورة الحجر: 47.

القِسْمُ الثَّالِثُ: أَبُو بَكْرَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، أَبُو بَكْرَةَ، ابْنُ عُمَرَ، أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، أُهْبَانُ بْنُ صَيْفِيٍّ، وَعَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، اشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ الأَمْرُ، وَلَمْ يَتَّضِحْ لَهُمْ أَيَدْخُلُونَ مَعَ عَلِيٍّ أَمْ يَدْخُلُونَ مَعَ مَنْ يُرِيدُونَ قَتْلَ القَتَلَةِ، فَمَا الوَاجِبُ عَلَيْهِمْ؟ الوَاجِبُ كَمَا فِي النُّصُوصِ، الوَاجِبُ أَنْ يَعْتَزِلُوا شَرْعًا، إِذَا لَمْ يَتَّضِحْ وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ مَعَ غَيْرِهِمْ، لَكِنْ حِينَ لَمْ يَتَّضِحِ الأَمْرُ وَلَمْ يَكُنْ جَلِيًّا لَمْ يَجُزْ لَهُمُ الإِقْدَامُ.

وَبِذَلِكَ تَكُونُ القُلُوبُ سَالِمَةً لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَعْلَمُ أَنَّ مَنْ كَفَّ عَنِ الْفِتْنَةِ فَهَذَا اجْتِهَادُهُ، وَهُوَ المُتَعَيِّنُ عَلَيْهِ، المُتَعَيِّنُ عَلَى سَعْدٍ هُوَ أَنْ يَكُفَّ، لِمَ؟ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي تَرَجَّحَ عِنْدَهُ، المُتَعَيِّنُ عَلَى عَمَّارٍ أَنْ يَدْخُلَ مَعَ عَلِيٍّ، لِمَ؟ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي تَرَجَّحَ عِنْدَهُ، طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ تَرَجَّحَ عِنْدَهُمُ العَكْسُ، فَهَذَا الَّذِي فَعَلُوهُ، فَيَكُونُ مِنْهُمْ مَنْ أَصَابَ فَلَهُ الأَجْرَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْطَأَ فَلَهُ الأَجْرُ الوَاحِدُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، أَمَّا أَنْ يُحَزَّبَ النَّاسُ عَلَى عَلِيٍّ أَوْ مَعَ عَلِيٍّ ضِدَّ غَيْرِهِ، فَهَذَا صَنِيعُ الرَّافِضَةِ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ قَوْلَ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِلْأَحْنَفِ: «ارْجِعْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ»** أَوْ: **«إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»** هَذَا بِحَسَبِ اجْتِهَادِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: الآنَ القِتَالُ عِنْدِي لَا أَشُكُّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، فَنَصَحَ الأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ بِالَّذِي تَرَجَّحَ عِنْدَهُ، رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ القُلُوبُ سَالِمَةً لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَتَكُونُ المَسْأَلَةُ جَلِيَّةً مِنْ جِهَةِ مَنْ مَعَهُ الصَّوَابُ مِمَّنْ مَعَهُ الِاجْتِهَادُ الَّذِي لَمْ يُصِبْ فِيهِ، وَتَبْقَى القُلُوبُ سَالِمَةً؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ آيَةً فِي هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ المُهَاجِرِينَ: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الأَنْصَارَ: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾[103] ذَكَرَ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾[104]، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْدِثَ أَحَدٌ غِلًّا فِي قُلُوبِ أَهْلِ الإِسْلَامِ لِعَلِيٍّ أَوْ لِطَلْحَةَ، لَا يَجُوزُ هَذَا.

([103]) سورة الحشر: 9.

([104]) سورة الحشر: 10.

(10) «بَابٌ: كَيْفَ الأَمْرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمَاعَةٌ»

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ جَابِرٍ، حَدَّثَنِي بُسْرُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ الحَضْرَمِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ، أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[105].

ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بَابًا فِي اسْتِفْحَالِ الفِتْنَةِ وَشِدَّتِهَا جِدًّا، وَهُوَ إِذَا لَمْ يُوجَدْ جَمَاعَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ أَصْلًا.

«**بَابٌ: كَيْفَ الأَمْرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمَاعَةٌ**» أَيْ: مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ المسْلِمُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ جَمَاعَةٌ عَلَيْهَا حَاكِمٌ؟ وَأَوْرَدَ حَدِيثَ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الخَيْرِ، لِمَ؟ قَالَ: «**مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»، يَقُولُ: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»، وَفِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الخَيْرَ لَنْ يَسْبِقَنِي**» لَنْ يَضِيعَ الخَيْرُ، سَيَجِدُهُ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْرِفَهُ، لَكِنْ رَكَّزَ كَثِيرًا عَلَى أَمْرِ السُّؤَالِ عَنِ الفِتَنِ وَالأُمُورِ الَّتِي يَخْشَى أَنْ يَقَعَ فِيهَا؛ «**مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»، فَعَرَفَ الشَّرَّ، كَمَا قِيلَ:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ وَمَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ الْخَيْرِ يَقَعْ فِيهِ

فَقُلْتُ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ**» وَفِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ: «**وَفِتْنَةٍ** ، وَالمُرَادُ بِالشَّرِّ هُنَا: مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ؛ حَيْثُ كَانُوا قَبْلَ الإِسْلَامِ عَلَى أَسْوَأِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ وَالفِتْنَةِ. «**فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الخَيْرِ**» يَعْنِي: الإِسْلَامَ وَالإِيمَانَ.

(105) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (7084)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (1847).

«**فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**» يَعْنِي: يَحْتَمِلُ أَنَّ الإِسْلَامَ سَيَبقَى إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ مَا يَتَغَيَّرُ الأَمْرُ، يَحْتَمِلُ هَذَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعْقُبَهُ شَرٌّ، يَعْقُبُ حَالَ الإِيمَانِ وَائْتِلَافِ القُلُوبِ وَالعِزَّةِ يَعْقُبُهَا شَيْءٌ مِنَ التَّغَيُّرِ.

«**فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ**»، وَمَا هُوَ الشَّرُّ المُرَادُ؟ الشَّرُّ المُرَادُ: مَا وَقَعَ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَإِنَّه بَعْدَ أَنْ قُتِلَ جَاءَ شَرٌّ عَظِيمٌ وَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ خُرُوبٌ، وَنَبَعَ بَعْدَهُ؛ يَعْنِي: مِنْ آثَارِ الخُرُوبِ خَرَجَتِ الخَوَارِجُ، وَأَيْضًا قَابَلَ الخَوَارِجَ غُلَاةُ الرَّافِضَةِ مِنْ أَتْبَاعِ ابْنِ سَبَأٍ فِي زَمَنِ عَلِيٍّ نَفْسِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى حَرَّقَهُمْ بِالنَّارِ عَلَيْهِ رِضْوَانُ اللهِ، فَنَبَعَ مِنْ آثَارِ هَذَا الشَّرِّ شَيْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الفِتَنِ.

«**قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟**»، يَعْنِي: هَلْ سَيَسْتَمِرُّ الحَالُ شَرٌّ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَوْ سَيَأْتِي خَيْرٌ؟ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَأْتِي خَيْرٌ، لَكِنْ هَذَا الخَيْرُ فِيهِ دَخَنٌ، مَا المُرَادُ بِالدَّخَنِ؟ قِيلَ: إِنَّ المُرَادَ بِالدَّخَنِ: الحِقْدُ، وَقِيلَ: الغِلُّ، مَا هُوَ بِصَافٍ، لَيْسَ كَالخَيْرِ الأَوَّلِ، أَيْ: أَنَّ هَذَا الخَيْرَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ لَا يَكُونُ خَالِصًا؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ تَكَدُّرِ النُّفُوسِ، وَمَا وَقَعَ مِنْ آثَارِ القِتَالِ وَغَيْرِهَا.

ثُمَّ سَأَلَ حُذَيْفَةُ عَنْ دَخَنِهِ: «**قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، يُرِيدُ: الخُلَفَاءَ وَالحُكَّامَ الَّذِينَ يَأْتُونَ لَاحِقًا، مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى السُّنَّةِ وَعَلَى الخَيْرِ، هَذَا الَّذِي يَقُولُ: «**تَعْرِفُ مِنْهُمْ**» يَكُونُ عَلَى هُدًى وَعَلَى خَيْرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ عَلَى الظُّلْمِ وَالشَّرِّ، وَهُوَ بِقَوْلِهِ: «**وَتُنْكِرُ**»، «**تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، هَذَا الحَالُ مِنَ الشَّرِّ عَلَى مَا فِيهِ إِلَّا أَنَّ فِيهِ نَوْعًا مِنَ التَّنْفِيسِ، وَفِيهِ نَوْعًا مِنَ السَّعَةِ؛ لِأَنَّ ثَمَّةَ خَيْرًا وَثَمَّةَ شَرًّا.

«**فَقُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»، وَهَذَا أَشَدُّ حَالًا مِنَ الحَالِ السَّابِقِ، الحَالُ السَّابِقُ أُولَئِكَ تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، لَكِنْ هَذَا –وَالعِيَاذُ بِاللهِ– دُعَاةٌ مُتَصَدِّرُونَ يَدْعُونَ إِلَى جَهَنَّمَ –عِيَاذًا بِاللهِ–، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾[106] نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ دَاعِيًا لَكِنْ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصِيرُ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ الدَّعْوَةِ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ.

«**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا**»؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةَ يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفُوا وَيُعَرَّفُوا وَيُحَدَّدُوا، وَهَذَا فِيهِ تَحْدِيدُ صَاحِبِ البَاطِلِ، وَأَنَّهُ مِنَ الحَقِّ أَنْ يُحَدَّدَ حَتَّى يُحْذَرَ.

([106]) سورة القصص: 41.

«صِفْهُمْ لَنَا. فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنَّهُمْ مِنَ العَرَبِ، فَإِنَّ كَوْنَهُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا هُوَ كَلَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَالَ: «وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» أَيْضًا، فِي بَعْضِ الأَلْفَاظِ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ» يَعْنِي: أَنَّ الأَجْسَادَ أَجْسَادُ بَشَرٍ، لَكِنَّ القُلُوبَ فِي الدَّاخِلِ قُلُوبُ شَيَاطِينَ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ. فَدَلَّ عَلَى عَظِيمِ خُبْثِهِمْ، وَلَا يُرْتَابُ الآنَ بِأَنَّ فِي العَرَبِ اليَوْمَ مَنْ تَصَدَّرُوا لِلدَّعْوَةِ إِلَى جَهَنَّمَ، وَنَقَلُوا وَزَيَّنُوا الكُفْرَ فِي الشَّرْقِ وَفِي الغَرْبِ، وَحَسَّنُوهُ -نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَ الخَاتِمَةِ- مُنْذُ شَبَابِهِمْ حَتَّى شَابَتْ رُؤُوسُهُمْ وَمَاتُوا عَلَى هَذَا، دُعَاةٌ مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ يَدْعُو إِلَى الوُجُودِيَّةِ.

وَرَأَيْتُ أَحَدَهُمْ بَعْدَ أَنْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ -نَسْأَلُ اللهَ حُسْنَ الخَاتِمَةِ- وَقَدْ شَابَتْ حَتَّى الشَّعَرَاتُ الَّتِي فَوْقَ عَيْنَيْهِ، بَذَلَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا المَبْدَأِ الكُفْرِيِّ الفَاجِرِ سِنِينَ عُمُرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَذَلَ عُمُرَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الشُّيُوعِيَّةِ، وَمِنْهُمُ اليَوْمَ مَنْ يَبْذُلُونَ أَعْمَارَهُمْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللِّيبْرَالِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَعَوْا -وَلَا يَزَالُونَ- يَدْعُونَ إِلَى الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَكُلُّهَا أَبْوَابٌ مُوَصِلَةٌ إِلَى جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهَا تَجْتَمِعُ جَمِيعًا فِي إِزَاحَةِ الشَّرْعِ، وَعَدَمِ وُجُودِ شَيْءٍ يُسَمَّى حُكْمًا للهِ تَعَالَى، كُلُّ هَذِهِ المَذَاهِبِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ إِلَّا عَلَى هَذَا الأَسَاسِ، وَمِنْ أَحَصِّهَا مِمَّا يَتَسَاهَلُ فِيهِ النَّاسُ: هَذِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الَّتِي فُتِنَ بِهَا الكَثِيرُ، وَالَّتِي قُلْنَا: إِنَّهَا مَبْنِيَّةٌ أَصْلًا عَلَى الأَسَاسِ العِلْمَانِيِّ.

فَكُلُّ الدُّعَاةِ إِلَى هَذِهِ -عِيَاذًا بِاللهِ- دُعَاةٌ إِلَى النَّارِ، فَمِنَ المُصِيبَةِ أَنْ يَكُونَ الدَّاعُونَ مِنَ العَرَبِ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ تَأْلَفُهُمْ، وَكَوْنُهُمْ مِنْ جِلْدَتِكَ يَسْهُلُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَقَبَّلَ حَدِيثَهُمْ إِذَا كُنْتَ جَاهِلًا، وَلَا سِيَّمَا وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ فَجَرَةٌ فِي الدَّاخِلِ، وَمُحْتَالُونَ، وَيُكْثِرُونَ مِنْ تَسْهِيلِ هَذِهِ المَذَاهِبِ البَاطِلَةِ بِدَعَاوَى المَصْلَحَةِ، وَبِدَعَاوَى طَلَبِ نَفْعِ النَّاسِ، وَبِدَعَاوَى التَّمَدُّنِ وَالرُّقِيِّ، وَبَذْلِ الخَيْرِ لِلنَّاسِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَلْسِنَتَهُمْ «أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»[107]؛ فَيَجْتَمِعُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ شَرِّهِمْ عِيَاذًا بِاللهِ، فَلَمَّا كَانُوا عَلَى هَذَا الحَالِ، وَمِنْهُمْ أَيْضًا مَنْ يَكُونُونَ أَئِمَّةً -يَعْنِي: حُكَّامًا-، لِأَنَّهُ فِي الحَدِيثِ المَقْطَعُ السَّابِقُ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، يُرِيدُ بِهِ: خُلَفَاءَ. ثُمَّ قَالَ: «دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ»؛ أَيْضًا مِنْ هَؤُلَاءِ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ أَشَدُّ لِأَنَّهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ مَا قَالَ: «تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، بَلْ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ -عِيَاذًا بِاللهِ- مُبَاشَرَةً.

---

(107) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب في الحوض (6580)، ومسلم في كتاب الفضائل- باب إثبات حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (2303)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

«**قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟**»، هَذَا الحَالُ الَّذِي فِيهِ السُّؤَالُ: «**كَيْفَ الأَمْرُ إِذَا لَمْ تَكُنْ جَمَاعَةٌ**»، هَذَا الحَالُ الثَّانِي، سُؤَالُ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سُؤَالُ بَصِيرٍ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ عَنْ أَمْرَيْنِ: إِذَا أَدْرَكَهُ هَذَا الحَالُ مَاذَا يَفْعَلُ؟ فَأَخْبَرَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِوُجُوبِ لُزُومِ الجَمَاعَةِ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، وَإِنْ كَانَ فِي هَذِهِ الجَمَاعَةِ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الظُّلْمِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الأَثَرَةِ كَمَا قُلْنَا، النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الحُكَّامَ يَتَمَيَّزُونَ بِالأَثَرَةِ، يَعْنِي: الِاسْتِئْثَارَ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَسْتَحْلِصُوهُ دُونَ النَّاسِ، فَأَمَرَ بِلُزُومِهِ، حَتَّى وَإِنْ كَانُوا عَلَى هَذَا الحَالِ، لِمَ أَمَرَ بِلُزُومِهِ مَعَ هَذَا الوَضْعِ الصَّعْبِ العَسِرِ وَوُجُودِ الدَّعْوَةِ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ؟

لِمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَثَبَتَ عَنْهُ: «مَا تَكْرَهُونَ فِي الجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الفِرْقَةِ»، فَإِذَا وُجِدَتِ الجَمَاعَةُ فَإِنَّ المُؤْمِنَ يَلْزَمُهَا وَإِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّعَدِّي، وَيَحْدُثُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الجَمَاعَةِ شَيْءٌ مِنَ التَّعَدِّي مُنْذُ دُهُورٍ، حِينَ لَزِمَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ الجَمَاعَةَ وَكَانُوا تَحْتَ إِمْرَةِ الحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ لَمْ يَلْزَمُوهَا إِلَّا مَعَ وُجُودِ الظُّلْمِ الشَّدِيدِ، فَالجَمَاعَةُ يَقَعُ فِيهَا ظُلْمٌ، لَكِنْ يَتَمَيَّزُ بِأَنَّهُ مَعَ وُجُودِ كِيَانٍ لِلْأُمَّةِ، فَيُحْفَظُ وَيُتَحَمَّلُ هَذَا الضَّرَرُ لِأَجْلِ أَلَّا يَنْفَرِطَ العِقْدُ، وَهُوَ الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ فِي الثَّانِي: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»؛ لِأَنَّ الأُمَّةَ مِنْ حَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ، فَإِذَا وُجِدَ الحَاكِمُ الَّذِي يَضْبِطُ الأُمُورَ وَوُجِدَتِ الرَّعِيَّةُ؛ فَهَذِهِ الجَمَاعَةُ يَنْبَغِي الحِفَاظُ عَلَيْهَا وَتَحَمُّلُ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنَ العَنَتِ وَالصُّعُوبَةِ لِأَجْلِ أَنْ يَبْقَى الإِنْسَانُ فِي الجَمَاعَةِ.

ثُمَّ سَأَلَ حُذَيْفَةُ عَنِ الحَالَةِ الثَّانِيَةِ: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ**»، كَمَا يَحْدُثُ فِي بَعْضِ البُلْدَانِ، حِينَ يَنْفَرِطُ العِقْدُ، وَيَسْقُطُ الحُكْمُ، ثُمَّ تَكُونُ الأُمُورُ فَوْضَى، وَلَا يُوجَدُ جِهَةٌ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُسَيْطِرَ عَلَى الطَّيْشِ وَالفَوْضَى الحَاصِلَةِ، وَيَأْكُلُ القَوِيُّ الضَّعِيفَ، وَهَذَا مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «مَا تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفُرْقَةِ»؛ يَعْنِي: الشَّيْءُ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ فِي الجَمَاعَةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّعَدِّي هُوَ أَفْضَلُ مِمَّا لَوْ صَارَتْ فُرْقَةٌ وَانْخَرَمَ أَمْرُ الجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ تُبْغِضُهُ فِي الجَمَاعَةِ سَيَتَضَاعَفُ أَضْعَافًا فِي الفُرْقَةِ، فَإِنْ كُنْتَ تُبْغِضُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَسْتَأْثِرُ بِالأَمْوَالِ، هُنَاكَ مَنْ يَسْتَأْثِرُ بِالأَرْضِ، هُنَاكَ مَنْ يَضْرِبُ النَّاسَ، هُنَاكَ مَنْ يَقْتُلُ النَّاسَ، هُنَاكَ مَنْ يَتَعَدَّى عَلَى النَّاسِ فِي الجَمَاعَةِ؛ فَسَتَكُونُ هَذِهِ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ فِي الفُرْقَةِ، وَسَتَكُونُ الأُمُورُ أَشَدَّ بِكَثِيرٍ، وَسَيَكُونُ هَتْكُ الأَعْرَاضِ عِيَاذًا بِاللهِ، وَسَيَكُونُ سَبْيُ الأَمْوَالِ، وَقَتْلُ النَّاسِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ الَّذِي فِي مُسْلِمٍ: «**لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**»، لَكِنْ فِي الجَمَاعَةِ الغَالِبُ أَنَّهُ لَا يَحْدُثُ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ هُنَاكَ حَاكِمٌ يَمْنَعُ مِنَ القَتْلِ، يَمْنَعُ مِنَ السَّرِقَةِ، وَيَكُونُ الحَاكِمُ ظَالِمًا؛ لَكِنْ يَتَمَيَّزُ بِأَنَّهُ يَمْنَعُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ، فَإِذَا انْفَرَطَ الأَمْرُ

-عِيَاذًا بِاللهِ- تَضَاعَفَتِ المَفَاسِدُ الَّتِي فِي الجَمَاعَةِ فِي حَالِ الفُرْقَةِ وَصَارَتْ كَمَا قِيلَ:

كَمْ مِنْ زَمَانًا بَكَيْتُ مِنْهُ ثُمَّ بَكَيْتُ عَلَيْهِ

يَتَمَنَّى، وَهَذَا حَاصِلٌ لِلْأَسَفِ فِي بَعْضِ البِلَادِ اليَوْمَ مِنَ البِلَادِ الَّتِي زَادَتِ الآنَ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً، ذَهَبَ فِيهَا الحُكْمُ، ثُمَّ اضْطَرَبَتِ الأَوْضَاعُ، وَلَمْ يُوجَدْ حُكْمٌ يُسَيْطِرُ عَلَى البَلَدِ، فَتَفَاقَمَتِ الأَوْضَاعُ فِي جَمِيعِ الجِهَاتِ، وَجَاءَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الدُّوَلِ الأَجْنَبِيَّةِ الَّتِي تَدَّعِي العَدَالَةَ وَالإِنْصَافَ، فَدَفَنَتْ فِي بَعْضِ البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ نِفَايَاتٍ نَوَوِيَّةٍ، وَهِيَ فِي غَايَةِ الخُطُورَةِ عَلَى الأَرْضِ وَعَلَى الأَجْيَالِ تُخْرِجُ آثَارُهَا لَاحِقًا؛ لِمَ؟ لِأَنَّهَا وَجَدَتِ الفَوْضَى، فَلَيْسَ هُنَاكَ رَادِعٌ وَلَا حَاكِمٌ وَلَا أَحَدٌ، وَصَارَتْ هُنَاكَ مَفَاسِدُ فِي غَايَةِ السُّوءِ، أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالأَعْرَاضِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالأَمْوَالِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالدِّمَاءِ فَحَدِّثْ عَنْهُ وَلَا حَرَجَ، وَهَذَا الَّذِي أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلُزُومِ الجَمَاعَةِ لِأَجْلِهِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا ظُلْمٌ.

فَلَمَّا قَالَ حُذَيْفَةُ: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ**»، مَا هُنَالِكَ حَاكِمٌ، وَالأُمُورُ فَوْضَى مُدْلَهِمَّةٌ، وَالنَّاسُ تَتَقَاتَلُ؛ لِأَنَّ العَادَةَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ حَاكِمٌ أَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ مُتَحَزِّبِينَ، هَؤُلَاءِ يُقَاتِلُونَ هَؤُلَاءِ، قَالَ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا**»، لَا تَدْخُلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا، لِمَ؟ مَرَّةً أُخْرَى، مَا السَّبَبُ؟ مَا هُنَالِكَ رَايَةٌ، رَايَةٌ عِمِّيَّةٌ، فَوْضَى، فَهَذِهِ لَا يُدْخَلُ فِيهَا.

«**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ**»، وَالعَضُّ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى المُكَابَدَةِ وَالصَّبْرِ، وَإِلَّا فَالعَضُّ عَلَى الشَّجَرَةِ لَيْسَ بِالهَيِّنِ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، فَتَصْبِرُ عَلَى هَذَا الحَالِ حَتَّى لَوْ كَانَ مُرًّا وَصَعْبًا، حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ عَلَى هَذَا، «**حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**».

وَفِي المُسْنَدِ وَأَبِي دَاوُدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِحُذَيْفَةَ: «**فَإِنْ تَمُتْ يَا حُذَيْفَةُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ**» يَعْنِي: عَلَى أَصْلِ الشَّجَرَةِ «**خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ**»[108]، إِذَا انْفَرَطَتِ الأُمُورُ وَصَارَ هَؤُلَاءِ يَقْتُلُونَ هَؤُلَاءِ، فَلَوْ تَعَضُّ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرَةِ حَتَّى تَمُوتَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ أَوْ حِزْبًا مِنْهُمْ وَتَنْضَوِيَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الأُمُورَ فَوْضَى وَعِمِّيَّةٌ.

كُلُّ هَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى المَنْهَجِ العَظِيمِ الَّذِي رَسَمَهُ الشَّرْعُ فِي أَمْرِ الفِتَنِ وَالتَّبَصُّرِ وَالتَّعَرُّفِ عَلَيْهَا، وَدِرَاسَتِهَا مِنْ خِلَالِ نُصُوصِ السُّنَّةِ، لَا مِنْ خِلَالِ مُجَرَّدِ مَا يَقَعُ فِي الخَاطِرِ وَمَا يَقَعُ فِي المَشَاعِرِ؛ وَإِلَّا فَالمَشَاعِرُ تَجُوزُ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، لَكِنَّ العَاقِلَ يَتَدَبَّرُ وَيَتَبَصَّرُ فِي أُمُورِهِ بِحَسَبِ مَا

(108) أخرجه أبو داود في كتاب الفتن والملاحم- باب ذكر الفتن ودلائلها (4244)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

تُرْشِدُهُ النُّصُوصُ، وَالغِرُّ الجَاهِلُ يَتَصَرَّفُ كَيْفَمَا اتُّفِقَ.

(11) «بَابُ التَّعَوُّذِ مِنَ الفِتَنِ»

التَّعَوُّذُ مِنَ الفِتَنِ: الاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ نَوْعٌ مِنَ العِبَادَةِ، يُتَعَوَّذُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَا تَعْلَمُهُ وَمِنْهُ مَا لَا تَعْلَمُهُ، وَلِهَذَا فِي المَأْثُورِ مِنَ الدُّعَاءِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ**»؛ فَمِنَ الشَّرِّ مَا لَا تَعْلَمُهُ، فَتَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْهُ وَتُحِيلُ عِلْمَهُ إِلَيْهِ تَعَالَى.

فَيُتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُتَعَوَّذُ بِهِ: التَّعَوُّذُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللهِ تَعَالَى وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، مِنْ أَعْظَمِ مَا يُتَعَوَّذُ مِنْهُ: مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ النَّاسِ وَفِي سُورَةِ الفَلَقِ، مَا تَعَوَّذَ المُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِمَا: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾[109]، وَفِي سُورَةِ النَّاسِ: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾[110]، يُسْتَعَاذُ بِاللهِ: يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ وَيُعْتَصَمُ بِهِ، الِاسْتِعَاذَةُ: الِالْتِجَاءُ وَالِاعْتِصَامُ بِاللهِ مِنَ الفِتَنِ.

«**حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ فَضَالَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ**[111] **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ. فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَافٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ –كَانَ إِذَا لَاحَى يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ– فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ. ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ**

([109]) سورة الفلق: 1– 5.

([110]) سورة الناس: 1– 6.

(111) هو: الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة، الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته من النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتًا، وروى عنه علمًا جمًّا، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة، دعا له النبي بالبركة، فرأى من ولَده وولَدِ ولَدِه نحوًا من مئة نَفْسٍ. مات سنة إحدى وتسعين. انظر: الاستيعاب (ص53 ترجمة 43)، والإصابة (126/1 ترجمة 277).

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا رَأَيْتُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِيَ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ. [112]

فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ نَاسًا سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَحْفَوْهُ؛ أَيْ: أَلَحُّوا عَلَيْهِ بِكَثْرَةِ الأَسْئِلَةِ.

قَالَ شَيْخُنَا ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ: «كَأَنَّ بَعْضَ المُنَافِقِينَ أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ»، فَلَمَّا أَحْفَوْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالمِسْأَلَةِ صَعِدَ يَعْنِي المِنْبَرَ، وَقَالَ: «**لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ**»، وَكَانَ قَدْ غَضِبَ جِدًّا[113]، وَلِهَذَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ قَالَهُ وَهُوَ مُحْمَرُّ الوَجْهِ مِنْ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ غَيْرِ المُنَاسِبَةِ.

فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ هَؤُلَاءِ المُنَافِقِينَ -وَهُوَ فِي البُخَارِيِّ- أَنَّ قَوْمًا كَانُوا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتِهْزَاءً؛ فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟[114] وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَاقَتُهُ: أَيْنَ نَاقَتِي؟ وَهَذَا لَا يَلِيقُ، خَاصَّةً السُّؤَالَ الثَّانِي، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ، وَكَذَا السُّؤَالُ الأَوَّلُ، لَكِنَّ السُّؤَالَ الأَوَّلَ قَدْ يَكُونُ لِصَاحِبِهِ مَقْصِدٌ، كَمَا سَيَأْتِي فِي الحَدِيثِ فِي بَقِيَّةِ كَلَامِ ابْنِ حُذَافَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَغَضِبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَعِدَ المِنْبَرَ، وَقَالَ: «**لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَبَيَّنْتُ لَكُمْ**»، فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا بَكَوْا، يَقُولُ: «**فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ رَأْسُهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي**»، قَالَ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «خَوْفًا مِنَ العِقَابِ»؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَضِبَ هَذَا الغَضَبَ الشَّدِيدَ.

لَمَّا قَالَ: «**لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ**» اهْتَبَلَ الفُرْصَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذَافَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ، كَانَ إِذَا لَاحَ -إِذَا خَاصَمَ- أَحَدًا وَنَازَعَهُ طُعِنَ فِي أَبِيهِ، كَانَ يُقَالُ: «إِنَّكَ لَسْتَ ابْنَ حُذَافَةَ»، يَعْنِي: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ فَجَرَتْ، فَلَمَّا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ**» وَقَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذَافَةَ -وَكَانَ لَهُ قَصْدٌ بِهَذَا السُّؤَالِ وَلَيْسَ اسْتِهْزَاءً-، قَالَ: «**يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ أَبِي؟**» يَعْنِي: هَلْ أَنَا فِعْلًا ابْنٌ لِحُذَافَةَ أَوْ أَبِي انْعَقَدْتُ مِنْ غَيْرِهِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوكَ حُذَافَةُ**»، فَعُرِفَ بِذَلِكَ أَنَّهُ فِعْلًا ابْنُ حُذَافَةَ، وَأَنَّ الطَّعْنَ فِي نَسَبِهِ كَانَ مِنَ البَاطِلِ. فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ أُمَّهُ قَالَتْ: «مَا أَعْلَمُ ابْنًا أَعَقَّ مِنْكَ»[115]، سَأَلْتَ فِي هَذَا المَجْمَعِ؟! لَعَلِّي فِي الجَاهِلِيَّةِ

([112]) سورة المائدة، الآية: 101.

(113) أخرجه أحمد في «مسنده» (107/3)، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين»

(114) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب التعوذ من الفتن (7091).

(115) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل- باب توقيره صلى الله عليه وسلم... (2359).

تَلَبَّسْتُ بِشَيْءٍ»، يَعْنِي: لَوْ أَنِّي فِعْلًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ قَدْ يَقَعُ مِنْهُمُ الفُجُورُ، تَقُولُ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ فِعْلًا قَدْ وَقَعَ زِنًا؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُوكَ فُلَانٌ -غَيْرُ حُذَافَةَ-، يَكُونُ هَذَا عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، يُعْرَفُ أَنَّكَ ابْنُ زِنًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ نَسَبَنِي لِعَبْدٍ أَسْوَدَ لَانْتَسَبْتُ إِلَيْهِ»، يَعْنِي: أَنَا غَرَضِي أَنْ أَعْرِفَ فِعْلًا مَنْ أَبِي وَأَنْتَسِبَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ غَرَضِي: الِاسْتِهْزَاءَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالَّذِي يَقُولُ: مَنْ أَبِي، لَكِنْ يَقُولُ: أَنَا رَجُلٌ يُطْعَنُ فِي نَسَبِي؛ فَإِمَّا أَنْ أَكُونَ فِعْلًا ابْنَ حُذَافَةَ بِشَهَادَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِمَّا أَنْ يُخْبِرَنِي بِأَبِي وَأَنَا أَنْتَسِبُ إِلَيْهِ حَتَّى لَوْ عَلِمَ الجَمِيعُ أَنِّي لَسْتُ ابْنَ رِشْدَةٍ وَإِنَّمَا ابْنُ زِنًا.

فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ البُخَارِيِّ أَنَّ رَجُلًا -عِيَاذًا بِاللهِ- فِي هَذَا المَوْطِنِ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُغْضِبَ؛ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَا أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟»؛ قَالَ: «**مِنْ أَهْلِ النَّارِ**» نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَسَأَلَ فَوَافَقَ سُؤَالُهُ مَا وَعَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَ بِهِ، قَالَ: أَنَا فِي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ؟ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَيْنَ مَدْخَلِي؟»؛ قَالَ: «**النَّارُ**»[116] عِيَاذًا بِاللهِ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَهَّدَ لَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ فِي هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فَيُخْبِرُهُ، فَسَأَلَ هَذَا -نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ- عَنْ مَدْخَلِهِ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِيَاذًا بِاللهِ.

فَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَبُو بَكْرٍ وَأَمْثَالُهُمْ قَرِيبُونَ جِدًّا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَثَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: «**رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[117]، وفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «**وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا**»[118]، وَصَارَ يَسْتَرْضِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ**»[119]، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -أَيْ: وَهُوَ فِي ذَلِكَ المَوْطِنِ-: «**مَا رَأَيْتُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ**»[120]؛ لِأَنَّهُ رَأَى خَيْرَ الخَيْرِ وَشَرَّ الشَّرِّ «**إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِيَ الْجَنَّةُ**» وَهِيَ أَعْظَمُ الخَيْرِ.

(116) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة- باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (7294).
(117) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب التعوذ من الفتن (7091).
(118) أخرجه الطبري في «تفسيره» (103/11).
(119) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب التعوذ من الفتن (7091).
(120) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات- باب التعوذ من الفتن (6362).

«وَالنَّارُ» وَهِيَ أَعْظَمُ الشَّرِّ، «حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ»[121]، يَعْنِي: فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الحَائِطِ، «فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا» -لَمَّا ذَكَرَ النَّارَ- «فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا قَطُّ أَفْظَعَ»، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَمْ يَرَ أَفْظَعَ مَنْظَرًا مِنَ النَّارِ -عِيَاذًا بِاللهِ مِنْهَا-.

فِي هَذَا الحَدِيثِ: تَحْذِيرٌ مِنَ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يَنْبَغِي، وَكَثْرَةِ الإِلْحَاحِ فِي السُّؤَالِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: الأَسْئِلَةُ السُّؤَالُ مِفْتَاحٌ لِلْخَزَانَةِ؛ يَعْنِي: أَنَّ العِلْمَ خَزَائِنُ، وَيَأْتِي سُؤَالٌ حَسَنٌ فَيَتَبَيَّنُ بِالجَوَابِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ مَسْأَلَةٌ عِلْمِيَّةٌ نَافِعَةٌ، فَيَنْبَغِي فِي الأَسْئِلَةِ أَنْ تَكُونَ أَسْئِلَةً عَمَّا يَنْفَعُ، لَا أَنْ تَكُونَ أَسْئِلَةَ إِلْحَافٍ، أَوْ أَسْئِلَةً لَا يَقْصِدُ السَّائِلُ مِنْهَا عَيْنَ الجَوَابِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنْهَا أَمْرًا آخَرَ، أَوْ أَنْ يُرِيدَ بِهَا اسْتِهْزَاءً؛ فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَا يَلِيقُ، وَإِنَّمَا يَسْأَلُ السَّائِلُ عَنْ أَمْرٍ لَهُ فِيهِ نَفْعٌ أَوْ لِغَيْرِهِ.

وَهَلْ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ أَمْرٍ يَعْرِفُ جَوَابَهُ؟

نَعَمْ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لَهُ قَصْدٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَنْ يُسْمِعَ جَوَابَهُ غَيْرَهُ، كَمَا فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»[122]، فَقَدْ يَسْأَلُ السَّائِلُ عَنْ أَمْرٍ يَعْلَمُهُ، لَكِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُسْمِعَ غَيْرَهُ جَوَابَهُ، فَهَذَا مَحْمُودٌ لَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَسْئِلَةً لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا، أَوْ أَنْ يَسْأَلَ أَسْئِلَةً يَتَقَصَّدُ مِنْ وَرَائِهَا أُمُورًا أُخْرَى تَكُونُ مَلْفُوفَةً دَاخِلَ هَذَا السُّؤَالِ؛ فَكُلُّ هَذَا لَا يَلِيقُ وَلَا يَنْبَغِي بِطَالِبِ العِلْمِ، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الأَسْئِلَةَ غَضِبَ هَذَا الغَضَبَ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى -كَانَ يَقْرَأُ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

حَاصِلُ هَذَا الحَدِيثِ: مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنَ التَّعَوُّذِ مِنَ الفِتَنِ، حَيْثُ تَعَوَّذَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سُوءِ الفِتَنِ، وَفِي اللَّفْظِ الآخَرِ: «مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ»، الفِتَنُ مِنْهَا مَا هُوَ فِتْنَةُ الأَوْلَادِ وَالأَمْوَالِ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[123]، فَالإِنْسَانُ لَا يَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنَ الأَوْلَادِ، لَا يَقْصِدُ بِتَعَوُّذِهِ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنَ الأَوْلَادِ أَوْ مِنَ الأَمْوَالِ، وَلَكِنْ يَتَعَوَّذُ مِنْ شَرِّ الفِتَنِ؛ لِأَنَّ الفِتَنَ مِنْهَا مَا هُوَ شَرٌّ وَمِنْهَا مَا هُوَ سُوءٌ، فَلِهَذَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوءِ الْفِتَنِ»[124]، أَوْ «مِنْ شَرِّ الفِتَنِ»، فَالشَّاهِدُ مِنَ الحَدِيثِ وَالمُطَابِقُ لِلتَّرْجَمَةِ: تَعَوُّذُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ شَرِّ الفِتَنِ.

---

(121) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب التعوذ من الفتن (7091)، ومسلم في كتاب الفضائل- باب توقيره صلى الله عليه وسلم... (2359).

(122) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (8).

(123) سورة التغابن: 15.

(124) ما قبله.

(12) «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْفِتْنَةُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ»

«حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا أَزْهَرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ[125] قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا! قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا! فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[126].

فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا لِمَوْطِنَيْنِ بِالبَرَكَةِ، وَهُمَا: الشَّامُ وَاليَمَنُ، سُمِّيَتِ اليَمَنُ يَمَنًا لِأَنَّهَا تَلِي يَمِينَ الكَعْبَةِ، الكَعْبَةُ يَمِينُهَا جِهَةُ اليَمَنِ، وَسُمِّيَتِ الشَّامُ شَامًا لِأَنَّهَا عَنْ شِمَالِ الكَعْبَةِ، وَلِهَذَا سُمِّيَ الرُّكْنُ الَّذِي إِلَى جِهَةِ اليَمَنِ سُمِّيَ الرُّكْنَ اليَمَانِيَّ، لِأَنَّهُ إِلَى جِهَةِ اليَمَنِ.

ثُمَّ طَلَبُوهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَمْرِ نَجْدٍ، قَالُوا: «**وَفِي نَجْدِنَا**»، فَكَرَّرَ الدُّعَاءَ لِلشَّامِ وَلِلْيَمَنِ، قَالُوا: «**يَا رَسُولَ اللهِ**» مَرَّةً أُخْرَى «**وَفِي نَجْدِنَا**»، يَقُولُ: «**فَأَظُنُّهُ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**».

ذَكَرَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ نَجْدًا بِهَا الآتِي: الزَّلَازِلُ، وَبِهَا الفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ، مَا المُرَادُ بِنَجْدٍ فِي الحَدِيثِ؟

مِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهَا عَلَى نَجْدِ البِلَادِ المَعْرُوفَةِ هَذِهِ، قَالُوا: حَيْثُ وَقَعَتْ بِهَا الرِّدَّةُ، حَيْثُ ارْتَدَّ عَدَدٌ كَبِيرٌ فِي نَجْدٍ، مَعَ أَنَّ الرِّدَّةَ لَمْ تَكُنْ خَاصَّةً بِنَجْدٍ، فَقَدْ وَقَعَتْ أَيْضًا رِدَّةٌ بِاليَمَنِ وَبِغَيْرِهَا.

وَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ حَمَلَ نَجْدًا عَلَى العِرَاقِ، وَقَالَ: المَقْصُودُ بِنَجْدٍ العِرَاقُ لِاعْتِبَارَاتٍ؛ مِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الِاعْتِبَارَاتِ الرُّجُوعُ إِلَى نَجْدِ المَدِينَةِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا**»، فَالكَلَامُ هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِالمَدِينَةِ، شَامُ المَدِينَةِ وَيَمَنُ المَدِينَةِ، مَعَ أَنَّ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ قَالَ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ وَقَوْلِهِ فِي اليَمَنِ: «**الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**» يَقُولُ: قَالَ ذَلِكَ فِي تَبُوكٍ، وَكَانَ الَّذِي أَمَامَهُ مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمَا.

([125]) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى الصحابي المشهور أمه زينب بنت مظعون الجمحية ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. (الإصابة في تمييز الصحابة: 181/4).

(126) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الفتنة من قبل المشرق» (7094).

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ المرَادَ بِاليَمَنِ: الأَنْصَارُ؛ لِأَنَّ الأَنْصَارَ أُصُولُهُمْ تَرْجِعُ إِلَى اليَمَنِ، لَكِنَّ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ المرَادَ: اليَمَنُ المعْرُوفَةُ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- مِنَ الحَدِيثِ؛ لِأَحَادِيثَ أُخْرَى مِنْ أَشْهَرِهَا: «جَاءَكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ أَرَقُّ قُلُوبًا...» إِلَى آخِرِ الحَدِيثِ. فَالظَّاهِرُ أَنَّ المرَادَ بِهَا اليَمَنُ.

مَا المقْصُودُ بِنَجْدٍ؟

يَقُولُ الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: يَعْنِي مَا دَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَحَدَّثُ عَنْ يَمَنٍ جِهَةَ المدِينَةِ، وَعَنْ شَامٍ جِهَةَ المدِينَةِ، فَيَبْقَى النَّجْدُ المذْكُورُ هُوَ نَجْدَ المدِينَةِ. وَمَا نَجْدُ المدِينَةِ؟ يَقُولُ: نَجْدُ المدِينَةِ هِيَ العِرَاقُ؛ لِأَنَّ النَّجْدَ هُوَ المرْتَفِعُ، النَّجْدُ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الشَّيْءُ المرْتَفِعُ، وَلَمَّا قَالُوا: «وَفِي نَجْدِنَا» دَلَّ عَلَى أَنَّ المرَادَ: نَجْدُ المدِينَةِ تَحْدِيدًا، وَنَجْدُ المدِينَةِ مَعْلُومٌ الشَّيْءُ المرْتَفِعُ جِهَةَ المدِينَةِ لَيْسَ نَجْدًا هَذِهِ، وَإِنَّمَا العِرَاقُ.

مِنْ أَشْهَرِ مَنِ اخْتَارَ هَذَا: الخَطَّابِيُّ كَمَا قُلْنَا، وَذَكَرَ أَنَّ السَّبَبَ فِي هَذَا أَنَّ العِرَاقَ هِيَ شَرْقُ المدِينَةِ وَهِيَ نَجْدُهَا. ابْنُ حَجَرٍ فِي الشَّرْحِ مَالَ إِلَى قَوْلِ الخَطَّابِيِّ هَذَا، وَهَذَا هُوَ المعْرُوفُ، لَكِنْ فِي «مُوَطَّأِ الإِمَامِ مَالِكٍ» فَائِدَةٌ لَعَلَّهَا تَفُوقُ هَذِهِ الفَائِدَةَ بِكَثِيرٍ، وَهُوَ أَنَّ الإِمَامَ مَالِكًا رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «بَابُ مَا جَاءَ فِي المَشْرِقِ» ثُمَّ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ بِنَفْسِهِ بِعَيْنِهِ الَّذِي فِيهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالمشْرِقِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِخَبَرٍ فِيهِ أَنَّ عُمَرَ أَرَادَ الخُرُوجَ إِلَى العِرَاقِ، فَقَالَ كَعْبٌ: «لَا تَخْرُجْ؛ فَإِنَّ بِهَا تِسْعَةَ أَعْشَارِ السِّحْرِ، وَبِهَا فَسَقَةُ الجِنِّ، وَبِهَا الدَّاءُ العُضَالُ». يَعْنِي: الأَهْوَاءَ، الشَّاهِدُ أَيْنَ هُوَ؟ الشَّاهِدُ فِي كَوْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «المُوَطَّأِ» يُورِدُ تَحْتَ «بَابِ مَا جَاءَ فِي المشْرِقِ» هَذَا الحَدِيثَ وَيُتْبِعُهُ بِخَبَرِ عُمَرَ فِي خُرُوجِهِ لِلْعِرَاقِ.

وَثَمَّةَ رِوَايَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هِيَ أَقْوَى مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَا، وَيَقِلُّ أَنْ يُتَفَطَّنَ لَهَا، وَهِيَ أَهَمُّ مِنْ كَلَامِ مَالِكٍ وَالخَطَّابِيِّ وَابْنِ حَجَرٍ، وَهِيَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَجَّهَ الكَلَامَ إِلَى أَهْلِ العِرَاقِ، فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ! مَا أَسْأَلَكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ، وَأَرْكَبَكُمُ الكَبِيرَةَ»، ثُمَّ رَوَى هَذَا الحَدِيثَ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا» -وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ المشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ-. وَهَذَا يُظْهِرُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- يَحْمِلُ أَيْضًا الحَدِيثَ عَلَى العِرَاقِ.

وَمِنْهُ مَا رَوَى البُخَارِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ العِرَاقِ أَتَى ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: «أَسْأَلُكَ عَنْ دَمِ

البَعُوضَةِ». يَسْأَلُ عَنْ دَمِ البَعُوضَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «مِنْ أَيِّ البِلَادِ أَنْتَ؟» قَالَ: «مِنَ العِرَاقِ». قَالَ: «وا عَجَبًا لَكُمْ يَا أَهْلَ العِرَاقِ! تَسْأَلُونَ عَنْ دَمِ البَعُوضَةِ، وَقَدِ اسْتَحَلَّتْمْ دَمَ ابْنِ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!»؛ يَقُولُ: تَقْتُلُونَ الحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، ثُمَّ تَأْتِي تَتَوَرَّعُ تَسْأَلُ عَنْ حُكْمِ دَمِ البَعُوضَةِ! يَقُولُ: مَا دُمْتُمُ اسْتَحْلَلْتُمْ دَمَ ابْنِ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا مَعْنَى السُّؤَالِ عَنْ دَمِ البَعُوضَةِ؟! وَذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ كَثْرَةِ مَا كَانَ هُنَاكَ عِنْدَهُمْ مِنَ التَّعَنُّتِ.

وَقَد رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ أَوْ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي المصَنَّفِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ فِي العِرَاقِ: «وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ لَا يَصِلُونَ إِلَيْنَا وَلَا نَصِلُ إِلَيْهِمْ»، وَهَذَا -وَاللهُ أَعْلَمُ- مِمَّا يُقَوِّي أَنَّ المرَادَ بِهَا: العِرَاقُ، لَا سِيَّمَا مَعَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «هُنَاكَ الزَّلَازِلُ»، فَالزَّلَازِلُ الَّتِي كَانَتْ فِي جِهَةِ العِرَاقِ وَفِي المشْرِقِ إِذَا دَرَسْتَ التَّارِيخَ تَجِدُهَا كَثِيرَةً وَتَجِدُهَا هَائِلَةً مُرَوِّعَةً، بَيْنَمَا الزَّلَازِلُ فِي نَجْدٍ لَا يُكَادُ يُعْرَفُ لَهَا ذِكْرٌ، مَعَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا: «وَالفِتَنُ».

رَجَّحَ هَذَا بَعْضُ الشُّرَّاحِ بِأَمْرٍ آخَرَ، وَهُوَ كَثْرَةُ مَا وَقَعَ فِي العِرَاقِ نَفْسِهَا مِنَ الفِتَنِ التَّطْبِيقِيَّةِ، فَيَقُولُونَ: الحُرُوبُ الكِبَارُ كَانَتْ فِي العِرَاقِ وَفِي المشْرِقِ -مِنْ جِهَةِ المشْرِقِ-، قَتَلَةُ عُثْمَانَ -حَيْثُ كَانَتْ أَوَّلَ فِتْنَةٍ- خَرَجَ مَجْمُوعَةٌ مِنْهُمْ مِنَ الكُوفَةِ وَمِنَ البَصْرَةِ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَوَقَعَتِ المَوْقِعَةُ -مَوْقِعَةُ الجَمَلِ- فِي العِرَاقِ، قَالُوا: وَبِالنَّظَرِ إِلَى كَثْرَةِ مَا وَقَعَ مِنَ البِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ؛ فَالخَوَارِجُ نَشَؤُوا فِي العِرَاقِ، وَالرَّافِضَةُ فِي العِرَاقِ، وَالمعْتَزِلَةُ فِي العِرَاقِ، وَالجَهْمِيَّةُ خَلْفَ العِرَاقِ فِي المشْرِقِ فِي خُرَاسَانَ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ امْتَدَّتْ إِلَى العِرَاقِ وَإِلَى غَيْرِهَا. قَالُوا: بَيْنَمَا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ هَائِلٌ كَهَذَا فِي نَجْدٍ المعْرُوفَةِ؛ مَعَ أَنَّ نَجْدًا بِهَا شَرٌّ كَثِيرٌ زَمَنَ الرِّدَّةِ. لَكِنْ كَمَا قُلْتُ: الرِّدَّةُ الَّتِي وَقَعَتْ كَانَتْ فِي نَجْدٍ وَفِي غَيْرِهَا، فَكَانَتِ الرِّدَّةُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَوَاطِنِ العَرَبِ.

وَلْيُعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا تَحَدَّثَ عَنْ قَبِيلَةٍ أَوْ عَنْ مَوْطِنٍ فَلَا يَجُوزُ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ أَنْ يُتَّخَذَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّنَابُزِ بِالأَلْقَابِ، فَإِذَا رُئِيَ رَجُلٌ قِيلَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قَالَ فِيكُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَا. وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الفِرْدَوْسِ، النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكَلَّمَ عَنْ أَهْلِ ....

وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ كَلِمَةً تُكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ فِي شَرْحِ الحَدِيثِ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» قَالَ: العِبْرَةُ عَلَى كُلِّ حَالٍ بِالأَفْعَالِ. وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ، فَالَّذِي يَلْزَمُ السُّنَّةَ -بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَوْطِنِهِ؛ حَتَّى لَوْ كَانَ فِي مَوْطِنٍ يَكْثُرُ فِيهِ شَتْمُ الصَّحَابَةِ، وَيَكْثُرُ فِيهِ

الشِّرْكُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الفَسَادُ، هَذَا الرَّجُلُ عَلَى السُّنَّةِ- فَلَا يَضُرُّهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالَةِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى التَّزَحْزُحِ عَنْهُ.

ثُمَّ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُصْرَفَ الأَحَادِيثُ بِحَيْثُ يَتْعَبُ أَهْلُ البَلَدِ حَتَّى يَجْعَلُوا الحَدِيثَ فِي غَيْرِهِمْ، لَا، فَلَو تَرَجَّحَ لَنَا أَنَّهَا نَجْدٌ هَذِهِ لَجَزَمْنَا بِهَا بِحَمْدِ اللهِ، لَكِنْ بِالنَّظَرِ إِلَى كَلَامِ ابْنِ عُمَرَ -وَهُوَ أَهَمُّ المَوَاضِعِ؛ لِأَنَّهُ رَوَى الحَدِيثَ لِأَهْلِ العِرَاقِ-، وَبِالنَّظَرِ لِكَلَامِ مَالِكٍ -وَهُوَ إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، وَذَكَرَ الحَدِيثَ فِي «بَابِ مَا جَاءَ فِي المَشْرِقِ»، وَذَكَرَ مَعَ الحَدِيثِ أَمْرَ العِرَاقِ-، وَبِالنَّظَرِ إِلَى المَعْنَى الَّذِي قَالَهُ الشُّرَّاحُ مِنْ أَنَّ نَجْدَ المَدِينَةِ هِيَ العِرَاقُ؛ حَيْثُ هِيَ شَرْقُهَا وَلَيْسَتْ نَجْدًا المَعْرُوفَةَ هَذِهِ، ثُمَّ إِنَّ الجَزِيرَةَ العَرَبِيَّةَ قَدْ خَصَّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَجْدٍ وَفِي مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ بِحُكْمٍ وَاحِدٍ، وَهِيَ أَلَّا يُقِيمَ فِيهَا مُشْرِكٌ إِقَامَةً دَائِمَةً، وَقَالَ: «**لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»، بِخِلَافِ العِرَاقِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا: «**لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»، وَقَالَ: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**».

فَبِالنَّظَرِ إِلَى مَا وَقَعَ فِي التَّارِيخِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى لَا يُقَارَنُ مَا وَقَعَ فِي نَجْدٍ هَذِهِ بِالَّذِي وَقَعَ فِي العِرَاقِ وَمَا خَلْفَهَا، وَهَذَا مِمَّا يُرَجِّحُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِنَجْدٍ هُنَا: العِرَاقَ وَمَا وَرَاءَهَا؛ لِلِاعْتِبَارَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَا، وَمِنْ أَهَمِّهَا: كَلَامُ ابْنِ عُمَرَ وَغَيْرِهِ، وَمِنْ أَهَمِّهَا أَيْضًا أَنَّهُمْ قَالُوا: «نَجْدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَفِي نَجْدِنَا»، فَكَأَنَّهُمْ حَدَّدُوا -وَاللهُ أَعْلَمُ- النَّجْدَ المُخْتَصَّ بِالمَدِينَةِ وَلَمْ يُرِيدُوا نَجْدًا البُقْعَةَ المَعْرُوفَةَ هَذِهِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ كَوْنِ الوَاقِعِ فِي نَجْدٍ لَا يُقَارَنُ أَلْبَتَّةَ مِنْ حَيْثُ الفِتَنِ بِالوَاقِعِ فِي العِرَاقِ وَفِي المَشْرِقِ وَفِي غَيْرِهَا، هَذَا الَّذِي يَتَرَجَّحُ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(13) «بَابُ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ»

«**بَابُ الفِتْنَةِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ**» عِيَاذًا بِاللهِ، وَهِيَ لَيْسَتْ مِنَ الفِتَنِ اليَسِيرَةِ، وَلَكِنَّهَا مِنَ الفِتَنِ الهَائِلَةِ الشَّدِيدَةِ، حَتَّى إِنَّهَا لِشِدَّتِهَا تَكُونُ كَالمَوْجِ -مَوْجِ البَحْرِ-، مَوْجُ البَحْرِ يَتَدَافَعُ عِيَاذًا بِاللهِ.

يَقُولُ: كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَتَمَثَّلُوا بِأَبْيَاتِ امْرِئِ القَيْسِ هَذِهِ: «الحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةً» يَعْنِي: شَابَّةً، يَغْتَرُّ بِهَا مَنْ لَمْ يُجَرِّبِ الحُرُوبَ، فَيَدْخُلُ فِي الحُرُوبِ فَيَهْلِكُ؛ لِأَنَّ لِلْحَرْبِ أَوَّلَ مَا تَبْدَأُ زِينَةً تَحْلُو لِلْجَاهِلِ كَمَا تَحْلُو زِينَةُ البِنْتِ الشَّابَّةِ لِلرَّجُلِ.

الحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةً تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولِ

يَعْنِي: يَغْتَرُّ بِهَا شَدِيدُ الجَهْلِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُجَرِّبِ الأُمُورَ وَلَمْ يَعْلَمْهَا.

«**حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا**» يَعْنِي: إِذَا هَاجَتْ وَاتَّقَدَتْ اتَّضَحَتْ حَقِيقَةُ تِلْكَ الفَتَاةِ الَّتِي غَرَّتِ الجَهُولَ؛ إِذْ أَضْحَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلٍ، أَيْ: لَا زَوْجَ لَهَا.

«**شَمْطَاءَ**» الشَّمَطُ اخْتِلَاطُ الشَّعْرِ الأَبْيَضِ بِالأَسْوَدِ.

شَمْطَاءَ يُنْكَرُ لَوْنُهَا وَتَغَيَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

لَيْسَتْ مِثْلَ الشَّابَّةِ، يَعْنِي: أَنَّهَا عَجُوزٌ شَعْرُهَا قَدْ عَلَاهُ الشَّيْبُ، «**مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ**» أَيْ: فَمُهَا فِيهِ البَخَرُ فَرَائِحَتُهُ مُنْتِنَةٌ، لَا يُحِبُّ أَحَدٌ تَقْبِيلَهَا وَلَا شَمَّهَا، يَقُولُ: هَذِهِ نِهَايَاتُهَا. بِدَايَاتُ الحُرُوبِ يَغْتَرُّ بِهَا الجُهَّالُ فَيَطِيرُونَ إِلَيْهَا، حَتَّى إِنَّكَ تُحَاوِلُ أَنْ تُسَكِّنَهُمْ وَتَقُولَ: ابْحَثُوا عَنْ حَلٍّ دُونَ الحَرْبِ. فَأَبَدًا، يَطِيشُونَ مُبَاشَرَةً إِلَى الحَرْبِ، لِمَ؟ لِأَنَّ لَهَا زِينَةً، وَلِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ سَيُؤَدِّبُ مَنْ أَغْضَبَهُ بِهَذِهِ الحَرْبِ.

يَقُولُ: مِثْلُ مَا تَفْعَلُ الشَّابَّةُ حِينَ يَغْتَرُّ بِهَا الجَهُولُ، لَكِنْ حِينَ اشْتَعَلَتْ وَظَهَرَتْ آثَارُهَا وَمَا خَلَّفَتْ مِنْ بَلَاءٍ، وَتَدْمِيرٍ، وَقَتْلٍ، وَخَوْفٍ، وَبَلَاءٍ اتَّضَحَتِ الأُمُورُ فَوَلَّتْ تِلْكَ الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا هَؤُلَاءِ، وَلَّتْ عَجُوزًا لَا زَوْجَ لَهَا.

شَمْطَاءَ يُنْكَرُ لَوْنُهَا وَتَغَيَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

يَقُولُ: كَانُوا يَسْتَذْكِرُونَ، يُذَكِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ، يَسْتَحْضِرُونَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الفِتَنِ لِتَصُدَّهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِيهَا، يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الأَبْيَاتَ؛ لِأَنَّهَا هَكَذَا الحُرُوبُ –عِيَاذًا بِاللهِ– وَالفِتَنُ فِي بِدَايَاتِهَا تَطِيشُ النُّفُوسُ لَهَا، لَكِنْ إِذَا مَرَّ شَهْرٌ وَشَهْرَانِ ثَلَاثَةٌ، تَشَرَّدَ النَّاسُ، لَمْ تَنْحَسِمِ الأُمُورُ، اشْتَدَّ الخَوْفُ، اشْتَدَّ الجُوعُ، اشْتَدَّ المَرَضُ فِي حَرْبٍ لَيْسَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، اجْتَمَعَ الشَّرُّ كُلُّهُ، تَبَيَّنَ لِلْغِرِّ أَنَّ تِلْكَ الَّتِي ظَنَّهَا فَتَاةً جَمِيلَةً اتَّضَحَ لَهُ أَنَّهَا عَجُوزٌ شَمْطَاءُ مَكْرُوهَةٌ لَا يُحِبُّ أَحَدٌ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِهَا، فَكَانُوا يَتَذَكَّرُونَ هَذِهِ الأَبْيَاتَ حَتَّى تَزَعَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي الفِتَنِ.

«حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا شَقِيقٌ، سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ عُمَرَ إِذْ قَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ؟ قَالَ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ. قَالَ: لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ، وَلَكِنِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ. فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا. قَالَ عُمَرُ: أَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ. قَالَ عُمَرُ: إِذًا لَا يُغْلَقُ أَبَدًا؟ قُلْتُ: أَجَلْ. قُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً، وَذَلِكَ أَنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ مَنِ الْبَابُ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: مَنِ الْبَابُ؟ قَالَ: عُمَرُ»[127].

فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ؟**» أَطْلَقَ العِبَارَةَ هُنَا. فَرَدَّ عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ: «**فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ**» هَذِهِ مَوْجُودَةٌ لِلجَمِيعِ، «**تُكَفِّرُهَا**» وَللهِ الحَمْدُ «**الصَّلَاةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ**» قَالَ شَيْخُنَا ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ مَعْنَى فِتْنَةِ الأَهْلِ وَالأَوْلَادِ، قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: قَدْ يَسُبُّهُمْ وَيَقُولُ كَلَامًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ؛ فَهَذَا تُكَفِّرُهُ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ .. إِلخ.

يَعْنِي: قَدْ يَغْضَبُ الأَبُ عَلَى أَبْنَائِهِ، يَسُبُّهُمْ يَذُمُّهُمْ، يَقُولُ كَلَامًا فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، كَمَا غَضِبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى ابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ –كَمَا فِي البُخَارِيِّ– حِينَ لَمْ يَتَعَشَّ أَضْيَافُهُ، يَقُولُ: فَسَبَّ وَجَدَّعَ وَقَالَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ. وَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُنِي إِلَّا أَجَبْتَنِي. الوَالِدُ يَغْضَبُ مِنْ وَلَدِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُهِمٌّ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لِطَلَبَةِ العِلْمِ، لَوْ سَبَّكَ أَبُوكَ وَأُمُّكَ عَلَى الرَّأْسِ وَالعَيْنِ، إِيَّاكَ أَنْ تَرُدَّ، لَا تَكُنْ أَحْمَقَ؛ لِأَنَّ الأَبَ قَدْ يَغْضَبُ، وَأَيْضًا الأَبُ إِذَا كَبِرَ سِنُّهُ ضَاقَ خُلُقُهُ جِدًّا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ**﴾ نَصَّ تَعَالَى عَلَى الكِبَرِ، ﴿**أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ**﴾[128].

يَقُولُ العَلَّامَةُ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ صَاحِبُ «أَضْوَاءِ البَيَانِ» يَقُولُ: ذَكَرَ اللهُ الكِبْرَ؛ لِأَنَّ الكَبِيرَ يُدْخِلُ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ؛ يَعْنِي: يَبْدَأُ الأَبُ يَقُولُ لِأَبْنَائِهِ –حَتَّى لَوْ كَانَ عِنْدَهُ أَوْلَادٌ–: لِمَاذَا تَذْهَبُونَ؟ مَا الَّذِي يَحْمِلُكُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا كَذَا؟ لَا تَفْعَلُوا كَذَا. يَقُولُ: يَبْدَأُ يُدْخِلُ نَفْسَهُ فِي أُمُورٍ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يُدْخِلَ نَفْسَهُ فِيهَا. يَقُولُ: لَكِنَّ ذَوِي الإِيمَانِ وَتَقْوَى اللهِ يَتَحَمَّلُونَهَا مِنْ آبَائِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَالِ كِبَرِهِمْ يَقَعُ

(127) أخرجه البخاري في كتاب الفتن– باب الفتنة التي تموج كموج البحر (7096).

([128]) سورة الإسراء: 23.

مِنْهُمْ هَذَا، يَضِيقُ خُلُقُهُمْ، تَكْثُرُ أَمْرَاضُهُمْ، يَقِلُّ تَحَمُّلُهُمْ؛ فَيَنْبَغِي بِالمؤْمِنِ أَنْ يَتَحَمَّلَ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَسُبُّكَ أَبُوكَ أَوْ أُمُّكَ، وَلَمَّا سَبَّ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مَعَ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ كَانَ قَدْ قَاتَلَ فِي بَدْرٍ، يَقُولُ: «فَاحْتَبَأْتُ» يَخْشَى رُبَّمَا يَضْرِبُهُ أَبُوهُ، مَا يَمْنَعُ؟ قَدْ يَضْرِبُكَ أَبُوكَ، مَا الَّذِي يَخْدُشُ يَعْنِي؟

وَلِهَذَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لَمَّا قَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ عَائِشَةَ حَبَسَتِ النَّاسَ عَلَى عِقْدٍ لَهَا وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، قَالَتْ: «فَأَتَانِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَلَكَزَنِي وَصَارَ يَضْرِبُنِي»، وَتَقُولُ: «مَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَحَرَّكَ إِلَّا مَقَامُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ حَيْثُ تَوَسَّدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخِذَهَا، تَقُولُ: لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَحَرَّكَ مِنْ ضَرْبِهِ؛ لِأَنَّهَا لَا تُرِيدُ أَنْ تَتَحَرَّكَ فَيُفِيقُ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَكَانَتْ تَتَحَمَّلُ حَتَّى لَا يَقُومَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَبُو بَكْرٍ مَنْ يَضْرِبُ؟ أُمَّ المؤْمِنِينَ.

فَاليَوْمَ الآبَاءُ لَا يَضْرِبُونَ وَلَا يُفَكِّرُونَ فِي الضَّرْبِ، لَكِنْ قَدْ يَقُولُ وَاحِدٌ مِنْهُمُ الكَلِمَةَ، فَيَغْضَبُ الابْنُ، غَاضَبَ أَبَاهُ، يَقُولُ لِي هَذَا الكَلَامَ؟! يَقُولُ لَكَ هَذَا الكَلَامَ وَأَضْعَافَهُ وَأَنْفُكَ فِي الأَرْضِ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ لَا تَرُدَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[129] لَا بُدَّ مِنْ هَذَا؛ فَلِهَذَا قَدْ يَقَعُ مِنَ الأَبِ شَيْءٌ مِنَ السَّبِّ، قَدْ يَقَعُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنَ الكَلِمَاتِ القَبِيحَةِ يَقُولُهَا لِابْنِهِ.

فَالَّذِي زَكَّى اللهُ نَفْسَهُ وَنَفَعَهُ اللهُ بِعِلْمِهِ يَتَحَمَّلُهُ مِنْ أَبِيهِ وَمِنْ أُمِّهِ، أَمَّا غَيْرُ المؤَفَّقِ -نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ- فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَبَوَيْنِ: «فِيهِمَا فَجَاهِدْ»، فَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى جِهَادٍ، مِنْ أَعْظَمِهِ وَأَوَّلِهِ التَّحَمُّلُ، لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَمَّلَ مِنْهُمْ، بَعْضُ الشَّبَابِ يَقُولُ: يَمْضِي وَقْتِي إِلَى أَنْ أَمْشِيَ مَعَ الشَّبَابِ كُلَّ يَوْمٍ، أَذْهَبُ بِهِمْ هَكَذَا، مَرَّةً أُوصِلُهُمْ لِلْمُسْتَشْفَى، وَمَرَّةً يَقُولُ سَافَرَ بِهِ إِلَى البَلَدِ، وَهَلْ أَنْتَ مَخْلُوقٌ إِلَّا لِخِدْمَتِهِ بَعْدَ أَدَاءِ عِبَادَةِ اللهِ وَإِلَّا لِلتَّفَانِي فِي إِرْضَائِهِ؟! لَا بُدَّ مِنْ هَذَا؛ وَلِهَذَا كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ»[130]، قَدْ يُفْتَنُ بِالسَّبِّ؛ وَلِهَذَا جَاءَ عَنْ مُعَاذٍ أَوْ عَنْ حُذَيْفَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فِي لِسَانِي ضَرْبًا عَلَى أَهْلِي» فِي لِسَانِهِ شَيْءٌ مِنَ السُّلْطَةِ عَلَى أَهْلِهِ، فَوَجَّهَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ.

([129]) سورة الإسراء: 24.

(130) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب الفتنة التي تموج كموج البحر (7096)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (144).

فَعُمَرُ لَا يَسْأَلُ عَنْ هَذِهِ الفِتْنَةِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ عَامَّةٌ وَمَوْجُودَةٌ، فَقَالَ: «**لَيْسَ عَنْ هَذَا أَسْأَلُكَ، لَكِنِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ**» عِيَاذًا بِاللهِ! تَشْبِيهُهَا بِمَوْجِ البَحْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ فِتْنَةً يَسِيرَةً.

قَالَ: «**لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ**»؛ يَعْنِي: أَنَّهَا لَنْ تُدْرِكَكَ، «**إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا**»؛ يَعْنِي: هَذِهِ الفِتْنَةُ لَنْ تَقَعَ فِيهَا أَنْتَ، سَيَقَعُ فِيهَا غَيْرُكَ.

قَالَ عُمَرُ: «**أَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟**»؛ هَذَا البَابُ الَّذِي مَنَعَ الفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ هَلْ يُفْتَحُ فَتْحًا، أَمْ يُكْسَرُ كَسْرًا؟ الفَرْقُ بَيِّنٌ، إِذَا كَانَ يُفْتَحُ فَتْحًا فَبِالإِمْكَانِ مَاذَا؟ إِغْلَاقُهُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ يُكْسَرُ كَسْرًا فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَسْتَمِرُّ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَكَذَلِكَ كَانَ.

قَالَ: «**بَلْ يُكْسَرُ**»، قَالَ: «**إِذًا لَا يُغْلَقُ أَبَدًا**»؛ وَكَذَلِكَ وَقَعَ، وَلِهَذَا فِي حَدِيثِ شَدَّادٍ[131] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[132]؛ وَهَذَا هُوَ الوَاقِعُ، أَنَّ السَّيْفَ لَمَّا وَقَعَ مُنْذُ زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَالبَأْسُ بَيْنَ الأُمَّةِ فِيمَا بَيْنَهَا إِلَّا فِي بَعْضِ العُصُورِ، وَلَكِنْ لَا يَسْلَمُ مِنْ أَنْ يَقَعَ قِتَالٌ، وَكَانُوا زَمَنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا قِتَالَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَبَدًا، مَا كَانَ هُنَاكَ قِتَالٌ، إِنَّمَا كَانَ القِتَالُ مُحَدَّدًا بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ أَهْلِ الرِّدَّةِ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ النَّصَارَى مِنَ الرُّومِ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ المَجُوسِ مِنَ الفُرْسِ، بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ كُفَّارِ التُّرْكِ حِينَ وُصِلَ إِلَى أَوَائِلِهِمْ، هَكَذَا كَانَ القِتَالُ، لَكِنْ قَبْلَهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قِتَالٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ.

فَلَمَّا أَخْبَرَهُ أَنَّ البَابَ يُكْسَرُ قَالَ: «**إِذًا لَا يُغْلَقُ أَبَدًا**»، فَسَأَلُوا حُذَيْفَةَ: «**أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ مَنْ هُوَ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ غَدٍ لَيْلَةً**»، يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ غَدًا لَنْ يَأْتِيَ إِلَّا إِذَا أَتَى اللَّيْلُ قَبْلَهُ، يَقُولُ: هُوَ مُتَأَكِّدٌ تَمَامًا كَمَا أَنَّ غَدًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّصِلَ الثُّلَاثَاءُ اليَوْمَ فَتَغْرُبُ الشَّمْسُ اليَوْمَ وَتُشْرِقُ الأَرْبِعَاءَ مُبَاشَرَةً، لَا بُدَّ مِنْ لَيْلٍ، لَيْلَةُ الأَرْبِعَاءِ هَذِهِ لَا بُدَّ مِنْهَا، يَقُولُ: كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْمًا مُؤَكَّدًا أَنَّهُ هُوَ البَابُ.

---

(131) هو: الصحابي ثوبان بن بُجْدُد، أبو عبدالله، وقيل: أبو عبد الرحمن، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السبي، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه. فلم يزل معه حضرًا وسفرًا، إلى أن مات -عليه السلام. حفظ عنه، وأدى ما وعى. توفي سنة أربع وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: 108 ترجمة 286)، وأسد الغابة (480/1 ترجمة 624).

(132) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن- باب ما جاء في الهرج والعبادة فيه (2202)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب ما يكون من الفتن (3952)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (828).

«**وَذَلِكَ أَنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ**» مَضْبُوطٌ. قَالَ: «**فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ مَنِ الْبَابُ**» مَنْ هُوَ هَذَا البَابُ الَّذِي إِذَا زَالَ وَكُسِرَ انْفَتَحَتْ هَذِهِ الفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ، فَسَأَلُوا أَوْ طَلَبُوا مِنْ مَسْرُوقٍ رَحِمَهُ اللهُ -وَكَأَنَّهُ لِمَكَانَةٍ لَهُ عِنْدَ حُذَيْفَةَ- أَنْ يَسْأَلَهُ عَنِ البَابِ، مَنِ المَقْصُودُ بِالبَابِ الَّذِي حَالَ اللهُ بِهِ دُونَ الفِتَنِ؟ فَقَالَ: «عُمَرُ» وَكَذَلِكَ كَانَ؛ فَإِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ حَالَ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِتَنٍ كَثِيرَةٍ، وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ الوَقِيعَةَ فِي عُثْمَانَ، لَا، لِأَنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، الفِتْنُ المُدْلَهِمَّةُ مَتَى أَتَتْ؟ لَمَّا قُتِلَ، الفِتَنُ العَظِيمَةُ الشَّدِيدَةُ لَمَّا أَتَتْ بِقَتْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لَكِنْ مَبَادِؤُهَا وَالَّذِينَ سَبَّبُوا إِشْكَالًا وَتَشْوِيشًا عَلَى النَّاسِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إِلَى أَنِ انْتَهَى أَمْرُ الخُصُومَاتِ وَالنِّزَاعَاتِ إِلَى حَدِّ قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ نَشَأَ مِنْ ذَلِكَ الحُرُوبُ الَّتِي تَوَلَّدَ مِنْهَا مَا تَوَلَّدَ.

(14) «بَابُ»

«حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ الْهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ نَفَعَنِي اللهُ بِكَلِمَةٍ أَيَّامَ الجَمَلِ؛ لَمَّا بَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ فَارِسًا مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَى قَالَ: لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[133].

ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَأَبُو بَكْرَةَ رُغْمَ تَأَخُّرِ إِسْلَامِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إِنَّهُ سُمِّيَ أَبَا بَكْرَةَ لِأَنَّهُ فِي حِصَارِ الطَّائِفِ كَانَ مَمْلُوكًا لِبَعْضِ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَكَانَ مَنْ فَرَّ مِنْ مَوَالِيَ وَعَبِيدِ أَهْلِ الكُفْرِ إِلَى المُسْلِمِينَ صَارَ حُرًّا، فَفَرَّ أَبُو بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَنَزَلَ إِلَى المُسْلِمِينَ بِبَكْرَةَ، فَسُمِّيَ أَبَا بَكْرَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ حَمَلَ عِلْمًا، وَكَانَ لَهُ كَلِمَتُهُ وَمَكَانَتُهُ عَلَيْهِ رِضْوَانُ اللهِ.

هَذَا الحَدِيثُ فِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَلَغَهُ خَبَرٌ عَنْ كُفَّارٍ -وَهُمُ الفُرْسُ- أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ مَلِكُهُمْ كِسْرَى مَلَّكُوا بِنْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، مَلَّكُوا ابْنَةَ كِسْرَى بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً».

هَذَا النَّصُّ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا أَهْلُ العِلْمِ عَدَمَ جَوَازِ تَوْلِيَةِ المَرْأَةِ وِلَايَةً عَامَّةً، وَالوِلَايَةُ نَوْعَانِ: وِلَايَةٌ خَاصَّةٌ، وَوِلَايَةٌ عَامَّةٌ.

الوِلَايَةُ الخَاصَّةُ؛ كَوِلَايَةِ المَرْأَةِ عَلَى نِظَارَةِ وَقْفٍ، كَأَنْ يُتَوَفَّى إِنْسَانٌ فَيَقُولُ: هَذِهِ العِمَارَةُ وَقْفٌ، المَسْئُولُ عَنْهَا ابْنَتِي فُلَانَةُ. يَحِلُّ مَا فِي هَذَا بَأْسٌ، لِأَنَّ هَذِهِ وِلَايَةٌ خَاصَّةٌ، أَوْ أَنْ تَتَوَلَّى المَرْأَةُ عَلَى صِبْيَانِهَا مِنْ بَعْدِ زَوْجِهَا إِذَا تُوُفِّيَ.

(133) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب الفتنة التي تموج كموج البحر (7099).

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الوِلَايَاتِ: الوِلَايَةُ العَامَّةُ، وَرَأْسُهَا: الخِلَافَةُ وَالمُلْكُ، وَمِنْهَا أَيْضًا –الوِلَايَةُ العَامَّةُ– الوَزَارَةُ، وَمِنْهَا أَيْضًا: القَضَاءُ وَالإِمَارَةُ، فَكُلُّ هَذَا لَا يَحِلُّ أَنْ تَتَوَلَّاهُ المَرْأَةُ، وَمَا هُيِّئَتِ النِّسَاءُ فِي الإِسْلَامِ لِمِثْلِ هَذَا أَصْلًا، وَأَمْرُ الِاحْتِشَامِ وَالسَّتْرِ، وَالنَّهْيُ عَنْ مُخَالَطَتِهَا لِلرِّجَالِ يَأْبَى أَنْ تَكُونَ بَارِزَةً لَهُمْ، آتِيَةً لَهُمْ وَآتُونَ إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ وَالِيًا، وَالوَالِي يَلْزَمُهُ أَنْ يَتَفَقَّدَ رَعِيَّتَهُ، وَيَذْهَبَ وَيَلْتَمِسَ أَحْوَالَهُمْ، ثُمَّ إِذَا احْتَصَمُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ، ذَلِكَ يَعْنِي: أَنَّهَا سَتَكُونُ فِي حَالٍ مِنَ الِامْتِهَانِ.

وَقَدْ تَرْجَمَ النَّسَائِيُّ تَرْجَمَةً فِي غَايَةِ الحُسْنِ، قَالَ فِيهَا: «بَابُ صِيَانَةِ المَرْأَةِ عَنْ مَجْلِسِ الحُكْمِ»، ثُمَّ رَوَى بِسَنَدِهِ قِصَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي زَنَتِ امْرَأَتُهُ، وَفِي آخِرِهَا أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**»[134]، «**وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ**» اذْهَبْ إِلَيْهَا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يُؤْتَى بِهَا، «**فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**» هُنَاكَ أَيْضًا، فَاسْتَنْبَطَ مِنْهُ هَذَا الإِمَامُ الجَلِيلُ هَذِهِ التَّرْجَمَةَ –صِيَانَةَ المَرْأَةِ عَنْ مَجْلِسِ الحُكْمِ–؛ فَكَيْفَ تَكُونُ هِيَ القَائِمَةَ عَلَى الحُكْمِ فَيَأْتِي إِلَيْهَا النَّاسُ، وَيَأْتِي إِلَيْهَا الرِّجَالُ، وَيَأْتِي إِلَيْهَا الشَّبَابُ، وَيَتَخَاصَمُونَ عِنْدَهَا؟ لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ وَلَا يَحِلُّ فِي دِينِ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ العِلْمِ.

فَالوِلَايَةُ العَامَّةُ مُقْتَضَاهَا أَنْ يُخْتَلَطَ بِالرِّجَالِ، وَأَنْ تُكْثِرَ التَّنَقُّلَ وَالتَّرْحَالَ، وَالوِلَايَةُ أَيْضًا مُرْتَبِطٌ بِهَا أَمْرُ الصَّلَاةِ وَالخُطْبَةِ وَالعِيدَيْنِ وَالحَجِّ، فَهَلْ يَسُوغُ أَنْ تَتَوَلَّى المَرْأَةُ هَذَا؟ لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَصْلُحُ، وَهَذَا هُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ؛ إِلَّا قَوْلٌ شَاذٌّ لَا يُؤْبَهُ بِهِ أَحْيَاهُ بَعْضُ أَهْلِ الهَوَى فِي هَذِهِ الأَزْمِنَةِ، وَقَالُوا: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَتَوَلَّى المَرْأَةُ الوِلَايَةَ العَامَّةَ. وَيَنْبُشُونَ عَادَةً كَمَا نَبَشُوا فِي حُكْمِ الغِنَاءِ، وَوَجَدُوا قَوْلًا بَاطِلًا بِحِلِّهِ، وَنَبَشُوا أَيْضًا عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الأَقْوَالِ الشَّاذَّةِ، فَوَجَدُوا قَوْلًا بِجَوَازِ أَنْ تَتَوَلَّى المَرْأَةُ الوِلَايَةَ العَامَّةَ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي التَّارِيخِ المَجِيدِ فِي سِيرَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ لَمْ تَتَوَلَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ وِلَايَةً عَامَّةً.

وَمَا جَاءَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ وَلَّى الشَّفَّاءَ بِنْتَ عَبْدِ اللهِ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ السُّوقِ، فَهُوَ ضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ، فِيهِ ابْنُ لَهِيعَةَ رَاوٍ ضَعِيفٌ، وَفِيهِ رَاوٍ لَمْ يُسَمَّ؛ فَلَا يَثْبُتُ هَذَا الأَثَرُ، وَهُوَ –كَمَا قُلْنَا– فِيهِ مَا فِيهِ مِنَ النَّكَارَةِ الشَّدِيدَةِ جِدًّا أَنْ يُفْعَلَ هَذَا فِي تِلْكَ العُصُورِ الزَّاهِرَةِ، وَهُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَ المُسْلِمِينَ وَهُوَ الَّذِي دَرَجُوا عَلَيْهِ.

وَتَأَمَّلْ فِي الحَدِيثِ فَائِدَةً، وَهِيَ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ أَنَّ هَذَا الخَبَرَ مِنْ أَخْبَارِ الكُفَّارِ، إِلَّا أَنَّهُ عَلَّقَ عَلَيْهِ وَعَقَّبَ عَلَيْهِ،

([134]) أخرجه البخاري في كتاب الشروط– باب الشروط التي لا تحل في الحدود (2725)، ومسلم في كتاب الحدود– باب من اعترف على نفسه بالزنى (1698).

الخَبَرُ مِنْ أَخْبَارِ الفُرْسِ، وَالفُرْسُ كُفَّارٌ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَهُمْ عُبَّادُ النَّارِ، لَكِنْ لَمَّا جَاءَ هَذَا الحَدَثُ -لِأَنَّهُ حَدَثٌ عَجِيبٌ جِدًّا- قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»، بَعْضُ المتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ يَهْوَوْنَ أَنْ يَعْبَثُوا بِالنُّصُوصِ قَالُوا: إِنَّ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» خَاصٌّ بِالفُرْسِ، يَعْنِي أَنَّهُ يُقْصَدُ بِهِ الفُرْسُ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَنْ يُفْلِحَ الفُرْسُ الَّذِينَ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً!، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا بَاطِلٌ كُلَّ البُطْلَانِ لِأُمُورٍ؛ مِنْهَا:

أَوَّلًا: أَنَّ قَوْلَهُ «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ»، «قَوْمٌ» نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ وَهِيَ تَعُمُّ، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي الأُصُولِ، أَنَّ النَّكِرَةَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[135]، ﴿ظُلْمًا﴾ نَكِرَةٌ مَنْفِيَّةٌ، لَا يَظْلِمُ عَزَّ وَجَلَّ أَيَّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[136]؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ تَعُمُّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ، فَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ.

الأَمْرُ الثَّانِي: مَا قَرَّرَهُ أَهْلُ العِلْمِ مِنْ أَنَّ العِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَكَوْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ كَلِمَةً عَامَّةً فِي مُنَاسَبَةٍ خَاصَّةٍ لَا يُرْبَطُ الكَلَامُ العَامُّ بِالمنَاسَبَةِ الخَاصَّةِ. الدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا وَقَعَ مِنْ رَجُلٍ مَا وَقَعَ مِنْ تَقْبِيلِهِ امْرَأَةً، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! طَهِّرْنِي، أَقِمْ حَدَّ اللهِ عَلَيَّ؛ لِأَنَّهُ نَدِمَ عَلَى مَا تَصَرَّفَ مِنْ فِعْلِهِ مَعَ هَذِهِ المرْأَةِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَجُوزُ قَطْعًا، فَكَانَتْ صَلَاةُ العَصْرِ حَاضِرَةً، فَصَلَّى الرَّجُلُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[137]، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصَلَّيْتَ مَعَنَا؟» قَالَ: نَعَمْ. فَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ كَصَلَاةِ العَصْرِ ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[138] كَفِعْلَتِهِ تِلْكَ، قَالَ: أَلِهَذَا خَاصَّةً يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ فِي رِوَايَةٍ: «بَلْ لِأُمَّتِي أَجْمَعَ»[139]، هُوَ يَسْأَلُ: هَلْ هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ بِي لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِيَّ أَنَا، أَمْ عَامَّةٌ؟ قَالَ: «بَلْ لِأُمَّتِي أَجْمَعَ»، هَذَا الدليلُ عَلَى أَنَّ العِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

قَالَ أَهْلُ العِلْمِ أَيْضًا: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ القِيَاسِ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ غَضِبَ عَلَى نِسَائِهِ بِسَبَبِ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَغْضَبَتْهُ وَقَالَتْ لَهُ مَا لَا يَنْبَغِي،

([135]) سورة غافر: 31.

([136]) سورة النساء: 40.

([137]) سورة هود: 114.

(138) أخرجه البخاري في كتاب التفسير- باب قوله: وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل (4687) ، ومسلم في كتاب التوبة- باب قوله تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات (2763).

(139) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة- باب الصلاة كفارة (526).

فَقَالَ لِنِسَائِهِ كُلِّهِنَّ: أَنْتُنَّ طَوَالِقُ. أَنَّهُنَّ يَطْلُقْنَ جَمِيعًا، وَلَا يُقَالُ: لَا يَطْلُقُ إِلَّا الَّتِي أَغْضَبَتْهُ؛ لِأَنَّ العِبْرَةَ بِمَاذَا؟ بِعُمُومِ لَفْظِهِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ الَّذِي هَيَّجَهُ عَلَى هَذَا، وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ.

فِي الحَدِيثِ أَيْضًا: دَلَالَةٌ عَلَى مَوْقِفِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ عُمُومِ الحُرُوبِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ -كَمَا تَقَدَّمَ- هَذَا هُوَ رَأْيُهُ، عُمُومُ الحَرْبِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ المُسْلِمِينَ كَانَ يَرَى الكَفَّ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ كَمَا سَيَأْتِينَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَكَذَلِكَ أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ، وَأَبُو مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيُّ، وَكَذَلِكَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَكَذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ، وَكَذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَعَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، كَانُوا يَرَوْنَ هَذَا، يَرَوْنَ الكَفَّ وَعَدَمَ الدُّخُولِ فِي الحَرْبِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ هَذَا مِنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ كَانَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ مَا يَقَعُ، وَقُلْنَا فِي السَّابِقِ وَنَقُولُ دَائِمًا: إِنَّ مَا وَقَعَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ كَانَ اجْتِهَادًا، مِنْهُمْ مَنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرُ الِاجْتِهَادِ وَالصَّوَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرُ الِاجْتِهَادِ وَفَاتَهُ أَجْرُ الصَّوَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّفَ، وَكَانَ هَذَا هُوَ المُتَعَيِّنَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الأَمْرَ اشْتَبَهَ، وَالأُمُورُ إِذَا اشْتَبَهَتْ وَلَمْ تَتَّضِحْ فَلَا يَجُوزُ الدُّخُولُ فِيهَا.

(15) «بَابٌ: إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا»

«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُثْمَانَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ[140] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ»[141].

([140]) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى الصحابي المشهور أمه زينب بنت مظعون الجمحية ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي فيما جزم به الزبير بن بكار قال: هاجر وهو ابن عشر سنين وكذا قال الواقدي حيث قال مات سنة أربع وثمانين روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما. (الإصابة في تمييز الصحابة: 181/4).

(141) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب إذا أنزل الله بقوم عذابًا (7108)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (2879).

هَذَا البَابُ فِي حَالِ نُزُولِ العَذَابِ -نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِهِ- إِذَا غَضِبَ اللهُ تَعَالَى بِقَوْمٍ وَأَحَلَّ بِهِمُ النِّقْمَةَ وَأَنْزَلَ بِهِمُ العَذَابَ، وَكَأَنَّ البَابَ حُذِفَ فِيهِ الجَوَابُ، «**بَابٌ: إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا**» مَا الَّذِي يَحْدُثُ؟ يَعُمُّ الجَمِيعَ -عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ عَذَابِهِ-.

فِي هَذَا الحَدِيثِ: قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ**»، أَيْ: أَنَّهُ يَعُمُّهُمْ جَمِيعًا حَتَّى مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فِي المَعْصِيَةِ.

رَوَى ابْنُ حِبَّانَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا أَنْزَلَ اللهُ سَطْوَتَهُ بِأَهْلِ نِقْمَتِهِ وَفِيهِمُ الصَّالِحُونَ، فَيُصَابُونَ مَعَهُمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ**»[(142)]. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّالِحِينَ قَدْ يَهْلَكُونَ، وَمِنْ أَشَدِّ وَأَظْهَرِ الأَسْبَابِ وَأَبْرَزِ الحِكَمِ فِي هَلَاكِ الصَّالِحِينَ -مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُشَارِكُوهُمْ فِي المَعْصِيَةِ-: أَمْرُ التَّفْرِيطِ فِي الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّ التَّفْرِيطَ فِي هَذَا الأَمْرِ مُؤْذِنٌ بِنُزُولِ عَذَابٍ عَامٍّ -عِيَاذًا بِاللهِ-، فَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يَعُمُّ الطَّالِحَ لِفِعْلِهِ وَيَعُمُّ مَنْ لَمْ يَشْتَرِكْ فِي الأَمْرِ أَيْضًا لِسُكُوتِهِ.

وَفِي البُخَارِيِّ فِي الجَيْشِ الَّذِي يَغْزُو الكَعْبَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ. فَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ هُنَاكَ أُنَاسٌ لَا عَلَاقَةَ لَهُمْ بَتَاتًا بِهَذَا الجَيْشِ الغَازِي لِلكَعْبَةِ، وَكَوْنُهُ يُخْسَفُ بِالجَيْشِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ -عِيَاذًا بِاللهِ- يَعْنِي أَنَّ ثَمَّةَ أُنَاسًا سَيُخْسَفُ بِهِمْ مَعَهُمْ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الأَسْوَاقِ لَا ذَنْبَ لَهُمْ فِي الِاشْتِرَاكِ الْمُبَاشِرِ فِي هَذَا الجَيْشِ، لَكِنْ هَكَذَا عَذَابُ اللهِ -نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ- إِذَا نَزَلَ، إِذَا نَزَلَ عَمَّ. قَالَ: يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»، «**وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ**»، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**» هَؤُلَاءِ الَّذِينَ غَزَوا الكَعْبَةَ هَذِهِ نِيَّتُهُمْ فَيُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِنِيَّةِ غَزْوِ الكَعْبَةِ، أَمَّا الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَمُوتُوا فِي نِهَايَةِ المِطَافِ عَلَى فُرُشِهِمْ، أَوْ فِي حَسْفٍ، أَوْ فِي زَلْزَلَةٍ، أَوْ فِي غَرَقٍ، أَوْ فِي أَيِّ شَيْءٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَمُوتُوا، لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْعَثُهُمْ مَبَاعِثَ شَتَّى، يَبْعَثُ هَؤُلَاءِ مُفْسِدِينَ مُجْرِمِينَ وَيَبْعَثُ هَؤُلَاءِ بُرَآءَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، فَيُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

(142) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (7314).

قَوْلُهُ: «ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ» هَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى خُطُورَةِ فِي قَوْلِهِ: «إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ العَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ»[143]

هَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى خُطُورَةِ الجَهْرِ بِالمَعَاصِي، وَأَنَّ المجَاهِرَ بِالمعْصِيَةِ لَا يَضُرُّ نَفْسَهُ -كَمَا قُلْنَا- فَقَطْ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّ المعْصِيَةَ إِذَا كَانَتْ مُسْتَتِرَةً فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ إِلَّا صَاحِبَهَا، أَمَّا إِذَا ظَهَرَتْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَنْ رَآهَا أَوْ عَلِمَهَا أَنْ يُنْكِرَهَا عَلَيْهِ، فَإِذَا لَمْ تُنْكَرْ عَلَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّ النَّاسَ العَذَابُ -عِيَاذًا بِاللهِ-، كَمَا هُوَ حَاصِلٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ المعَاصِي الَّذِينَ يَجْهَرُونَ بِمَعَاصِيهِمْ، ثُمَّ إِذَا أُنْكِرَ عَلَيْهِمْ قَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ لَا دَخْلَ لَكُمْ، هَلْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى أَنْ تُشَارِكُونِي؟ أَنَا حُرٌّ فِي هَذَا. يُقَالُ: هَذَا مِنْ جَهْلِكَ، أَنْتَ تَجْنِي الآنَ عَلَى الجَمِيعِ، إِنْ سُكِتَ عَلَيْكَ وَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَى يَدِكَ فَإِنَّكَ لَنْ تُعَاقَبَ وَحْدَكَ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ يُعَاقَبَ الجَمِيعُ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَنْزِلَ عُقُوبَةٌ بِسَبَبِكَ أَنْتَ وَأَمْثَالِكَ مِنَ المجَاهِرِينَ بِالمعْصِيَةِ وَتَعُمَّ حَتَّى مَنْ لَمْ يُجَاهِرْ.

فَهَذَا يُؤَكِّدُ عَلَى أَمْرِ تَعْزِيزِ الأَمْرِ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا فِي السُّنَنِ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ»[144]، لِأَنَّ الْمُنْكَرَ لَا بُدَّ أَنْ يُنْكَرَ عَلَى صَاحِبِهِ، فَإِذَا لَمْ يُنْكَرْ فَإِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يُمْكِنُ أَنْ يُعَمُّوا بِعِقَابٍ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ وَأَكْبَرِ النِّعَمِ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُوجَدَ فِيهِمْ أَمْرٌ بِالمعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فَهُمْ -بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى- لَا يُعَاقَبُونَ عُقُوبَةً عَامَّةً، وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الجِهَازُ المبَارَكُ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ جِهَازُ هَيْئَةِ الأَمْرِ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ شَذَّى فِي حُلُوقِ المفْسِدِينَ جَمِيعًا مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ، وَمِنْ أَهْلِ الإِفْسَادِ وَالفُجُورِ مِمَّنْ يُرِيدُونَ سُهُولَةَ الوُصُولِ إِلَى المعْصِيَةِ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَتَبَرَّمُونَ كَثِيرًا مِنْ هَذَا الجِهَازِ وَيُبْغِضُونَهُ، وَيَحِيكُونَ لَهُ المؤَامَرَاتِ، وَيُكْثِرُونَ مِنَ الإِشَاعَاتِ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فَسَادِهِمْ.

وَهَذَا الجِهَازُ هُوَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى إِذَا عَمِلَ كَمَا يَنْبَغِي مِمَّا يَحْفَظُ اللهُ بِهِ البَلَدَ الَّذِي هُوَ فِيهِ مِنَ العُقُوبَةِ العَامَّةِ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَجَّعَ الآمِرُونَ بِالمعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَنْ يُعَانُوا، وَأَنْ يُرْبَطَ عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَأَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مِنَ المحَالِ بِمَكَانٍ تَامٍّ أَلَّا يُخْطِئُوا، هَذَا أَمْرٌ

(143) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب إذا أنزل الله بقوم عذابًا (7108)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (2879).

(144) أخرجه أحمد في «مسنده» (1، 2، 5، 7)، وأبو داود في كتاب الملاحم- باب الأمر والنهي (4338)، والترمذي في كتاب الفتن- باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (2168)، وابن ماجه في «سننه»: كتاب الفتن- باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (4005) ، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

مُسْتَحِيلٌ أَلَّا يُخْطِئُوا، كُلُّ مَنْ تَصَدَّرَ لِلْجَمَاهِيرِ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ خَطَأٌ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ تُكَبَّرَ أَخْطَاؤُهُمْ، فَإِنَّ الأَخْطَاءَ تُوجَدُ فِي كُلِّ مَنْ بَاشَرَ النَّاسَ، يُوجَدُ الخَطَأُ مِنَ القَاضِي، يُوجَدُ مِنَ الجُنْدِيِّ، يُوجَدُ مِنَ الآمِرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ، لَكِنَّ المَلَاحَظَ أَنَّ خَطَأَ الآمِرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ يُفَخَّمُ وَيُنْفَخُ فِيهِ؛ لِأَنَّ الغَرَضَ لَيْسَ ذِكْرَ الخَطَأِ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ الغَرَضَ أَنْ يُسْقَطَ هَذَا الجِهَازُ، وَلَوْ سَقَطَ هَذَا الجِهَازُ –عِيَاذًا بِاللهِ– وَهُوَ بِإِذْنِ اللهِ لَنْ تَقَرَّ لَهُمْ عَيْنٌ بِهَذَا بِإِذْنِ اللهِ، لَنْ يَرَوْا سُقُوطَهُ، وَإِنَّمَا سَيَجْعَلُ اللهُ تَعْزِيزَهُ وَرِفْعَتَهُ بِإِذْنِهِ تَعَالَى، هَذَا الجِهَازُ لَوْ سَقَطَ لَاقْتَرَبَ وُقُوعُ مِثْلِ هَذِهِ العُقُوبَةِ.

ثُمَّ إِنَّ العَذَابَ إِذَا نَزَلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَوَّرَ أَحَدٌ أَنَّ العَذَابَ هُوَ فِي خَسْفٍ فَقَطْ، أَوْ فِي غَرَقٍ، أَوْ فِي زَلْزَلَةٍ، عِقَابُ اللهِ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَأْتِي بِهِ إِلَّا هُوَ اللهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾[145]، فَمِنَ العُقُوبَاتِ الَّتِي تَقَعُ فِي الأُمَّةِ: أَنْ يُسَلِّطَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَيُهْلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، هَذَا نَوْعٌ مِنَ العُقُوبَةِ، وَقَدْ تَهَدَّدَ اللهُ بِهِ هَذَا التَّهَدُّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ**﴾، وَهَذِهِ لَهَا مَدْلُولٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى يُنَبِّهُ عَلَى عَذَابِهِ بِاسْمِهِ القَادِرِ هَذَا فِيهِ لِأُولِي الأَلْبَابِ مَا يَسْتَدْعِي التَّبَصُّرَ، مِنْ أَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ العَذَابُ؟ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الأَعْلَى، أَوْ مِنَ الأَسْفَلِ، أَوْ مِنْ لَبْسِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ. قَالَ ابْنُ سِعْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ**﴾ قَالَ: أَوْ يَخْلِطُكُمْ فِي الفِتْنَةِ. يُمْكِنُ أَنْ يُسَلِّطَ اللهُ تَعَالَى النَّاسَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ نَوْعًا مِنَ العِقَابِ.

فَالحَاصِلُ: أَنَّ عَذَابَ اللهِ إِذَا نَزَلَ –عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى– عَمَّ السَّمَاءِ، وَلِهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَدْفَعُ العَذَابَ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَى، مِنْ أَعْظَمِ مَا يَدْفَعُهُ أَنْ يُعَزَّزَ الأَمْرُ بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(16) «بَابٌ: إِذَا قَالَ عِنْدَ قَوْمٍ شَيْئًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ بِخِلَافِهِ»

هَذَا مِنَ الدَّاءِ العَظِيمِ وَالحَالِ القَبِيحِ الَّذِي يَكْثُرُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّوَغَانِ وَأَصْحَابِ الوُجُوهِ المُخْتَلِفَةِ، وَحَيْثُ إِنَّ هَذَا يَكْثُرُ عِنْدَ السَّلَاطِينِ وَالحُكَّامِ، يَأْتِيهِمْ مَنْ يَمْدَحُهُمْ، بَلْ وَيُزَيِّنُ لَهُمُ القَبِيحَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِمْ بِفِعْلِهِمْ لَهُ، لَكِنَّهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَالَ بِخِلَافِ مَا قَالَ لِلْحُكَّامِ، وَهَذَا

([145]) سورة الأنعام: 65.

ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الخِيَانَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ صَادِقًا مُتَّقِيًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ لَصَدَقَهُمْ وَنَصَحَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا لَيْسَ بِصَوَابٍ، وَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ أُسَامَةُ مَعَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَكَلَّمَهُمْ فِي حَالٍ مِنَ السِّرِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، كَمَا قَالَ أُسَامَةُ: «إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا حَيْثُ تَسْمَعُونَ؟».

هَؤُلَاءِ الآنَ دَخَلُوا عِنْدَ السُّلْطَانِ، وَحَسَّنُوا فِعْلَهُ، وَمَدَحُوهُ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ صَارُوا يَسُبُّونَهُ وَيَشْتُمُونَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ فِيهِ كَذَا، وَإِنَّهُ يَظْلِمُ بِكَذَا، وَإِنَّهُ يَجُورُ بِكَذَا. مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَسِّنُونَ لَهُ هَذَا الفِعْلَ.

«حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ الْأَحْدَبِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ[146] قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الْيَوْمَ شَرٌّ مِنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا يَوْمَئِذٍ يُسِرُّونَ وَالْيَوْمَ يَجْهَرُونَ»[147].

يُرِيدُ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: بَيَانَ تَطَوُّرِ حَالِ المُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ: كَانَ المُنَافِقُونَ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَالٍ، ثُمَّ صَارُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى حَالٍ آخَرَ، فَيَقُولُ هُنَا: إِنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْجُودًا، أَمَّا اليَوْمَ فَاخْتَلَفَ الحَالُ **«فَإِنَّمَا هُوَ الكُفْرُ بَعْدَ الإِيمَانِ»**.

ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّ مُرَادَهُ اخْتِلَافُ حُكْمِ المُنَافِقِينَ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّنْ بَعْدَهُمْ، مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ؟ مِنْ نَاحِيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَأَلَّفُ المُنَافِقِينَ، وَيَقْبَلُ مَا أَظْهَرُوا مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ احْتِمَالُ خِلَافِ مَا يُظْهِرُونَ، يَعْنِي: قَدْ يُظْهِرُ المُنَافِقُونَ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْيَاءَ تَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِمْ، يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَأَلَّفُهُمْ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِمْ.

يَقُولُ ابْنُ حَجَرٍ: أَمَّا بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْ أَظْهَرَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ يُؤَاخَذُ بِهِ، لِعَدَمِ الِاحْتِيَاجِ إِلَى التَّأْلِيفِ، مَا يُحْتَاجُ؛ لِقُوَّةِ الإِسْلَامِ، هَذَا أَوْرَدَهُ ثُمَّ قَالَ: وَقِيلَ: غَرَضُهُ أَنَّ الخُرُوجَ عَلَى طَاعَةِ وَلِيِّ الأَمْرِ جَاهِلِيَّةٌ، وَلَا جَاهِلِيَّةَ فِي الإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا خَرَجَ عَلَيْهِ اتَّضَحَ.

([146]) هو: الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان بن جابر، العبسي. من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهو صاحب السر. واسم اليمان: حِسْل – ويقال: حُسَيْل– ابن جابر العبسي، اليماني، أبو عبد الله، حليف الأنصار، من أعيان المهاجرين. وأمه الرباب بنت كعب بن عدي الأنصارية. توفي سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان. انظر: أسد الغابة (706/1 ترجمة 1113)، والإصابة (44/2 ترجمة 1649).

(147) أخرجه البخاري في كتاب الفتن– باب إذا قال عند قوم شيئًا ثم خرج فقال بخلافه (7113).

وَالَّذِي يَظْهَرُ –وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ– أَنَّ مُرَادَ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتَّضِحُ بِتَفْسِيرِ الخَبَرِ الثَّانِي بِالخَبَرِ الأَوَّلِ، هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ، فَإِنَّهُ فِي الخَبَرِ الأَوَّلِ مَاذَا يَقُولُ؟ يَقُولُ: المُنَافِقُونَ زَمَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا يُسِرُّونَ، وَهُمُ اليَوْمَ يَجْهَرُونَ؛ لِمَاذَا؟ لِأَنَّ النِّفَاقَ دَلَالَةٌ عَلَى قُوَّةِ الإِسْلَامِ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ المُنَافِقَ يَخْتَفِي إِذَا كَانَ الإِسْلَامُ قَوِيًّا، فَيُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، أَمَّا إِذَا ضَعُفَ حَالُ المُسْلِمِينَ أَظْهَرَ المُنَافِقُونَ حَقِيقَتَهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ العِلْمِ: لَا يُوجَدُ فِي المُهَاجِرِينَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ مُنَافِقٌ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ، الكُفَّارُ هُمُ المُسَيْطِرُونَ، وَالَّذِي يُظْهِرُ دِينَهُ هُوَ الَّذِي يُؤْذَى، فَمَنْ هُوَ الَّذِي يُنَافِقُ بِإِظْهَارِ الإِسْلَامِ هُنَاكَ؟ مَا فِيهِ.

لَمَّا انْتَقَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المَدِينَةِ كَانَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: المُسْلِمُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاليَهُودُ، وَعُبَّادُ الأَوْثَانِ الَّذِينَ بَقَّوْا عَلَى كُفْرِهِمْ وَوَثَنِيَّتِهِمْ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ، وَمِنْهُمْ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ، لَمَّا انْتَصَرَ المُسْلِمُونَ فِي بَدْرٍ قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ؛ يَعْنِي: مَا دَامُوا قَدْ تَمَكَّنُوا مِنْ غَلَبَةِ قُرَيْشٍ، فَدَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ نِفَاقًا وَهُمْ بَاقُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ.

وَلِهَذَا لَوْ تَنْظُرُ مَثَلًا فِي دُوَلِ الكُفْرِ تَجِدُ أَنَّهُمْ قِسْمَانِ فِي العُمُومِ الأَغْلَبِ: كُفَّارٌ مُسَيْطِرُونَ، وَمُسْلِمُونَ إِمَّا مُسْتَضْعَفُونَ، أَوْ لَهُمْ بَعْضُ الأُمُورِ الَّتِي يُؤَدُّونَهَا وَالعِبَادَاتِ فِي ظِلِّ أَنْظِمَةٍ وَقَوَانِينَ تَمْنَعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ حُقُوقِ دِينِهِمْ، فَمَنْ هُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُنَافِقَ هُنَاكَ؟ الغَالِبُ فِي المُجْتَمَعَاتِ الكَافِرَةِ أَنَّهَا لَا يَكُونُ فِيهَا نِفَاقٌ؛ لِأَنَّ المُسْلِمَ يَرْجُو السَّلَامَةَ، وَالمُنَافِقَ يُظْهِرُ الإِسْلَامَ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ يَخَافُ القَتْلَ؛ لِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**»، فَلَمَّا صَارَ الإِسْلَامُ ظَاهِرًا بَدَأَ المُنَافِقُونَ يُظْهِرُونَهَا لِعِصْمَةِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ.

فَهَذَا الَّذِي يَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ مُرَادُ حُذَيْفَةَ، أَنَّ الأَمْرَ زَمَنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخْتَلِفُ عَنِ الأَمْرِ بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ المُنَافِقِينَ كَانُوا يُسِرُّونَ نِفَاقَهُمْ وَيَتَخَافَتُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَقُولُ: لَكِنْ لَمَّا حَدَثَ مَا حَدَثَ مِنَ الفِتَنِ صَارَ المُنَافِقُونَ يُذِيعُونَهَا، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ وَقَعَ فِي النَّاسِ مَا وَقَعَ مِنَ القِتَالِ وَالفُرْقَةِ.

يَبْقَى هُنَا سُؤَالٌ: هَذَا الكَلَامُ مِنْ حُذَيْفَةَ لِمَاذَا أَوْرَدَهُ البُخَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَحْتَ هَذَا البَابِ؟ مَا عِلَاقَتُهُ «**بَابٌ: إِذَا قَالَ عِنْدَ القَوْمِ شَيْئًا ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ بِخِلَافِهِ**»؟

ذَكَرَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ –كَابْنِ بَطَّالٍ– أَنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ يُظْهِرُونَ البَيْعَةَ لِلْحَاكِمِ، ثُمَّ يَنْكُثُونَ فَيَخْرُجُونَ عَلَيْهِ، فَقَوْلُهُ هُنَا: «إِذَا قَالَ عِنْدَ القَوْمِ شَيْئًا» يَنْطَبِقُ عَلَى لَوْ بَايَعُوا السُّلْطَانَ ثُمَّ قَالُوا بِخِلَافِهِ فَعَلُوا خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ البَيْعَةُ؛ حَيْثُ خَرَجُوا عَلَى السُّلْطَانِ. فَيَقُولُ: مِنْ هَذَا البَابِ يَدْخُلُ كَلَامُ حُذَيْفَةَ فِي هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ مَا عِلَاقَةُ كَلَامِ حُذَيْفَةَ بِالكَلَامِ عَلَى مَنْ يَتَكَلَّمُونَ عِنْدَ السُّلْطَانِ ثُمَّ يُغَيِّرُونَ؟ فَيَقُولُ ابْنُ بَطَّالٍ: يَجْهَرُونَ بِالخُرُوجِ عَلَى الأَئِمَّةِ، فَيَقَعُ الشَّرُّ، وَيَتَعَدَّى ضَرَرُهُمْ لِغَيْرِهِمْ. إِذًا عِلَاقَتُهُ بِالبَابِ مِنْ هَذِهِ الزَّاوِيَةِ.

قَالَ: لَمَّا بَذَلُوا الطَّاعَةَ بِاللِّسَانِ أَظْهَرُوا أَنَّهُمْ مُطِيعُونَ بِاللِّسَانِ، وَأَنَّهُمْ مُبَايِعُونَ ثُمَّ خَالَفُوا بِحَمْلِ السِّلَاحِ هَذَا نِفَاقًا، وَمَالَ إِلَى هَذَا أَيْضًا ابْنُ المُلَقِّنِ فِي شَرْحِهِ، وَكَأَنَّهُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَدَقُّ مِنْ كَلَامِ ابْنِ حَجَرٍ، رَحِمَ اللهُ الجَمِيعَ.

(17) «بَابٌ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ القُبُورِ»

«حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[148]، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ!».

هَذَا حَالٌ عَظِيمٌ جِدًّا يَقَعُ مِنَ الفِتْنَةِ، «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ القُبُورِ»، الغِبْطَةُ هِيَ أَنْ تَتَمَنَّى مِثْلَ حَالِ المَغْبُوطِ، كَمَا يَقَعُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، إِذَا رَأَوا الأَغْنِيَاءَ وَأَهْلَ الثَّرَاءِ، كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُمْ، وَهَذَا التَّمَنِّي فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي لَوْ أَنَّهُ أَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ يَكُونُ؟ قَدْ يَكُونُ المَالُ فِتْنَةً لَهُ، فَالغِبْطَةُ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ»، فَالَّذِي يَغْبِطُ أَهْلَ الأَمْوَالِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ مُوَفَّقُونَ لِبِنَاءِ المَسَاجِدِ وَالصَّدَقَاتِ وَالإِحْسَانِ، هَذِهِ الغِبْطَةُ السَّلِيمَةُ، أَنْ يَغْبِطَهُمْ فِي هَذَا الأَمْرِ، فِي صَدَقَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ الفُقَرَاءُ: يَا رَسُولَ اللهِ! ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ وَالدَّرَجَاتِ العُلَى، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلُ مَالٍ يَتَصَدَّقُونَ وَيَحُجُّونَ، فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى المَالِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَإِنَّمَا نَظَرُوا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الصَّدَقَاتِ وَالخَيْرِ المُتَعَدِّي فِيهِ.

([148]) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة 7 هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه 5374 حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة 59هـ. (تهذيب الكمال: 366/34).

فَقَوْلُهُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ القُبُورِ»، يَعْنِي حَتَّى يَتَمَنَّى الأَحْيَاءُ الحَالَ الَّذِي فِيهِ أَهْلُ القُبُورِ، وَأَهْلُ القُبُورِ مَوْتَى. وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ!»، هَذَا مَعْنَى الغِبْطَةِ المَذْكُورَةِ، «يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ!» يَعْنِي: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَيِّتًا! نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، هَذَا التَّمَنِّي بِسَبَبِ البَلَاءِ وَالفِتْنَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَى مُسْلِمٌ: «لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى القَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا القَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينِ، مَا بِهِ إِلَّا البَلَاءُ»، يَعْنِي: مَا حَمَلَهُ عَلَى تَمَنِّي المَوْتِ الفِتْنَةُ فِي الدِّينِ، وَلَكِنِ البَلَاءُ المُذْهِلُ مِنْ حَوْلِهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ البَلَاءِ الَّذِي يَحْمِلُ كَثِيرِينَ عَلَى تَمَنِّي المَوْتِ مَا يَقَعُ عِنْدَ اضْطِرَابِ الأَحْوَالِ؛ حَيْثُ يَنْفَلِتُ الأَمْنُ، وَيَقَعُ السَّلْبُ وَالنَّهْبُ، وَالقَتْلُ، وَالتَّعَرُّضُ لِلْمَحَارِمِ وَالأَعْرَاضِ، فَيَشْتَدُّ الأَمْرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فَيَتَمَنَّى الوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَكُونُ قَدْ مَاتَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا حِينَ وَقَعَ مَا وَقَعَ.

هَلْ يَجُوزُ تَمَنِّي المَوْتِ؟

جَاءَ النَّهْيُ عَنْ تَمَنِّي المَوْتِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ؛ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا» لَا بُدَّ أَنْ يَتَمَنَّى «فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[149]، يَعْنِي: يُفَوِّضُ الأَمْرَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، أَمَّا أَنْ يَتَمَنَّى المَوْتَ فَيَقُولَ: يَا لَيْتَنِي أَمُوتُ لِأَسْتَرِيحَ مِنَ الفَقْرِ! أَوْ يَا لَيْتَنِي أَمُوتُ لِأَسْتَرِيحَ مِنَ المَرَضِ! أَوْ يَا لَيْتَنِي أَمُوتُ لِأَسْتَرِيحَ مِنَ انْفِلَاتِ الأَمْنِ، وَالخَوْفِ وَالرُّعْبِ وَالهَلَعِ! يُوصِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلَّا يُفْعَلَ هَذَا، وَمَنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَتَمَنَّى فَلْيُفَوِّضِ الأَمْرَ؛ «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»، أَمَّا أَنْ يَجْزِمَ هَكَذَا: اللَّهُمَّ أَمِتْنِي، فَلَيْسَ بِمُنَاسِبٍ؛ لِأَنَّ الأَحْوَالَ يَعْلَمُهَا عَلَّامُ الغُيُوبِ، فَإِنَّهَا قَدْ تَتَغَيَّرُ إِلَى الأَحْسَنِ، وَيَنْقَشِعُ ذَلِكَ الظُّلْمُ، وَيَزُولُ ذَلِكَ الخَوْفُ وَالرُّعْبُ، وَتَتَبَدَّلُ تِلْكَ الأَحْوَالُ، فَيَقُولُ الَّذِي تَمَنَّى المَوْتَ: الحَمْدُ للهِ أَنِّي لَمْ أَمُتْ، فَلِهَذَا يُفَوِّضُ الأَمْرَ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الأَعْلَمُ بِالغَيْبِ.

هُنَا مَسْأَلَةٌ: هَلْ يَتَمَنَّى المَوْتَ إِنْ خَافَ عَلَى دِينِهِ؟ يَعْنِي: لَوْ أَنَّهُ خَافَ عَلَى دِينِهِ أَنْ يُفْتَنَ فِي دِينِهِ -عِيَاذًا بِاللهِ- كَأَنْ يَنْتَكِسَ بِسَبَبِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَيَخْشَى أَنْ يَتَبَدَّلَ حَالُهُ فِي صَلَاحِ دِينِهِ مَعَ رَبِّهِ تَعَالَى؛ هَلْ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ الوَفَاةَ؟ أَوْ لَوِ اشْتَدَّتْ غُرْبَةُ الدِّينِ، وَعَظُمَ

([149]) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات- باب الدعاء بالموت والحياة (6351)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب كراهية تمني الموت لضر نزل به (2680)، وأبو داود في كتاب الجنائز- باب في كراهية تمني الموت (3108).

بَأْسُ أَهْلِ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وأَهْلِ البِدَعِ وَالضَّلَالِ، وَحَارَبُوا السُّنَّةَ وَدَحَرُوهَا، وَتَتَبَّعُوا أَهْلَهَا بِالسَّجْنِ وَالقَتْلِ وَالإِيذَاءِ وَالتَّعْذِيبِ، هَلْ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ الوَفَاةَ لِئَلَّا يَتَرَعْزَعَ تَحْتَ التَّعْذِيبِ وَتَحْتَ الأَذَى؟

جَاءَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- تَمَنِّي المَوْتِ خَوْفًا عَلَى الدِّينِ، جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ خَوْفًا عَلَى دِينِهِمْ، وَفِي دُعَائِهِمْ -كَمَا فِي قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ رَأْسِ السِّتِّينَ، وَإِمْرَةِ الصِّبْيَانِ»، «رَأْسِ السِّتِّينَ» حَيْثُ تَوَلَّى يَزِيدُ، «وَإِمْرَةِ الصِّبْيَانِ» لِأَنَّهُمْ لِقِلَّةِ فَهْمِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ قَدْ يُحْدِثُونَ مَفَاسِدَ كَثِيرَةً، وَيُغَيِّرُونَ سُنَنًا، وَيَنْصُرُونَ بِدَعًا، وَيُخَذِّلُونَ الخَيِّرَ وَأَهْلَهُ، فَتَمَنَّى أَلَّا يُدْرِكَ هَذَا الزَّمَنَ.

مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ بِهَذَا الغَرَضِ لَا بَأْسَ بِهِ، لِمَ؟ لِأَنَّهُ إِذَا تَمَنَّى هَذَا فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَنَّهُ لِأَجْلِ الاضْطِرَابِ الأَمْنِيِّ مَثَلًا، أَوِ الجُوعِ أَوِ الفَقْرِ، أَوِ التَّشَرُّدِ، وَإِنَّمَا تَمَنَّاهُ خَوْفًا عَلَى مَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ**»[150]، خَوْفًا عَلَى دِينِهِ أَنْ يُفْتَنَ فِيهِ.

هَذَا اخْتَارَهُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ. وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: إِنَّهُ قَدْ يُشْعِرُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ، مَا بِهِ إِلَّا البَلَاءُ**»، يَقُولُ: قَدْ يَكُونُ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الذَّمِّ المَذْمُومَةِ لِهَذَا الَّذِي تَمَنَّى المَوْتَ بِسَبَبِ البَلَاءِ فَقَطْ، يَقُولُ: وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِذَمِّ مَنْ تَمَنَّى المَوْتَ لِأَجْلِ خَوْفِهِ عَلَى دِينِهِ. فَيَقُولُ: قَدْ يُفْهَمُ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الإِشَارَةِ.

فَلِأَجْلِ ذَلِكَ يُرَجِّحُ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ عَدَمَ الدُّعَاءِ بِالمَوْتِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ فَرَجُهُ قَرِيبًا، وَالمُؤْمِنُ وَإِنِ ابْتُلِيَ فَإِنَّهُ عَلَى خَيْرٍ، وَيَسْأَلُ رَبَّهُ الثَّبَاتَ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَسْبَابِ الثَّبَاتِ وَلَوْ -كَمَا تَقَدَّمَ- وَلَوْ بِالفِرَارِ، «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ**»، يَقُولُ: حَتَّى لَوْ فَرَّ بِدِينِهِ لَكِنْ لَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَمِتْنِي. هَذَا اخْتِيَارٌ لِبَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الحَالِ، لَكِنْ تَمَنِّي المَوْتِ لِأَجْلِ أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ؛ كَمَرَضٍ، أَوِ اضْطِرَابٍ أَمْنِيٍّ، أَوْ خَوْفٍ، يَقُولُ الإِنْسَانُ: اللهَمَّ أَمِتْنِي، أَوْ: لَيْتَنِي أَمُوتُ. هَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِصَرَاحَةِ نَصِّ الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ بِالمَنْعِ مِنْهُ، أَمَّا تَمَنِّي المَوْتِ لِأَجْلِ الدِّينِ فَفِيهِ هَذَا الخِلَافُ، وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

(150) أخرجه أحمد في «مسنده» (231/5)، والترمذي في كتاب الإيمان- باب ما جاء في حرمة الصلاة, وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيح» (2616), والنسائي في «سننه الكبرى» (11394)، وابن ماجه في كتاب الفتن- باب كف اللسان في الفتنة (3973).

(18) «بَابُ خُرُوجِ النَّارِ»

هَذِهِ النَّارُ خَرَجَتْ عَامَ سِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِيْنَ 654هـ حَتَّى تَحْفَظَهَا الأَرْقَامُ مُرَتَّبَةٌ: أَرْبَعَةٌ، خَمْسَةٌ، سِتَّةٌ، قَبْلَ سُقُوطِ الدَّوْلَةِ العَبَّاسِيَّةِ بِسَنَتَيْنِ؛ لِأَنَّهَا سَقَطَت عَامَ سِتٍّ وَخَمْسِيْنَ وَسِتِّ مِائَةٍ 656 هـ، هَذِهِ النَّارُ تَكَلَّمَ عَنْهَا مَنْ عَاصَرَهَا، مِمَّنْ عَاصَرَهَا: أَبُو شَامَةَ الدِّمَشْقِيُّ الشَّافِعِيُّ، وَذَكَرَ جُمْلَةً مِنَ الكُتُبِ الَّتِي وَرَدَتْهُ مِنَ المَدِينَةِ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ النَّارِ وَوَصْفِهَا وَمِصْدَاقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ خُرُوجِ هَذِهِ النَّارِ، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبٌ مِنَ المَدِينَةِ وَنُقِلَ فِيهَا أَشْعَارٌ.

هَذِهِ النَّارِ كَانَتْ هَائِلَةً شَدِيدَةً، وَلَمَّا وَقَعَتْ خَشِيَ أَهْلُ المَدِينَةِ خَشْيَةً عَظِيمَةً وَأَصَابَهُمُ الرُّعْبُ الهَائِلُ مِمَّا رَأَوْا، وَذَهَبَ قَاضِي المَدِينَةِ – وَلَهُ كِتَابَةٌ فِي هَذَا أَيْضًا– إِلَى وَالِيهَا فَوَعَظَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ العَذَابَ قَدْ يَنْزِلُ، فَرَدَّ المَظَالِمَ، وَأَظْهَرُوا جَمِيعًا التَّوْبَةَ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي المَدِينَةِ مَنْ يَسْتَعْمِلُ شَيْئًا مِنَ المَعَازِفِ؛ كَالدُّفُوفِ وَالرَّبَابِ وَنَحْوِهَا، وَأُصِيبَ النَّاسُ بِهَلَعٍ عَظِيمٍ مِمَّا رَأَوْا مِنْ هَذِهِ النَّارِ.

كَانَ بِدْءُ ظُهُورِ هَذِهِ النَّارِ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ فِي الثَّالِثِ مِنْ جُمَادَى الآخِرَةِ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ، سَمِعُوا صَوْتَ دَوِيٍّ عَظِيمٍ، ثُمَّ وَقَعَتْ زَلْزَلَةٌ رَجَفَتْ مِنْهَا الأَرْضُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ إِلَى يَوْمِ الجُمُعَةِ الخَامِسِ مِنْ ذَلِكَ الشَّهْرِ، ثُمَّ ظَهَرَتْ نَارٌ عَظِيمَةٌ هِيَ المَذْكُورَةُ فِي الحَدِيثِ، سَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِهَذِهِ النَّارِ فَسَارَتْ إِلَى أَنْ وَصَلَتِ الحِرَاءَ، فَوَقَفَتْ بَعْدَمَا أَشْفَقُوا مِنْ وُصُولِهَا إِلَيْهِمْ، وَكَانَتْ تَلْتَهِبُ وَهِيَ كَالجَبَلِ العَظِيمِ، يَخْرُجُ مِنْهَا حَصًى يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ وَيَهْوِي فِيهَا، وَالمَوْضِعُ الَّذِي خَرَجَتْ مِنْهُ –كَمَا نُبِّهَ عَلَى هَذَا– لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ أَصْلًا، بَلْ أَرْضٌ ذَاتُ حَجَرٍ.

ذَكَرَ أَبُو شَامَةَ أَنَّهَا دَامَتْ كَذَلِكَ أَشْهُرًا، وَأَنَّ أَهْلَ المَدِينَةِ تَنَصَّلُوا مِنَ الذُّنُوبِ، وَتَابُوا، وَظَهَرَ عَلَيْهِمُ الخَوْفُ وَظَنُّوا وُقُوعَ الهَلَكَةِ بِهِمْ.

يَقُولُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي شَرْحِهِ لِمُسْلِمٍ: قَدْ تَوَاتَرَ العِلْمُ بِخُرُوجِهَا عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ وَسَائِرِ البُلْدَانِ؛ لِأَنَّ الحَدِيثَ الَّذِي سَيَأْتِينَا لَهُ ارْتِبَاطٌ بِالشَّامِ؛ حَيْثُ يُوجَدُ بِهَا البَلَدُ الَّذِي ذُكِرَ فِي الحَدِيثِ: «**تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى**»[151].

(151) أخرجه البخاري في كتاب الفتن– باب خروج النار (7118)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة– باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (2902).

1- وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ»[152].

الأَشْرَاط المرَادُ بِهَا: العَلَامَاتُ، وَهَذِهِ النَّارُ المذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّتِي فِي عَلَامَاتِ السَّاعَةِ نَارٌ أُخْرَى غَيْرُ النَّارِ الَّتِي سَيَأْتِي الحَدِيثُ فِيهَا الآنَ إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لِأَنَّ النَّارَ المذْكُورَةَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المشْرِقِ إِلَى المغْرِبِ، وَالعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَالحَدِيثُ هَذَا حَدِيثُ: «أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ» تَكَلَّمَ عَنْهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي كِتَابِ الرِّقَاقِ مِنَ «الصَّحِيحِ» فِي بَابِ الحَشْرِ، وَالبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْرَدَهُ لِسَبَبٍ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ الشُّرَّاحُ فِيمَا أَعْلَمُ، مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ هَذِهِ النَّارَ غَيْرُ النَّارِ الَّتِي سَتَرِدُ فِي الحَدِيثِ.

فَهَلْ أَرَادَ عُمُومَ النَّارِ لِيُشِيرَ إِلَى النَّارِ الَّتِي تَحْشُرُ النَّاسَ هَذِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَالنَّارِ الَّتِي وَقَعَت مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ الآنَ فِي عَامِ سِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ 654 هـ؟ أَوْ أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا بِمَثَابَةِ المقَدِّمَةِ؟ مَا رَأَيْتَهُمْ تَعَرَّضُوا لِهَذَا. لَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ نَارٌ وَهَذِهِ نَارٌ، فَالنَّارُ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي المدِينَةِ سَيَأْتِي تَحْدِيدُ الكَلَامِ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِي الحَدِيثِ، وَتَقَدَّمَ الكَلَامُ عَنْهَا وَأَنَّهَا وَقَعَتْ وَمَضَتْ. أَمَّا هَذِهِ النَّارُ فَلَمْ تَأْتِ بَعْدُ، فَإِنَّهَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المشْرِقِ إِلَى المغْرِبِ، تَطْرُدُهُمْ طَرْدًا إِلَى المحْشَرِ.

2-«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: أَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[153] **أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»**[154].

هَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ» وَهِيَ نَارُ المدِينَةِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا «تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى»، بُصْرَى هَذِهِ مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقٍ فِي الشَّامِ.

([152]) أخرجه البخاري في كتاب الفتن – باب خروج النار (25).

([153]) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظًا للحديث وروايةً له. نشأ يتيمًا ضعيفًا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة 7 هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه 5374 حديثًا، وولي إمرة المدينة مدة. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها سنة 59هـ. (تهذيب الكمال: 366/34).

(154) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب خروج النار (7118)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز (2902).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: هِيَ حَوْرَانُ. وَمَعْنَى الحَدِيثِ: أَنَّ ضَوْءَ هَذِهِ النَّارِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ المَدِينَةِ يَبْلُغُ بَلْدَةَ بُصْرَى فِي الشَّامِ؛ حَتَّى إِنَّهُ لِشِدَّةِ ضَوْئِهَا يَظْهَرُ الضَّوْءُ عَلَى أَعْنَاقِ الإِبِلِ فِي هَذِهِ البَلْدَةِ البَعِيدَةِ جِدًّا عَنِ المَدِينَةِ، وَقَدْ رُؤِيَ هَذَا فِي العَامِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، عَامَ سِتِّ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ 654 هـ، فَكَانَ النَّاسُ فِي بُصْرَى يَرَوْنَ الضَّوْءَ مِنْ هَذِهِ النَّارِ.

وَذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ فِي التَّارِيخِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَتَبَ بَعْضَ الكُتُبِ عَلَى ضَوْئِهَا، وَذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ العِظَامِ الَّتِي تَحَدَّثَ عَنْهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهَا لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقَعَ «**حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ**»، وَالمُرَادُ بِهَا تَحْدِيدًا فِي المَدِينَةِ، «**تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى**» فِي الشَّامِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا ذَاتُ إِضَاءَةٍ هَائِلَةٍ؛ إِذْ يَكُونُ مَوْضِعُ النَّارِ فِي المَدِينَةِ، وَيَكُونُ أَثَرُ الضَّوءِ وَاصِلًا إِلَى بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ.

(19) «بَابٌ »

«حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، حَدَّثَنَا مَعْبَدٌ، سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[155] قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: تَصَدَّقُوا؛ فَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا. قَالَ مُسَدَّدٌ: حَارِثَةُ أَخُو عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ لِأُمِّهِ. قَالَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ»[156].

ذَكَرَ هُنَا بَابًا، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ النُّسَخِ تَكُونُ هَكَذَا: «**بَابٌ**»، هَذِهِ مِنْ طَرِيقَةِ البُخَارِيِّ أَنْ يُبَوِّبَ دُونَ أَنْ يَضَعَ تَرْجَمَةً لِنَوْعِ صِلَةٍ لِأَحَادِيثِ البَابِ بِالَّذِي قَبْلَهُ، قَدْ تَكُونُ الصِّلَةُ وَاضِحَةً، وَقَدْ تَكُونُ الصِّلَةُ غَيْرَ وَاضِحَةٍ.

فِي هَذَا الحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ بِالصَّدَقَةِ، وَبَيَّنَ أَنَّ زَمَنًا سَيَأْتِي يَتَغَيَّرُ فِيهِ حَالُ النَّاسِ، فَإِنَّ العَادَةَ أَنَّ الصَّدَقَةَ إِذَا بُذِلَتْ وَبُحِثَ عَمَّنْ يَأْخُذُهَا العَادَةُ أَنَّهُ يُوجَدُ كَثِيرٌ مِنَ الفُقَرَاءِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَهَا. فَيُخْبِرُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الحَدِيثِ بِحَالٍ يَخْتَلِفُ عَنِ الحَالِ المَأْلُوفِ، فَقَالَ: «**تَصَدَّقُوا؛ فَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا**»، مَا السَّبَبُ فِي أَنَّ الرَّجُلَ هُوَ

(155) هو: حارثة بن وهب الخزاعي، أخو عبيد الله بن عمر بن الخطاب لأمه أمهما أم كلثوم بنت جرول الخزاعي، له صحبة، يعد في الكوفيين، وله رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن حفصة بنت عمر وغيرها وله في «الصحيحين» أربعة أحاديث منها قوله «صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم آمن ما كان الناس بمنى ركعتين» روى عنه: أبو إسحاق السبيعي ومعبد بن خالد وغيرهما، روى له الجماعة، انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (619/1)، «تهذيب الكمال» (318/5)، و«تهذيب التهذيب» (146/2).

(156) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب خروج النار (7120)، ومسلم في كتاب الزكاة- باب الترغيب في الصدقة بل أن لا يوجد من يقبلها (1011).

الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الفُقَرَاءِ؟ العَادَةُ أَنَّ الفُقَرَاءَ يَأْتُونَ وَيُعْطَوْنَ، فَالأَمْرُ الآنَ انْعَكَسَ، صَارَ هَذَا الغَنِيُّ يَبْحَثُ عَمَّنْ يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ، وَمَعَ بَحْثِهِ وَتِطْوَافِهِ لَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، لَا شَكَّ أَنَّ ثَمَّةَ سَبَبًا جَعَلَ النَّاسَ لَا يَقْبَلُونَ المالَ.

فِي الحَدِيثِ السَّابِقِ، النَّاسُ مَاذَا يَفْعَلُونَ؟ يَتَهَالَكُونَ، حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يُرِيدُونَ المالَ، وَفِي هَذَا الحَدِيثِ الرَّجُلُ يَبْحَثُ عَمَّنْ يَأْخُذُ المالَ، وَسَيَأْتِينَا أَنَّ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ: أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ أَحَدًا فَلَا يَجِدُ مَنْ يَأْخُذُهُ، لَا شَكَّ أَنَّ ثَمَّةَ سَبَبًا جَعَلَ الحَالَ يَتَفَاوَتُ.

ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْرَدَ أَسْبَابًا رَأَى أَنَّهَا مُحْتَمِلَةٌ: أَمَّا السَّبَبُ الأَوَّلُ: فَيَعُودُ إِلَى احْتِمَالِ اشْتِغَالِ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ عِنْدَ الفِتْنَةِ زَمَنَ الدَّجَّالِ، يَقُولُ: هَذَا الأَمْرُ وَقْتَ الدَّجَّالِ، وَهُوَ وَقْتُ فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ، فَاشْتَغَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ أَمْرِ المالِ. هَذَا قَوْلٌ.

قَوْلٌ آخَرُ: أَنَّ هَذَا يَقَعُ عِنْدَ حُصُولِ الأَمْنِ العَظِيمِ وَالعَدْلِ الوَارِفِ فِي زَمَنِ عِيسَى -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وَزَمَنِ المَهْدِيِّ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ النُّصُوصُ، لَا المَهْدِيِّ الخُرَافَةِ الأُسْطُورَةِ الَّذِي تَظُنُّهُ الشِّيعَةُ، لَكِنِ المَقْصُودُ المَهْدِيُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلٌ ثَالِثٌ: بِأَنَّ هَذَا يَكُونُ عِنْدَ خُرُوجِ النَّارِ الَّتِي تَسُوقُ النَّاسَ لِلْمَحْشَرِ. وَمَالَ ابْنُ حَجَرٍ إِلَى هَذَا القَوْلِ الثَّالِثِ.

تَقَدَّمَ أَنَّ النَّارَ الَّتِي تَسُوقُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ هِيَ أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَهِيَ تَحْشُرُ النَّاسَ وَتَطْرُدُهُمْ طَرْدًا، وَمَنْ تَخَلَّفَ أَهْلَكَتْهُ. فَيَقُولُ: إِنَّ المُرَادَ بِهَا هَذَا بِسَبَبِ هَذَا الوَضْعِ العَظِيمِ المُذْهِلِ مِنْ وُقُوعِ أَوَّلِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

وَالَّذِي يَظْهَرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ مَا رَجَّحَهُ ابْنُ حَجَرٍ لَيْسَ بِرَاجِحٍ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ فِي الحَدِيثِ: «**يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ**»، مَعَ قَوْلِهِ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ**»[157]، وَمَعَ حَدِيثِ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ المَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا**»[158]، الَّذِي يَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا فِي حَالٍ عَادِيٍّ، لَيْسَ فِي حَالِ طَرْدِ النَّارِ لَهُمْ؛ لِأَنَّ النَّارَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ المَشْرِقِ فَتَسُوقُهُمْ إِلَى الشَّامِ، نَارٌ يَفِرُّونَ مِنْهَا وَيَهْرُبُونَ، مِنْهُمْ مَنْ يَرْكَبُ اثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ

(157) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة- باب الصدقة قبل الرد (1414)، ومسلم في كتاب الزكاة- باب الترغيب في الصدقة بل أن لا يوجد من يقبلها (1012).

(158) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب خروج النار (7121)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (157).

عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ مِنَ الهَرَبِ وَالفِرَارِ، فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّ هَذَا الحَالَ هُوَ الَّذِي فِيهِ رَجُلٌ يَبْحَثُ عَمَّنْ يَأْخُذُ صَدَقَتَهُ؟ هَذَا وَاللهُ أَعْلَمُ يُبْعِدُ هَذَا الِاحْتِمَالَ الَّذِي رَجَّحَهُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى؛ خَاصَّةً مَعَ قَوْلِهِ فِي النُّصُوصِ: «**فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيهَا: لَوْ جِئْتَنَا بِهَا بِالأَمْسِ قَبِلْتُهَا**»، فَيَأْتِي إِلَى شَخْصٍ فَيُعْطِيَهُ إِيَّاهَا فَيَقُولُ: اليَوْمَ اسْتَغْنَيْتُ، لَوْ أَنَّكَ أَتَيْتَ بِهَا بِالأَمْسِ كُنْتُ أَخَذْتُهَا، أَمَّا الآنَ فَلَا. فَوَاضِحٌ أَنَّهُمْ مُسْتَقِرُّونَ لَيْسُوا هَارِبِينَ وَلَا تَطْرُدُهُمْ نَارٌ، هَذَا مِمَّا يُبْعِدُ مَا قُلْنَا مِنَ الِاحْتِمَالِ الَّذِي أَوْرَدَهُ.

لِهَذَا رَجَّحَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ عِنْدَ شَرْحِهِ لِهَذَا الحَدِيثِ: أَنَّ هَذَا يَكُونُ بَعْدَ هَلَاكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَظُهُورِ كُنُوزِ الأَرْضِ؛ لِأَنَّ الأَرْضَ يُؤْذَنُ لَهَا فَتُخْرِجُ -بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى- كُنُوزَهَا، وَيُبَارِكُ لِلنَّاسِ بَرَكَةً عَجِيبَةً جِدًّا، وَذَلِكَ فِي زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ لَا يَكْتَرِثُونَ إِلَّا بِالعِبَادَةِ، «تَكُونُ السَّجْدَةُ لِأَحَدِهِمْ -يَعْنِي أَنْ يَتَعَبَّدَ- أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَذَا وَكَذَا».

وَهَذَا فِيمَا يَظْهَرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- هُوَ الأَرْجَحُ، وَفِي كَلَامِ الشَّيْخِ ابْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، نَبَّهَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي شَرْحِهِ لِلْبُخَارِيِّ -الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ- إِلَى أَنَّ فِي الحَدِيثِ هَذَا اغْتِنَامَ وُجُودِ الفُقَرَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، يَعْنِي: قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ وَقْتٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ صَدَقَتَهُ فَلَا يَجِدُ، وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَصَدَّقُوا**»، ثُمَّ بَيَّنَ الحَالَ الَّذِي سَيَصْعُبُ عَلَى الإِنْسَانِ فِيهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ، «**تَصَدَّقُوا؛ فَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا**»، وَهَذَا -كَمَا قُلْنَا- مِنَ الأَحْدَاثِ وَالأُمُورِ الَّتِي تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَلِهَذَا فِي بَعْضِ طُرُقِ الحَدِيثِ لَمَّا ذَكَرَ هَذَا الحَالَ، قَالَ: «**وَيَكُونُ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ يَلُذْنَ بِهِ**»[159]، وَهُوَ فِي وَقْتٍ يَكُونُ فِيهِ قِلَّةٌ شَدِيدَةٌ مِنَ الرِّجَالِ.

فَهَلْ قَوْلُهُ: «**وَيَكُونُ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً**» مُلَازِمٌ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيثِ عَنْ كَوْنِ الرَّجُلِ يَبْحَثُ عَنْ صَدَقَةٍ عَمَّنْ يَأْخُذُ صَدَقَةً وَلَا يَجِدُ؟! يَحْتَمِلُ وَاللهُ أَعْلَمُ، يَحْتَمِلُ هَذَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ.

لَكِنِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ هَذَا الَّذِي فِيهِ بَحْثُ الرَّجُلِ بِصَدَقَةٍ مِنْ ذَهَبٍ لَا يَجِدُ مَنْ يَأْخُذُهَا، أَنَّ هَذَا -وَاللهُ أَعْلَمُ- فِي زَمَنٍ يَكُونُ فِيهِ تِلْكَ البَرَكَاتُ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ أَنْ يُقْتَلَ المَسِيحُ الدَّجَّالُ، وَبَعْدَ أَنْ يُهْلَكَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فِيمَا يَأْتِي بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يُبَارِكُ لِلنَّاسِ بَرَكَةً عَظِيمَةً، وَيُقْبِلُونَ عَلَى الطَّاعَةِ وَعَلَى العِبَادَةِ؛ فَفِي تِلْكَ الحَالِ إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يُخْرِجَ صَدَقَتَهُ وَإِذَا بِالنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ كُلُّهُمْ

(159) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب رفع العلم وظهور الجهل (80)، ومسلم في كتاب العلم- باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (2671).

فِي غِنًى وَفِي نِعْمَةٍ، هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ الأَقْرَبُ، وَالعِلْمُ عِنْدَهُ تَعَالَى.

(20) «بَابُ ذِكْرِ الدَّجَّالِ»

الدَّجَّالُ كَمَا أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ شَأْنُهُ لَيْسَ كَشَأْنِ الدَّجَّالِينَ الثَّلَاثِينَ السَّابِقِينَ الَّذِي يَدَّعِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَهَذَا الدَّجَّالُ وَإِنْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ «يَدَّعِي النُّبُوَّةَ» أَوَّلًا، ثُمَّ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ؛ إِلَّا أَنَّ شَأْنَ هَذَا الدَّجَّالِ أَفْظَعُ وَأَكْبَرُ مِنْ شَأْنِ أَيِّ دَجَّالٍ آخَرَ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَعْظَمُ مِنَ الدَّجَّالِ»[160]، فَأَعْظَمُ الفِتَنِ عَلَى الإِطْلَاقِ هُوَ الدَّجَّالُ، هَذَا الدَّجَّالُ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَمِنْ بَابِ الفِتْنَةِ يُمَكَّنُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوَارِقِ الَّتِي ثَبَتَ فِي النُّصُوصِ أَنَّهَا تَقَعُ لَهُ، فَيَغْتَرُّ مَنْ أَعْمَى اللهُ بَصَائِرَهُمْ بِهِ، أَمَّا المُؤْمِنُ فَكَمَا سَيَأْتِي المُؤْمِنُ يَرَى عَلَيْهِ مِنَ العَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَذِبِهِ مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ذِكْرُهَا فِي النُّصُوصِ.

1-«حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أُرَاهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ- وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[161].

هَذَا مِنَ الأَوْصَافِ الَّتِي فِي الدَّجَّالِ: أَنَّ عَيْنَهُ اليُمْنَى عَوْرَاءُ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، رُوِيَ «طَافِيَةٌ» بِاليَاءِ، وَرُوِيَ «طَائِفَةٌ» بِالهَمْزِ، «طَافِيَةٌ» بِاليَاءِ مَعْنَاهَا أَيْ: طَفَتْ وَنَتَأَتْ مُرْتَفِعَةً وَفِيهَا ضَوْءٌ، فَتَكُونُ مُرْتَفِعَةً إِذَا قِيلَ بِاليَاءِ، وَإِذَا قِيلَ بِالهَمْزِ فَمَعْنَاهُ: طَافِئَةٌ، يَعْنِي: طَفِئَ نُورُهَا، ذَهَبَ نُورُهَا، هَذَا وَضْعُ الدَّجَّالِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى الكَلَامُ عَلَى هَذَا وَعَلَى مَدْلُولِهِ عِنْدَ الكَلَامِ عَلَى الحَدِيثِ بِتَتِمَّتِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(160) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين- باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (809).

(161) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى ولتصنع على عيني (7407) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان- باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (169)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

2-«حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[162] قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَجِيءُ الدَّجَّالُ حَتَّى يَنْزِلَ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»[163].

فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ الدَّجَّالَ يَأْتِي المدِينَةَ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الدُّخُولَ إِلَى المدِيْنَةِ وَلَا إِلَى مَكَّةَ كَمَا سَيَأْتِي فِي حَدِيثِ المدِينَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

يَجِيءُ الدَّجَّالُ وَفِي الحَدِيثِ أَنَّهُ يَطَأُ الأَرْضَ كُلَّهَا مَا يَبْقَى مَوْضِعٌ مِنَ الأَرْضِ وَإِلَّا وَقَدْ وَطِئَهُ، مَا يَبْقَى إِلَّا مَكَّةَ وَالمدِينَةَ، فَإِذَا جَاءَ إِلَى المدِينَةِ -وَهُوَ لَنْ يَدْخُلَ المدِينَةَ كَمَا سَيَأْتِي- وَتَحْرُسُهَا مَلَائِكَةُ اللهِ تَعَالَى، فِي المدِينَةِ مُنَافِقُونَ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ ذَكَرَ حَتَّى الفُسَّاقَ، حُدِّدَ المَوْضِعُ الَّذِي يَنْزِلُ فِيهِ الدَّجَّالُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: «حَتَّى يَنْزِلَ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ»، حُدِّدَ فِي الحَدِيثِ بِبَعْضِ السِّبَاخِ، وَسُمِّيَتْ تَحْدِيدًا: سَبْخَةُ الجُرُفِ، يَنْزِلُ فِيهَا الدَّجَّالُ.

المدِينَةُ إِذَا نَزَلَ الدَّجَّالُ خَارِجَهَا تَرْجُفُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ دَاخِلَ المدِينَةِ، هَؤُلَاءِ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ خُبْثٍ يُنَاسِبُونَ الدَّجَّالَ رَجَفَتِ المدِينَةُ بِهِمْ فَخَرَجُوا خَارِجَ المدِينَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا طَمَعَ لَهُ بِأَنْ يَلْتَقِيَ بِهَؤُلَاءِ المنَافِقِينَ وَالكُفَّارِ دَاخِلَ المدِينَةِ؛ إِذْ هِيَ مَحْرُوسَةٌ مِنْهُ، فَتَرْجُفُ المدِينَةُ فَيَخْرُجُ هَؤُلَاءِ الكُفَّارُ وَالمنَافِقُونَ إِلَيْهِ وَتَخْلُصُ المدِينَةُ مِنْهُمْ.

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ: أَنَّ المدِينَةَ تَنْفِي خَبَثَهَا كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ، فَنَفْيُ الكِيرِ النَّفْيُ النِّهَائِيُّ يَكُونُ يَوْمَ خَلَاصِ المدِينَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّ المدِينَةَ تَخْلُصُ مِنْهُمْ، فَهُوَ يَوْمُ الخَلَاصِ، تَتَخَلَّصُ مِنْ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ وَالمنَافِقِينَ، لِأَنَّ المدِينَةَ مَعْقَلُ الإِسْلَامِ وَمُهَاجَرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يَلِيقُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا كَافِرٌ وَلَا مُنَافِقٌ؛ فَتَخَلَّصُ مِنْهُمْ وَتَبْقَى طَيِّبَةً كَمَا هُوَ اسْمُهَا، وَهَكَذَا أَيْضًا مَكَّةُ، فَإِنَّه لَا

(162) هو: الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، الإمام، المفتي، المقرئ، المحدث، راوية الإسلام، أبو حمزة، الأنصاري، الخزرجي، النجاري، المدني، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته من النساء، وتلميذه، وتبعه، وآخر أصحابه موتًا، وروى عنه علمًا جمًّا، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة، دعا له النبي بالبركة، فرأى من ولَده وولَدِ ولَدِه نحوًا من مئة نَفْسٍ. مات سنة إحدى وتسعين. انظر: الاستيعاب (ص53 ترجمة 43)، والإصابة (126/1 ترجمة 277).

(163) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ذكر الدجال (7124)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب قصة الجساسة (2943).

يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَهَا، وَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُنَافِقٍ.

3-«حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ[164] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ رُعْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَلَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ»[165].

قُلْنَا: إِنَّ الدَّجَّالَ يَنْزِلُ بِالقُرْبِ مِنْهَا عِنْدَ السَّبْخَةِ هَذِهِ سَبْخَةِ الجُرْفِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ إِلَيْهَا؛ فَلِهَذَا لَا يَدْخُلُ المدِينَةَ رُعْبُ الدَّجَّالِ، لا يَدْخُلُ المدِينَةَ وَمَكَّةَ أَيْضًا، بِخِلَافِ غَيْرِهَا مِنَ البِلَادِ، وَيُقَاتِلُهُ المسْلِمُونَ، الدَّجَّالُ يُقَاتَلُ مِنْ قِبَلِ المسْلِمِينَ، وَجَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ لَا أَزَالُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ بِسَبَبِ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ؛ ذَكَرَ مِنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ»**[166]، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَا أَزَالُ أُحِبُّهُمْ لِهَذِهِ الثَّلَاثِ، وَالَّتِي مِنْهَا: أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ الدَّجَّالَ، وَأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَلَى الدَّجَّالِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي المسْلِمِينَ مَنْ يَبْقَى وَيَثْبُتُ وَيُقَاتِلُ هَذَا العَدُوَّ الخَبِيثَ وَيَكُونُ شَدِيدًا عَلَيْهِ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ يَطَأُ الأَرْضَ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَى خُصُومِهِ، وَيَفْتِنُ كَثِيرِينَ؛ لِأَنَّهُ فِي الحَدِيثِ أَنَّهُ يَأْتِي مَنْ يُفْتَنُونَ فَإِذَا قَبِلُوا دَعْوَتَهُ -عِيَاذًا بِاللهِ- انْفَتَحَتْ عَلَيْهِمُ النِّعَمُ مِنْ بَابِ الفِتْنَةِ -عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى-، فَتَذْهَبُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، وَتَكُونُ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ الشِّبَعِ وَالنِّعْمَةِ، وَارْتِوَائِهِمْ بِأَلْبَانِهَا، وَيَأْتِي إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المؤْمِنِينَ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ دَعْوَتَهُ، يَعْنِي: يَأْبَوْنَ، يَقُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ»**[167]، وَهَذَا مِنَ الفِتْنَةِ، أَنَّ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ أَصَابَهُمُ التَّرَفُ وَالنَّعِيمُ، وَأَنَّ الَّذِينَ أَبَوْا تَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الفَقْرُ امْتِحَانًا، فَيُقَاتِلُهُ المسْلِمُونَ، وَتُرَدُّ عَلَيْهِ دَعْوَتُهُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ

([164]) هو: الصحابي نفيع بن مسروح بن كلدة بن عمرو بن أبي علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى أبو بكرة الثقفي، وقد قيل: نفيع بن الحارث بن كلدة مات سنة تسع وخمسين، وقد قيل: سنة ثلاث وخمسين، وأمر أن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي، فصلى عليه أبو برزة وزياد حي وكانا متواخيين، وكان له يوم مات ثلاث وستون سنة، وكان قد أسلم وهو ابن ثمانية عشر سنة وكان له أربعون ولدا أعقب منهم سبعة: عبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، ومسلم، ورواد، أولاد أبي بكرة. انظر: الثقات لابن حبان (411/3).

(165) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ذكر الدجال (7124).

(166) أخرجه البخاري في كتاب العتق- باب من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع (2543)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب من فضائل: غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيئ (2525).

(167) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب ذكر الدجال وصفته وما معه (2937).

الإِيمَانِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ وَلَا المدِينَةَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَطَأُ الأَرْضَ كُلَّهَا وَأَنَّهُ يَتَمَكَّنُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: مَا إِسْرَاعُهُ؟ قَالَ: «**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ**»[168]، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ شَدِيدُ السُّرْعَةِ، الغَيْثُ إِذَا جَاءَتِ الرِّيحُ فِي دُبُرِهِ دَفَعَتْهُ دَفْعًا شَدِيدًا، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَطَأُ الأَرْضَ بِسُرْعَةٍ.

وَذَكَرَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي أَحَادِيثِ الدَّجَّالِ وَنَحْوِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الحَالَ سَيَعُودُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي السَّابِقِ؛ فَإِنَّ المذْكُورَ فِي عَدَدٍ مِنَ الأَحَادِيثِ أَنَّ النَّاسَ يَتَقَاتَلُونَ بِالسِّهَامِ، وَيُذْكَرُ فِي الحَدِيثِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ القِتَالُ بِالسَّيْفِ، وَيُذْكَرُ فِيهِ أَدَوَاتُ الحَرْبِ القَدِيمَةُ، بِمَا يُشْعِرُ –وَاللهُ أَعْلَمُ– أَنَّ أَدَوَاتَ الحَرْبِ الحَدِيثَةَ لَا تُسْتَعْمَلُ، مَا الَّذِي يَكُونُ لَهَا؟ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي سُبْحَانَهُ، لَكِنَّ النُّصُوصَ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي أَنَّ الوَسَائِلَ القَدِيمَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا النَّاسُ قَبْلَ الوَضْعِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، وَمِنْهَا: الدَّوَابُّ؛ كَرُكُوبِ الحَمِيرِ، وَالخَيْلِ وَغَيْرِهَا، هَذَا كُلُّهُ يَرْجِعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، هَلْ يَتَقَدَّمُ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ يَقُولُ: سَوْفَ يَنْتَهِي كَذَا، أَوْ سَوْفَ يَحْصُلُ كَذَا؟ هَذَا لَا يَحِلُّ، هَذَا مِنَ الغَيْبِ، لَكِنَّ مِنَ الأُمُورِ المؤَكَّدَةِ أَنَّ وَسَائِلَ النَّاسِ القَدِيمَةَ فِي مَرَاكِبِهِمْ وَفِي أَسْلِحَتِهِمْ هِيَ المذْكُورَةُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، بِمَا يَدُلُّ وَاللهُ أَعْلَمُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الوَسَائِلَ المَوْجُودَةَ اليَوْمَ اللهُ أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَصِيرُ لَهَا، لَكِنَّهَا لَا يَرِدُ لَهُ ذِكْرٌ وَلَا إِشَارَةٌ حَتَّى فِي الأَحَادِيثِ وَفِي النُّصُوصِ، بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَعُودُونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ.

يَقُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَأْنِ المدِينَةِ: «**لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَلَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ**»، هَذَا مِنَ الغَيْبِ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ حَالِ المدِينَةِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، فِي ذَلِكَ الوَقْتِ سَيَكُونُ لِلْمَدِينَةِ هَذِهِ الأَبْوَابُ السَّبْعَةُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الوَضْعُ مَاثِلًا أَمَامَكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَدِينَةِ الآنَ، لَكِنْ حِينَ مَجِيءِ الدَّجَّالِ سَيَكُونُ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، وَهَذَا – وَاللهُ أَعْلَمُ– مِثْلُ مَا ذَكَرْنَا فِي السَّابِقِ مِنْ أَمْرِ الرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ وَنَحْوِهَا، أَنَّ المدِينَةَ سَيَكُونُ لَهَا هَذِهِ الأَبْوَابُ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ هَذِهِ الأَبْوَابِ مَلَكَانِ يَمْنَعَانِ عَدُوَّ اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهَا؛ فَلِهَذَا يَبْقَى فِي السَّبْخَةِ خَارِجَ المدِينَةِ.

(168) ما قبله.

4-«حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ[169]، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الدَّجَّالِ: إِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا، فَنَارُهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَمَاؤُهُ نَارٌ. قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[170].

هَذَا الحَدِيثُ الَّذِي قُلْنَا: إِنَّهُ يَدُلُّ وَاللهُ أَعْلَمُ عَلَى أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ البَابِ: «هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ» أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ بِهَذَا، فَلَمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ بَلَّغَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ فِي شَأْنِ الدَّجَّالِ: «إِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا»، وَمِنْ خُبْثِهِ وَشَرِّهِ وَفِتْنَتِهِ يَكُونُ الأَمْرُ فِي هَذِهِ المَاءِ مَعْكُوسٌ؛ فَالنَّارُ الَّتِي مَعَهُ حَقِيقَتُهَا مَاءٌ بَارِدٌ، وَالمَاءُ الَّذِي مَعَهُ نَارٌ تُحْرِقُ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَدْرَكَهُ أَنْ يَأْتِيَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَيُغْمِضَ عَيْنَيْهِ؛ لِأَنَّهَا نَارٌ تَتَأَجَّجُ، يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَيُطَأْطِئُ رَأْسَهُ وَيَشْرَبُ مِنْ هَذَا الَّذِي يَرَاهُ نَارًا؛ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَسْتَغِيثَ العَبْدُ بِاللهِ تَعَالَى مِنْهُ وَيَقْرَأَ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الكَهْفِ؛ فَتَكُونُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، فَمِنْ شَأْنِهِ وَمِنْ شَرِّهِ وَفِتْنَتِهِ هَذَا الحَالُ؛ أَنَّ مَعَهُ مَاءً حَقِيقَتُهَا أَنَّهَا نَارٌ، وَأَنَّ مَعَهُ نَارًا حَقِيقَتُهَا أَنَّهَا مَاءٌ بَارِدٌ.

5- «حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ: كَافِرٌ. فِيهِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[171].

يَعْنِي: فِي هَذَا الحَدِيثِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[172] وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[173] عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ حَدِيثِ أَنَسٍ، هَذَا المُرَادُ بِقَوْلِهِ «فِيهِ» يَعْنِي: فِي هَذَا البَابِ هَذَا الحَدِيثُ وَرَدَ مِنْ طَرِيقِ أَنَسٍ، وَوَرَدَ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ.

([169]) هو: حذيفة بن أسيد بالفتح ويقال أمية بن أسيد بن خالد بن الأغوز بن واقعة بن حرام بن غفار الغفاري أبو سريحة بمهملتين، مشهور بكنيته شهد الحديبية وذكر فيمن بايع تحت الشجرة ثم نزل الكوفة، مات سنة اثنتين وأربعين. انظر الإصابة (1646/43/2)، وأسد الغابة (571/1).

(170) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ذكر الدجال (7130).

(171) أخرجه البخاري في كتاب الفتن- باب ذكر الدجال (7131).

(172) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب ذكر الدجال وصفته وما معه (2936).

(173) أخرجه البخاري في كتاب اللباس- باب الجعد (5913)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات (166).

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ» وَهَذَا تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهِ، لَكِنْ هُنَا ذَكَرَهُ بِوَصْفِهِ، الأَعْوَرُ الكَذَّابُ، الأَعْوَرُ لِأَنَّ عَيْنَهُ كَعِنَبَةٍ طَافِيَةٌ، الكَذَّابُ لِأَنَّهُ فَاجِرٌ عَظِيمُ الكَذِبِ عَلَى اللهِ، أَنْ يَفْتَرِيَ هَذَا الِافْتِرَاءَ مُدَّعِيًا أَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ –عِيَاذًا بِاللهِ–.

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ: كَافِرٌ»، بَيْنَ عَيْنَيِ الدَّجَّالِ جَعَلَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– وَهَذَا مِنْ نِعْمَتِهِ وَلُطْفِهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ المؤْمِنِينَ–، وَهُوَ مَا قُلْنَا وَنُؤَكِّدُ عَلَيْهِ: الفِتَنُ أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَإِنْ عَظُمَتْ مَخَارِجُهَا فِي النُّصُوصِ بَعْدَ رَحْمَةِ اللهِ، فَالَّذِي يَرْجِعُ إِلَى النُّصُوصِ عِنْدَمَا تَقَعُ الفِتَنُ يَجِدُ المخَارِجَ، وَالَّذِي يَرْجِعُ إِلَى رَأْيِهِ وَإِلَى آرَاءِ النَّاسِ يَضِيعُ؛ وَلِهَذَا أَمْرُ الفِتَنِ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تُرَدُّ إِلَى النُّصُوصِ كَغَيْرِهَا مِنَ الأُمُورِ الَّتِي يُخْتَلَفُ فِيهَا؛ فَلِهَذَا جَاءَ فِي شَأْنِ الدَّجَّالِ هَذَا المخْرَجُ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، وَهُوَ أَنْ جَعَلَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عَيْنَيِ الدَّجَّالِ الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ الرَّبُّ، وَتَقَعُ هَذِهِ الخَوَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ: يَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، تَتْبَعُهُ الكُنُوزُ كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، مَعَ كُلِّ مَا يَقَعُ إِلَّا أَنَّ المؤْمِنَ يَرَى أَنَّ بَيْنَ عَيْنَيِ الدَّجَّالِ مَكْتُوبٌ كِتَابَةً حَقِيقِيَّةً: «كَافِرٌ»، وَالمؤْمِنُ أَبْغَضُ شَيْءٍ لَهُ الكُفْرُ، فَيَدَّعِي كَذَا، وَيَقَعُ لَهُ مِنَ الخَوَارِقِ كَذَا، وَلَكِنْ مَكْتُوبٌ الآنَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: «كَافِرٌ».

فَجَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَامَاتٍ لِأَهْلِ الإِيمَانِ، مِنْهَا: أَنَّ عَيْنَهُ كَمَا أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَوْرَاءُ، وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا الدَّجَّالَ قَدْ جُعِلَ فِي وَجْهِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كِتَابَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُزِيلَهَا: «كَافِرٌ»، يَبْقَى المؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ، يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٌ وَغَيْرُ كَاتِبٍ»؛ لِأَنَّ اللهَ يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَيْهِ، فَيَقْرَؤُهَا المؤْمِنُ حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ قَارِئًا وَلَمْ يَكُنْ كَاتِبًا، فَلَيْسَ الأَمْرُ فِي مِثْلِ هَذِهِ المَوَاضِعِ أَمْرَ قِرَاءَةٍ وَأُمِّيَّةٍ، لَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: أَنَّ الكَافِرَ الكَاتِبَ الَّذِي يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ لَا يَرَى هَذِهِ الكِتَابَةَ، وَهَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى.

فَصَارَتْ هَذِهِ عَلَامَةً لِأَهْلِ الإِيمَانِ يَقْرَؤُهَا المؤْمِنُ سَوَاءٌ كَانَ كَاتِبًا أَوْ غَيْرَ كَاتِبٍ، وَلَا يَرَاهَا الكَافِرُ حَتَّى لَوْ كَانَ يَقْرَأُ؛ لِأَنَّ المرْجِعَ فِي هَذَا لَيْسَ إِلَى القِرَاءَةِ وَعَدَمِ القِرَاءَةِ, وَلَكِنْ إِلَى الآيَةِ الَّتِي يَجْعَلُهَا اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا العَدُوِّ حَتَّى يَحْذَرَهُ المؤْمِنُ. فَهَذَا مِنَ الأُمُورِ الَّتِي أَيْضًا تُبَيِّنُ كَذِبَهُ وَدَجَلَهُ، أَنَّهُ يُكْتَبُ هَذِهِ الكِتَابَةُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُزِيحَهَا.

(21) «بَابٌ: لَا يَدْخُلُ الدَّجَّالُ المَدِينَةَ»

«حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْمُجْمِرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ وَلَا الدَّجَّالُ»[174].

هَذَا مِنْ فَضَائِلِ المَدِينَةِ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَمَاهَا مِنَ الدَّجَّالِ وَحَمَاهَا أَيْضًا مِنَ الطَّاعُونِ، فَلَا يَدْخُلُهَا الدَّجَّالُ وَلَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، وَهَذَا مِنْ فَضَائِلِ المَدِينَةِ.

(22) «بَابُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»

«حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ (ح)، وَحَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي أَخِي، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَتِيقٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ[175]، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ –وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا–. قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[176].

فِي هَذَا الحَدِيثِ الَّذِي تَرْوِيهِ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَيَرْوِيهِ عَنْهَا أُمُّ حَبِيبَةَ، فَهِيَ مِنْ رِوَايَةِ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ عَنْ أُمٍّ لَنَا أُخْرَى رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُنَّ. أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ لَهَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ

---

(174) أخرجه البخاري في كتاب الفتن– باب لا يدخل الدجال المدينة (7133)، ومسلم في كتاب الحج– باب صيانة المدينة من دخول الطاعون والدجال (1379).

(175) هي: زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، من أسد خزيمة: أم المؤمنين، وإحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام، كانت زوجة زيد بن حارثة، واسمها (برة) وطلقها زيد، فتزوج بها النبي صلى الله عليه وسلم وسماها (زينب) وكانت من أجمل النساء، وبسببها نزلت آية الحجاب. وهي أول من حمل بالنعش من موتى العرب، فلما رآه عمر قال: نعم خباء الظعينة. (الطبقات الكبرى: 101/8).

(176) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء – باب قصة يأجوج ومأجوج (3346) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (2880).

اقْتَرَبَ»، وَتَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى أَوَّلِ الحَدِيثِ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى قَوْلِهِ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ».

ثُمَّ قَالَ: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ -وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الْإِبْهَامِ»، الرَّدْمُ هُوَ السَّدُّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو القَرْنَيْنِ، وَالوَارِدُ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾[177] يَعْنِي: الجَبَلَيْنِ، فَلَمَّا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ أَفْرَغَ عَلَى هَذَا الحَدِيدِ القِطْرَ، وَهُوَ النُّحَاسُ، ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾[178]، وَهَذَا الحَدِيدُ إِذَا جَاءَ عَلَيْهِ النَّارُ ثُمَّ أُفْرِغَ عَلَيْهِ النُّحَاسُ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَتَلَاحَمُ وَيَشْتَدُّ، فَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾[179]، مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَصْعَدُوا هَذَا السَّدَّ الَّذِي هُوَ حَائِلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ، بَيْنَ جَبَلَيْنِ كَمَا هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ هَذَا السَّدُّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو القَرْنَيْنِ، وَبَقَاؤُهُ بِأَمْرِ اللهِ لَا بِقُوَّةِ البِنَاءِ، وَإِلَّا فَالمُعْتَادُ أَنَّ هَذِهِ البِنَايَاتِ تَسْقُطُ، لَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾[180] إِذَا جَاءَ الوَقْتُ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ تَعَالَى خَرَجُوا، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يَعْنِي: هَذَا السَّدَّ ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[181] وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَنْقُبُوا السَّدَّ وَيَخْرُجُوا مِنْهُ، ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾[182] يَسْقُطُ هَذَا السَّدُّ أَوْ يَفْتَحُونَهُ ثُمَّ يَخْرُجُونَ إِلَى النَّاسِ.

يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ -وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا»، هَذِهِ الأُصْبُعُ هِيَ المسَمَّاةُ بِالإِبْهَامِ -الكَبِيرَةِ- وَالَّتِي تَلِيهَا هَذِهِ السَّبَّابَةُ، وَيَأْتِي لَهَا إِنْ شَاءَ اللهُ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ بَيَانُ صِفَةِ العَقْدِ هَذَا.

قَالَتْ زَيْنَبُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سَائِلَةً النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟» قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»، وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ عِنْدَ الحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ أَنَّ العَذَابَ إِذَا نَزَلَ فَإِنَّهُ يَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهُمْ -عِيَاذًا بِاللهِ- الصَّالِحَ مِنْهُمْ وَغَيْرَ الصَّالِحِ، وَتَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَيْهِ؛ فَيُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا الحَدِيثِ وَبَيْنَ الحَدِيثِ السَّابِقِ، فَفِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ العَذَابَ -نَعُوذُ بِاللهِ مِنْهُ- إِذَا نَزَلَ فَإِنَّهُ

---

(177) سورة الأنبياء: 96.
(178) سورة الأنبياء: 96.
(179) سورة الأنبياء: 97.
(180) سورة الأنبياء: 96، 97.
(181) سورة الأنبياء: 97.
(182) سورة الأنبياء: 98.

يَعُمُّ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»[183]، الصَّالِحُ يُبْعَثُ عَلَى عَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَالفَاجِرُ يُبْعَثُ عَلَى عَمَلِهِ الفَاجِرِ.

([183]) أخرجه البخاري في كتاب البيوع- باب ما ذكر في الأسواق (2118)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (2884).

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تفسير سورة العنكبوت	
آيات سورة العنكبوت	1
محور السورة	4
المقطع الأول: اختبار الناس و جزاؤهم	6
المقطع الثاني: التوصية بحسن معاملة الوالدين و بيان خسة المنافقين.	10
المقطع الثالث: قصة نوح –عليه السلام–	13
المقطع الرابع: قصة إبراهيم –عليه السلام– مع قومه، و جوابهم له	14
المقطع الخامس: قصة لوط –عليه السلام– مع قومه	21
المقطع السادس: قصة شعيب وهود وصالح وموسى –عليهم السلام–	25
المقطع السابع: فائدة خلق السماوات و الأرض وتلاوة القرآن و إقامة الصلاة	30
المقطع الثامن: مناقشة أهل الكتاب بالحسنى و مطالبهم التعجيزية	32
المقطع التاسع: حض المؤمنين على الهجرة عند التضييق عليهم	39
المقطع العاشر: تبيين حالة الدنيا و الآخرة و اعتراف المشركين بالله الخالق الرازق المحيي	41
المراجع	46
أحاديث كتاب الفتن للبخاري وشروحها	
مقدمة	47
قائمة بأحاديث محور الصبر والثبات عند الفتن	50
الباب الأول : ما جاء في قولة تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)	57
الباب الثاني : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (سترون بعدي أموراً تنكرونها)	61
الباب الثالث : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ويل للعرب من شر قد اقترب)	69
الباب الرابع : باب ظهور الفتن	73
الباب الخامس : (باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شرّ منه)	78
الباب السادس : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من حمل علينا السلاح فليس منا)	83
الباب السابع : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)	85
الباب الثامن : باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم	95
الباب التاسع : إذا التقى المسلمان بسيفهما	100
الباب العاشر : باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة	107

الباب الحادي عشر : باب التعوذ من الفتن	112
الباب الثاني عشر: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الفتنة من قبل المشرق)	116
الباب الثالث عشرة : باب الفتنة التي تموج كموج البحر	119
الباب الرابع عشرة : باب	124
الباب الخامس عشرة: باب إذا أنزل الله بقوم عذابا	127
الباب السادس عشرة: باب إذا قال عند قوم شيئا ثم خرج فقال بخلافه	130
الباب السابع عشرة: باب لا تقوم الساعة حتى يقبط أهل القبور	133
الباب الثامن عشرة: باب خروج النار	136
الباب التاسع عشرة: باب	138
الباب العشرون: باب ذكر الدجال	141
الباب الحادي و العشرون: باب لا يدخل الدجال المدينة	147
الباب الثاني و العشرون: باب يأجوج و مأجوج	147

١٤٣٦-١٤٣٧ هـ